الإكسير

خلاصة أعمال القلوب من مدارج السالكين لابن القيم

إعداد

مجموعة من الباحثين

الطبعة الثالثة

دار الحضارة للنشر والتوزيع

الإكسير

خلاصة أعمال القلوب من مدارج السالكين لابن القيم

إعداد

د. صالح بن عبد العزيز المحيميد

أ. تركي بن عبد الله التركي

د. حازم بن عبد الرحمن البسام

د. فهد بن محمد الخويطر

أ. محمد بن عبد الله الحميد

ⓒ دار الحضارة للنشر و التوزيع، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البسام، حازم عبدالرحمن

الإكسير.. خلاصة أعمال القلوب من مدارج السالكين لابن القيم./

حازم عبدالرحمن البسام.، ط٣- الرياض ١٤٤١هـ

ص ٢٨٦؛ ١٧×٢٢سم

ردمك: ٢-٦٨-٨٢٩٠-٦٠٣-٩٧٨

١- الأخلاق الإسلامية ٢- الفضائل الإسلامية أ. العنوان

ديوي ٢١٢,٢ ١٤٤١/٦٣٠٠

رقم الإيداع: ١٤٤١/٦٣٠٠

ردمك: ٢-٦٨-٨٢٩٠-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثالثة

١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

دار الحضارة للنشر و التوزيع

ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥

هاتف: ٢٤١٦١٣٩ ١١ ٠٠٩٦٦ - ٢٤٢٢٢٥٨ ١١ ٠٠٩٦٦

فاكس: ٢٧٠٢٧١٩ ٠٠٩٦٦ - تحويله: ١٠٣

المبيعات: ٥٠٤١٨٠٤٥٣ ٠٠٩٦٦- الغربية: ٥٠٧٧٧٠٤٢١ ٠٠٩٦٦

موقعنا على الإنترنت www.daralhadarah.com

تصميم و إخراج

بسم الله الرحمن الرحيم

الإكسير

المقدمة

الحمد لله الذي أكرم عباده بالسلوك إليه، وتفضل عليهم بمعرفة الطريق والسير عليه، ثم الصلاة والسلام على إمام السالكين، وخاتم المرسلين، وعلى من تبعه من الصالحين، أما بعد:

فإن السائر إلى الله تعالى مفتقرٌ في سيره إلى ما يُصلح قلبَه ويُزَكِّيه، ويُوقِظُه من غفلته ويُرَقِّيه، ولا يزال السائر بذلك مشتغلًا حتى ينتهي أوان العمل، وتحلَّ به ساعة الأجل، فيجد عند ذلك سعيَه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [سورة الشعراء:٨٨-٨٩]، فمن سلَّم قلبه من شوائبه هنا؛ نجاه الله هناك، ومن أهمله هنا؛ عاقبه الله هناك.

وإنَّ من أعظم ما يُعين على سلامة القلب وطهارته: سَفَرَ القلب في كُتب الرقائق وإصلاح النفوس، تلك التي خطَّتْها أنامل سلف الأمة، بمداد الكتاب والسنة، ومن أَمْثَلِ تلك الكتب وأحسنها، وأبركها وأتقنها: **كتابُ مدارج السالكين، للإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله.**

وقد جاد الله فيه على مؤلفه فأجاد، وفتح له فيه فأفاد، حتى صار للعقد واسطة، وللمسك خاتمة، فأضحى بين كتب المؤلف مقدَّمًا وسابِقًا، وإِمَامًا وسَائِقًا.

وقد منَّ الله علينا بكتاب **(تقريب مدارج السالكين)** الذي يُعدُّ تهذيباً لكتاب **(المدارج)** من كلِّ ما ليس له صلة بأصلِ موضوع الكتاب ومقصده الرئيس، ألا وهو أعمال القلوب والمنازل التي يترقَّى فيها العبد مراقي العبودية.

واليوم نقدم لعموم القراء كتاب (**الإكسير**)، وهو تهذيب للتقريب، يقع في ثُلث التقريب من حيث الحجم، انتقيناه ليكون تِرْيَاقًا إيمانيًا، مشتملًا على مقاصد كتاب مدارج السالكين، راجين أن يَصِحَّ عليه ما قال ابن القيم: (**الإكسير الكيماوي، الذي إذا وُضع منه مثقالُ ذرةٍ على قناطيرَ من نحاسِ الأعمال قلَبَها ذهباً**).

منهجية العمل:

أولا: المقصد الأساس من هذا العمل هو تقريب كتاب: مدارج السالكين، وتيسير الاستفادة منه لشريحة أوسع من القراء؛ ليكون منهجاً إيمانياً، وتزكيةً نفسيةً، وزبدةً سلوكيةً تحوي نفيس كلام ابن القيم في الرِّقاق وأعمال القلوب ومنهج السلوك وقواعده، ولئن كان (التقريبُ) تهذيباً (للمدارج)؛ (فالإكسيرُ) تهذيبٌ للتهذيب.

ثانيا: سعياً في تحقيق مقصد (**الإكسير**)؛ فقد حذفنا مما أثبتناه في (**التقريب**) الآتي:

(أ) جميعَ كلام الهروي، وما اتصل به من كلام المؤلف - ما لم يكن ذكره ملحّا-.

(ب) كلامَ المؤلف غيرَ المتَّسِقِ مع عنوان المنزلة وأصل موضوعها، أو ما كان من قبيل التقسيمات العلمية وأوجه الاستنباط -ولو كان موضوعها الرقائق وأعمال القلوب-، وترتب على هذا حذف بعض المنازل كاملة.

(ج) المنازلَ التي لم يترشح منها مما يوافق مقصد (**الإكسير**) إلا أسطراً قليلة، مما جعل بقاءها غير منسجم مع منهجية الكتاب وسبكه.

(د) المكرَّرَ من النصوص الشرعية -ما لم يُضف معنى زائداً في محل

الاستشهاد-، ونكتفي منها -غالباً- بذكر آية وحديث، بحسب المتن الأصح، والمعنى الأقرب والأشمل.

(هـ) المكرَّرَ من كلام المؤلف إذا تضمن المعنى نفسه، وكذلك المكرَّرَ من منقوله، وخصوصًا عند سرده عددًا كبيرًا من التعريفات أو المقولات أو الأبيات الشعرية.

(و) العناوين الجانبية التي وضعناها في (التقريب).

ثالثا: قد يحتاج سياق الكلام إلى زيادة تربط بعضه ببعض، وعند ذلك نُضيف هذه الزيادة، ونجعلها بين معقوفتين هكذا [.....].

رابعا: اعتمدنا في أحاديث (الإكسير) على المنهج الآتي:

(أ) ذكر الأحاديث الصحيحة والحسنة دون الضعيفة.

(ب) إذا كان الحديث مخرجاً في الصحيحين أو أحدهما؛ فنقتصر عليه في التخريج.

(ج) إذا خرج الحديث أهل السنن ولم يخرج في الصحيحين؛ اقتصرنا على اثنين منهم، مع ذكر الحكم على الحديث.

(د) إذا خرج الحديث أحمد وغيره ولم يخرجه أهل السنن؛ اكتفينا بأحمد.

(هـ) اكتفينا في الحكم على الأحاديث بأحكام الإمام الألباني دون غيره، وذلك لشهرته عند المعاصرين.

خامسا: اقتصرنا في غريب الألفاظ على ذكر معنى اللفظ، دون ذكر المراجع.

سادسا: وقع في مواضع يسيرة من الكتاب تقديم نصِّ المؤلف أو تأخيره؛

رعايةً للمناسبة، وقد ميَّزنا النص الموضوع في غير محلِّه بوضعه بين نجمتين هكذا *......*.

سابعا: وضعنا عناوين لفقرات الكتاب كالمنازل وبعض الفصول فيها مستفيدين من العناوين التي استخدمها ابن القيم رحمه الله في الكتاب الأصل أو مجتهدين بعنوان يناسب ما يتبعه من الكلام.

خطوات العمل:

١ قُسم التقريب إلى أجزاءٍ، ووُزِّعَتْ على فريق العمل، وقام كلٌّ باحث باختصار جزئه.

٢ راجَعَ كلٌّ باحث مختصر الباحث الآخَر.

٣ قام اثنان من الباحثين بمراجعةِ الإكسير كاملاً بعد تهذيبه ومراجعته من الباحثين.

٤ وُزِّعَتِ الأجزاءُ مرَّةً أخرى على الباحثين لمراجعةِ المسودة.

٥ سُلِّم العملُ إلى فريق متخصِّصٍ لضبط النصَّ المهذَّبِ كاملاً، ومقابلته على النصِّ المحقَّق من نسخة التقريب.

٦ صُفَّ الكتاب، وعُزيت آياتُه، وخُرِّجَتْ أحاديثُه، وخُدِمَ بعلامات التَّرقيم والتَّشكيلِ لِما يُشْكلِ.

٧ وُزِّع الإكسير بعد هذه المراحلِ على مجموعة من المحكِّمينَ لتحكيمه.

٨ رُوجِعَت الملحوظاتُ وعُدِّلتْ بحسَبِ اجتهادِ الفريق.

وفي الختام نحمد الله تعالى على نعمة التمام، ونسأله القبول والإكرام، متعلقين بأهداب جوده، واقفين بباب عفوه، راجين منه أن يبارك هذا العمل، وأن يجعله خالصا لوجهه، والحمد لله رب العالمين.

فريق العمل:

د. صالح بن عبد العزيز المحيميد.

أ. تركي بن عبد الله التركي.

د. حازم بن عبد الرحمن البسام.

د. فهد بن محمد الخويطر.

أ. محمد بن عبد الله الحميد.

ونسعد بأي ملحوظة أو اقتراح على هذا العمل من خلال البريد الإلكتروني:

tagrebalmdareg@gmail.com

ربّ يَسّر وأعِنْ

الحمدُ لله ربِّ العالَمين، والعاقبة للمُتَّقِين، ولا عُدوانَ إلا على الظالمين، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وحْدَه لا شريكَ له، ربُّ العالَمين، وإلهُ المُرسَلين، وقيومُ السَّموات والأرَضين، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ بالكِتاب المبين، الفارِقِ بين الهُدى والضلال، والغيِّ والرَّشاد، والشكِّ واليقين.

أنزله لنقرأه تدبُّرًا، ونتأمَّله تبصُّرًا، ونسعد به تذكُّرًا، ونحمِلَه على أحسنِ وجوهه ومعانيه، ونصدِّقَ أخباره، ونجتهد على إقامة أوامره ونواهيه، ونجتني ثِمارَ علومه النافعة المُوصلة إلى الله سبحانه مِن أشجاره، ورياحين الحِكَم من بين رِياضه وأزهاره.

وبعدُ: فلمَّا كان كمالُ الإنسان إنما هو بالعِلم النافع، والعمل الصالح كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ - ٣]؛ كان حقيقًا بالإنسان أن يُنفق ساعات عمره-بل أنفاسَه- فيما ينال به المطالب العالية، ويَخلُص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبالِ على القرآن وتفهُّمِه وتدبُّره، واستخراجِ كنوزه، وإثارةِ دفائنه، وصرْفِ العناية إليه، والعكوفِ بالهِمَّة عليه؛ فإنه الكفيلُ بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والمُوصل لهم إلى سبيل الرشاد.

ونحن بعون الله نُنبِّه على هذا بالكلام على فاتحة الكتاب وأُمِّ القرآن،

وعلى بعض ما تضمنته هذه السورة من هذه المطالب، وما تضمَّنَته من منازل السائرين، ومقامات العارفين، والفرق بين وسائلها وغاياتها، ومواهبها وكسبياتها، وبيان أنه لا يقوم غيرُ هذه السورةِ مَقامَها، ولا يسدُّ مسدَّها؛ ولذلك لم يُنْزِل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مِثْلَها.

والله المستعان، وعليه التُّكْلَان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم.

بيان اشتمال الفاتحة على أمهات المطالب

اعلم أنَّ هذه السورةَ اشتملتْ على أمهات المطالبِ العالية أَتَمَّ اشتمال، وتضمَّنتها أكملَ تضمُّن؛ فاشتملتْ على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء، مَرجِعُ الأسماء الحسنى والصفاتِ العُليا إليها، ومدارُها عليها، وهي: (الله)، و(الرب)، و(الرحمن)، وبُنِيَت السورةُ على الإلهية، والرُّبُوبِيَّة، والرحمة؛ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ مبنيٌّ على الإلهية، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ على الربوبية، وطلب الهداية إلى صراطه المستقيم بصفة الرحمة، والحمد يتضمن الأمورَ الثلاثة، فهو المحمود في إلهيَّته، وربوبِيَّتِه، ورحمته، والثناءُ والمجدُ كمالان لحمده.

وتضمَّنت إثباتَ المعاد، وجزاءَ العباد بأعمالهم، حسَنِها وسَيِّئِها، وتفرُّدَ الربِّ تعالى بالحُكم إذْ ذاك بين الخلائق، وكونَ حُكمه بالعدل، وكل هذا تحت قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

[و] قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] الهداية: هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام.

ومن هاهنا يُعلَم اضطرارُ العبد إلى هذه الدعوة فوق كل ضرورة، وبطلانُ سؤال مَن يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعافُ المعلوم، وما لا نريد فِعْلَه تهاوُنًا وكسلًا مثل ما نريده، أو أكثر منه، أو دونَه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وما نعرف جملته ولا نهتدي

لتفاصيله فأمرٌ يفوتُ الحصر، ونحن محتاجون إلى الهداية التامَّة، فمَن كَمَلَتْ له هذه الأمور؛ كان سؤالُ الهداية له سؤالَ التثبيت والدوام.

وللهداية مرتبة أخرى -وهي آخر مراتبها-: وهي الهداية يومَ القيامة إلى طريق الجنة، وهو الصراط الموصلُ إليها، فمن هُدِيَ في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذي أرسَل به رسولَه، وأنزل به كتابَه؛ هُدِيَ هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنَّتِه ودارِ ثوابه، وعلى قدر ثبوت قدمه على هذا الصراط الذي نصبَه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوتُ قدمه على الصراط المنصوب على مَتْنِ جهنم، وعلى قدر سَيْرِه على هذه الصراط يكون سَيْرُه على ذاك الصراط؛ فمنهم مَن يَمُرُّ كالبرق، ومنهم مَن يَمُرُّ كالطرف، ومنهم مَنْ يَمُرُّ كالريح، ومنهم مَنْ يَمُرُّ كشدِّ الركاب، ومنهم مَن يسعى سعيًا، ومنهم مَن يَمُرُّ مشيًا، ومنهم مَن يحبو حبوًا، ومنهم المخدوش المسلَّم، ومنهم المُكَرْدَسُ [1] في النار.

فلينظرِ العبدُ سَيْرَهُ على ذلك الصراط مِن سَيْرِه على هذا حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة؛ جزاءً وِفاقًا: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

ولَمَّا كان طالبُ الصراط المستقيم طالبَ أمرٍ أكثرُ الناس ناكِبون عنه، مريدًا لسلوكِ طريقٍ مرافقُه فيها في غاية العِزَّة، والنفوس مجبولةٌ على وحشة التفرُّد، وعلى الأُنس بالرفيق؛ نبَّه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هُمُ الذين: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ

(١) المُكَرْدَسُ: الذي جُمِعَت يداهُ ورِجلاه وأُلقي إلى موضع.

وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]، فأضاف الصراطَ إلى الرفيق السالِكين له، وهُمُ الذين أنعم الله عليهم؛ ليزولَ عن الطالب للهداية وسلوكِ الصراط وحشةُ تفرُّده عن أهل زمانه وبَني جِنسه، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هُمُ الذين أنعم الله عليهم؛ فلا يكترث بمخالفة النَّاكِبِينَ عنه له؛ فإنهم هُمُ الأقلُّون قَدْرًا، وإن كانوا الأكثرين عددًا، كما قال بعض السلف: «عليكَ بطريق الحق، ولا تَستَوحِشْ لقِلَّة السالكين، وإياك وطريقَ الباطل، ولا تَغتَرَّ بكثرةِ الهالِكين».

وكلَّما استوحشتَ في تفرُّدك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللَّحاق بهم، وغُضَّ الطرف عمَّن سِواهم؛ فإنهم لن يُغْنُوا عنك من الله شيئًا، وإذا صاحوا بك في طريق سَيرِك فلا تلتفتْ إليهم؛ فإنك متى التفتَّ إليهم أخذوك، أو عاقوك.

اشتمال الفاتحة على الشِّفاءين شِفاء القلوب، وشِفاء الأبدان

فأمّا اشتمالُها على شفاء القلوب: فإنها اشتَملتْ عليه أتمَّ اشتمال؛ فإنَّ مدار اعتلالِ القلوب وأسقامِها على أصلين: فسادِ العِلم، وفساد القصد.

ويترتَّبُ عليهما داءانِ قاتِلان، وهما الضلالُ والغضب؛ فالضلال نتيجةُ فسادِ العِلم، والغضب نتيجةُ فسادِ القصد، وهذان المَرَضان هما مِلاكُ أمراض القلوبِ جميعِها.

فهداية الصراط المستقيم تتضمَّنُ الشفاءَ من مَرض الضلال؛ ولذلك كان سؤالُ هذه الهدايةِ أفرَضَ دُعاءٍ على كل عبدٍ، وأوجبَه عليه كلَّ يوم وليلةٍ في كل صلاة؛ لشدة ضرورتِه وفاقتِه إلى الهداية المطلوبة، ولا يَقومُ غيرُ هذا السؤالِ مَقامَه.

والتحقُّق بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ عِلمًا ومعرفةً، وعملًا وحالًا؛ يتضمَّنُ الشفاءَ من مَرَض فساد القلبِ والقصد.

ثم إنَّ القلب يَعرِضُ له مَرَضانِ عظيمان، إنْ لم يَتداركْهما تَراميا به إلى التَّلَف ولا بد، وهما: الرِّياء، والكِبْر؛ فدواء الرِّياء بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، ودواءُ الكِبْر بـ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

وكثيرًا ما كنت أسمَعُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّة -قدَّس اللهُ رُوحَه- يقول: بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ تَدفع الرِّياء، وبـ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ تَدفع الكِبرياءَ.

فإذا عُوفِيَ مِن مرَضِ الرياء بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، ومن مرَضِ الكبرياء والعُجبِ بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، ومن مرَض الضلال والجهل بـ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]؛ عُوفِيَ مِن أمراضه وأسقامِه، ورَفَلَ في أثواب العافية، وتمَّت عليه النعمة، وكان من المُنْعَم عليهم، غيرِ المغضوب عليهم؛ وهُم أهلُ فسادِ القصد، الذين عرَفوا الحقَّ وعَدَلُوا عنه، والضالِّين؛ وهُم أهلُ فسادِ العِلم، الذين جَهِلوا الحقَّ ولم يَعرِفوه.

وأمَّا تضمُّنُها لشفاء الأبدان: ففي الصحيح من حديث أبي المتوكِّل عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه أنَّ ناسًا من أصحاب النبيِّ ﷺ مرُّوا بحيٍّ من العرب، فلم يَقْرُوهم، ولم يُضيِّفوهم، فلُدِغَ سيِّدُ الحي، فأتوهم، فقالوا: هل عندكم من رُقْيَةٍ، أو هل فيكم مِن راقٍ؟ فقالوا: نعم، ولكنَّكم لم تَقْرُونا، فلا نَفْعَلُ حتى تجعلوا لنا جُعلًا، فجعلوا لهم على ذلك قطيعًا من الغنم، فجعل رجلٌ منَّا يقرأُ عليه بفاتحة الكتاب، فقام كأنْ لم يكن به قَلَبَةٌ، فقلنا: لا تَعْجلوا حتى نأتيَ النبي ﷺ، فأتيْناه، فذكَرْنا له ذلك، فقال: «**ما يُدْريكَ أنَّها رُقْيَةٌ؟ كُلُوا، واضْرِبُوا لي مَعَكُم بِسَهْمٍ**»(١).

فقد تضمَّن هذا الحديثُ حصولَ شفاء هذا اللَّديغِ بقراءة الفاتحة عليه، فأغنَتْه عن الدواء، وربما بلغتْ مِن شفائه ما لم يبلُغْه الدواء، هذا مع كَوْنِ المَحَلِّ غيرَ قابل؛ إمَّا لكون هؤلاء الحيِّ غيرَ مسلمين، أو أهلَ بخلٍ ولُؤم؛ فكيف إذا كان المَحَلُّ قابلًا؟!

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٦، ٥٧٣٦، ٥٧٤٩)، ومسلم (٢٢٠١)، لفظ «كلوا» عند الترمذي (٢٠٦٤).

وأمّا شهادة التَّجارِب بذلك: فهي أكثرُ من أن تُذْكَر، وذلك في كل زمان، وقد جرَّبْتُ أنا من ذلك في نفْسي وفي غَيري أمورًا عجيبة، ولا سيَّما مدَّةَ المُقامِ بمكةَ أعزَّها الله تعالى؛ فإنه كان يَعرِضُ لي آلامٌ مُزْعِجة، بحيث تكاد تَقطعُ الحركةَ منِّي، وذلك في أثناء الطواف وغيره، فأبادر إلى قراءة الفاتحة، وأمسحُ بها على محلِّ الألم فكأنه حصاةٌ تسقط، جرَّبْتُ ذلك مِرارًا عديدة، وكنت آخذُ قَدَحًا من ماء زمزم، فأقرأ عليه الفاتحة مرارًا، وأشربُه، فأجدُ به من النفع والقوَّةِ ما لم أعهَدْ مِثلَه في الدواء، والأمر أعظمُ من ذلك، ولكن بحسَب قوةِ الإيمان، وصحَّةِ اليقين، والله المستعان.

الكلام على قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

سِرُّ الخَلْقِ والأمْر، والكُتُبِ والشَّرائع، والثواب والعِقاب، انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدارُ العبودية والتوحيد، حتى قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعةَ كتُب، جمَع معانيَها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمَع معانيَ هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمَع معانيَ القرآن في المُفَصَّل، وجمع معاني المفصَّل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].
وهما الكلمتان المقسومتان بيْن الرب وبيْن عبدِه نِصفين، فنِصفُهما له تعالى، وهو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ونِصفُهما لعبده، وهو ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذُّلِّ والخضوع، والعرب تقول: طريق مُعَبَّد، أي: مُذَلَّل، والتعبُّد: التَّذَلُّل والخضوع، فمَن أحببتَه ولم تكن خاضعًا له لم تكن عابدًا له، ومَن خضعْتَ له بلا محبَّةٍ لم تكن عابدًا له، حتى تكون مُحِبًّا خاضعًا.

والاستعانة تجمع أصلين: الثقةَ بالله، والاعتمادَ عليه؛ فإن العبد قد يَثِقُ بالواحد من الناس ولا يَعتمد عليه في أموره مع ثقته به؛ لاستغنائه عنه، وقد يَعتمدُ عليه مع عدم ثقتِه به؛ لحاجته إليه، ولعدم مَن يقوم مَقامَه، فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به.

والتوكُّل معنى يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد، وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وتقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل؛ إذِ العبادة غايةُ العباد التي خُلِقُوا لها، والاستعانة وسيلةٌ إليها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ رحمه الله: «تأمَّلت أنفع الدعاء فإذا هو في سؤال الله العونَ على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة، في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾».

أفضل العبادات

أهلُ مقامِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعِها، وأحقِّها بالإيثار والتخصيصِ أربعةُ طُرُق، وهُم في ذلك أَربعةُ أصناف:

الصِّنف الأوَّل: عندَهم أنفع العبادات وأفضَلُها: أشقُّها على النفوس وأصعبُها؛ قالوا: لأنه أبعدُ الأشياء مِن هَواها، وهو حقيقة التعبُّد، والأجر على قدْر المشقَّة، وهؤلاء: هُم أهلُ المجاهدات والجَورِ على النفوس.

الصِّنف الثاني قالوا: أفضلُ العبادات وأنفعُها: التَّجرُّد، والزهدُ في الدنيا، والتقلُّلُ منها غايةَ الإمكان، واطِّرَاحُ الاهتمام بها، وعدمُ الاكتراث بكلِّ ما هو منها.

الصِّنف الثالث: رأوْا أنَّ أفضلَ العِبادات وأنفعَها ما كان فيه نفعٌ مُتعَدٍّ: فرأوه أفضلَ من ذي النفع القاصر، فرأوا خِدمة الفقراء، والاشتغالَ بمصالح الناس وقضاءِ حوائجهم، ومساعدتَهم بالمال والجاهِ والنفع أفضلَ، فتصدَّوْا له، وعمِلوا عليه.

واحتجُّوا بأنَّ عمَلَ العابد قاصرٌ على نفسه، وعمَلَ النَّفَّاع متعَدٍّ إلى الغير، وأين أحدُهما من الآخَر؟!

قالوا: وقد قال رسولُ الله ﷺ لعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «**لَأَنْ يَهدِيَ الله بكَ رجُلًا واحِدًا خيرٌ لَكَ مِن حُمْرِ النَّعَمِ**»[1]، وهذا التفضيل للنفع المتعدِّي.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦).

الصنف الرابع قالوا: إنَّ أفضل العبادة العملُ على مرضاة الربِّ تعالى في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقتِ ووظيفتُه.

فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهادُ، وإنْ آلَ إلى ترْك الأوراد؛ من صلاة الليل، وصيام النهار، بل ومِن ترْك إتمامِ صَلاة الفرض، كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حُضور الضيفِ مثلا: القيامُ بحقِّه، والاشتغالُ به عن الوِرد المُستحَبِّ، وكذلك في أداء حقِّ الزوجة والأهل.

والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليمِ الجاهِل: الإقبالُ على تعليمه، والاشتغالُ به.

والأفضلُ في أوقات السَّحر: الاشتغالُ بالصلاة والقرآن والدعاءِ والذِّكر والاستغفار.

والأفضل في وقتِ الأذان: ترْكُ ما هو فيه مِن وِرده، والاشتغالُ بإجابة المؤذِّن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخَمسِ: الجِدُّ والنُّصحُ في إيقاعها على أكملِ الوجوه، والمبادرةُ إليها في أوَّل الوقت، والخروجُ إلى الجامع، وإنْ بعُد كان أَفضلَ.

والأفضل في أوقات ضرورةِ المحتاج إلى المساعدةِ بالجاه، أو البَدَنِ، أو المال: الاشتغالُ بمساعدته، وإغاثةُ لهفته، وإيثارُ ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل في وقت قِراءة القرآن: جمعيَّةُ القلب والهِمَّة على تدبُّره وتفهُّمِه، حتى كأنَّ الله يخاطبُك به، فتَجمعُ قلبَك على فَهْمه وتدبُّره، والعزمِ على تنفيذ أوامرِه أعظمَ مِن جَمعيَّة قلْبِ مَن جاءه كتابٌ من السلطان على ذلكَ.

والأفضل في وقت الوقوفِ بعرفة: الاجتهادُ في التضرُّع والدعاء والذِّكرِ، دون الصَّومِ المُضعِف عن ذلك.

والأفضل في وقت مَرَضِ أخيك المسلم أو موتِه: عيادتُه، وحضورُ جنازتِه وتشييعُه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيَّتِك.

والأفضل في وقت نزول النوازلِ وأذى الناس لك: أداءُ واجب الصبر مع خُلطتك بهم، دون الهرب منهم؛ فإنَّ المؤمن الذي يخالِطُ الناس ويصبر على أذاهُم أفضلُ من الذي لا يخالطُهم ولا يؤْذونه.

والأفضل خُلطتهم في الخير؛ فهي خيرٌ من اعتزالهم فيه، وعزلتُهم في الشرِّ؛ فهو أفضلُ من خلطتهم فيه، فإنْ عَلِمَ أنه إذا خالطهم أزالَه أو قلَّله فهي خير من عزلتهم.

فالأفضل في كلِّ وقت وحالٍ: إيثارُ مرضاة الله في ذلك الوقتِ والحال، والاشتغالُ بواجب ذلك الوقتِ ووظيفتِه ومُقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبُّد المُطْلَق، والأصنافُ قبلَهم أهلُ التعبُّدِ المقيَّد؛ فمتى خرج أحدهم عن الفرْع الذي تعلَّق به من العبادة وفارَقه يرَى نفْسَه كأنه قد نقَص وترَك عبادته، فهو يعبد الله على وجهٍ واحد، وصاحب التعبُّد المطْلَق ليس له غرضٌ في تعبُّدٍ بعينه يُؤثره على غيره، بل غرضه تتبُّع مرضاة الله تعالى أين كانت؛ فمدارُ تعبُّدِه عليها، فهو لا يزال متنقِّلًا في منازل العبودية، كلَّما رُفعت له منزلةٌ عَمِلَ على سَيره إليها، واشتغل بها حتى تلوحَ له منزلةٌ أخرى، فهذا دأبُه في السير حتى ينتهي سيرُه، فإنْ رأيتَ العلماء رأيتَه معهم،

وإنْ رأيت العُبَّاد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدِّقين المحسنين رأيته معهم، فهذا هو العبدُ المطْلَقُ، الذي لم تَمْلِكْه الرُّسوم، ولم تقيِّده القيود، ولم يكن عملُه على مراد نفْسه وما فيه لذَّتُها وراحتُها من العبادات، بل على مراد ربِّه، ولو كانت راحةُ نفْسه ولذَّتُها في سواه، فهذا المتحقِّق بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ حقًّا، القائمُ بهما صدقًا، مَلْبَسُه ما تهيَّأ، ومأكلُه ما تيسَّر، واشتغالُه بما أُمِرَ به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى ووجَدَه خاليًا، لا تملكه إشارة، ولا يُقيِّده قيد، ولا يستولي عليه رسْم، حرٌّ مجرَّد، دائر مع الأمر حيث دار، يَدِين بدِينِ الآمِر أنَّى توجَّهَتْ ركائبُه، ويدور معه حيث استقلَّت مضارِبُه، يأنس به كُلُّ مُحِقٍّ، ويستوحش منه كُلُّ مُبْطِلٍ، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يَسقُط ورقُها، وكلُّها منفعة حتى شوكُها، وهو موضع الغلظةِ منه على المخالفين لأمر الله، والغضبِ إذا انتُهكتْ محارمُ الله؛ فهو لله وبالله ومع الله، قد صحِبَ اللهَ بلا خَلق، وصحِب الناس بلا نفْس، بل إذا كان مع الله عزَل الخلائق، وتخلَّى عنهم، وإذا كان مع خَلقه عَزَلَ نفْسه وتخلَّى عنها، فواهًا له! ما أغرَبَه بين الناس! وما أشدَّ وحشتَه منهم! وما أعظمَ أُنسَه بالله وفرَحَه به، وطمأنينتَه به، وسُكونَه إليه والله المستعان، وعليه التُّكْلان.

منازل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ التي يَنتقِل فيها القلب منزلةً منزلةً في حال سَيْرِه إلى الله تعالى

اعلم أنَّ ترتيب هذه المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام ويُفارقه وينتقل إلى الثاني، كمنازل السير الحِسِّي، هذا مُحَال، ألا ترى أن اليقظة معه في كل مقام لا تفارِقه؟ وكذلك البصيرة والإرادة والعزم، وكذلك التوبة؛ فإنها كما أنها من أول المقامات فهي آخرها أيضًا، بل هي في كل مقام مُسْتَصْحَبة؛ ومن المقامات ما يكون جامعًا لمقامَين، ومنها ما يكون جامعًا لأكثر من ذلك، ومنها ما يَندرج فيه جميع المقامات، فلا يستحقُّ صاحبه اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه.

فالتوبة جامعة لمقام المحاسَبة ومقام الخوف، لا يُتصَوَّر وجودُها بدونهما.

والرضا جامعٌ لمقام الصبر ومقام المحبة، لا يُتصوَّر وجودُه بدونهما.

والتوكُّل جامع لمقام التفويض والاستعانةِ والرضا، لا يُتصوَّر وجودُه بدونها.

والرجاء جامع لمقام الخوف والإرادة.

وكل مقام من هذه المقامات فالسالكون بالنسبة إليه نوعان: أبرار، ومُقَرَّبُون؛ فالأبرار في أذياله، والمقرَّبون في ذِرْوَة سَنامه، وهكذا مراتبُ الإيمان جميعُها، وكلٌّ من النوعين لا يُحصِي تفاوتَهم، وتفاضُلَ درجاتهم إلا الله تعالى.

وقد يعرض له أعلى المقامات والأحوال في أول بداية سَيْرِه، فيَنفتح عليه من حال المحبة والرضا والأُنسِ والطمأنينة ما لم يحصل بعدُ للسالك في نهايته، ويحتاج هذا السالك في نهايته إلى أمور -من البصيرة، والتوبة، والمحاسبة- أعظم من حاجة صاحب البداية إليها، فليس في ذلك ترتيب كلِّيٌّ لازمٌ للسلوك.

فالأولى الكلامُ في هذه المقامات على طريقة المتقدِّمين من أئمة القوم كلامًا مُطلقًا في كل مقام مقام، ببيان حقيقته ومُوجِبِه، وآفته المانعة من حصوله، والقاطع عنه، وذِكْر عامِّه وخاصِّه، فكلام أئمة الطريق هو على هذا المنهاج؛ فإنَّهم نظَموا على أعمال القلوب وعلى الأحوال كلامًا مُفصَّلًا جامعًا مبينًا مطلقًا من غير ترتيب، ولا حصر للمقامات بعددٍ معلوم.

فالأولى بنا: أنْ نذكُرَ منازلَ العُبودية الواردة في القرآن والسُّنة، ونذكر لها ترتيبًا غيرَ مُستحقٍّ، بل مُستحسنٌ، بحسب ترتيبِ السَّيرِ الحسيِّ؛ ليكونَ ذلك أقربَ إلى تنزيلِ المعقولِ منزلةَ المشهودِ بالحسِّ، فيكونَ التَّصديقُ به أتمَّ، ومعرفتُه أكملَ، وضبطُه أسهلَ.

منزلة اليقظة

اعلم أنَّ العبدَ قبل وصول الداعي إليه في نوم الغفلة، قلبُه نائم وطرْفه يَقظان، فصاح به الناصح، وأسمعه داعي النجاح، وأذَّنَ به مؤَذِّن الرحمن: «حيَّ على الفلاح».

فأول مراتب هذا النائم اليقظةُ والانتباه من النوم.

* **وهي**: انزعاجُ القلب لرَوعة الانتباه مِن رقدة الغافلين، ولله ما أنفعَ هذه الرَّوعةَ! وما أعظمَ قدْرَها وخطرَها! وما أشدَّ إعانتَها على السلوك! فمَن أحسَّ بها فقد أحسَّ واللهِ بالفلاح، وإلا فهو في سكرات الغفلة، فإذا انتبَهَ شمَّر للهِ بهمَّته إلى السفر إلى منازله الأُولى، وأوطانِه التي سُبِيَ منها.*[1]

فإنه إذا نَهَض من ورطة الغفلة، واستنار قلبه برؤية نور التنبيه؛ أوجَبَ له ذلك ملاحظةَ نِعَم الله الباطنة والظاهرة، وكلَّما حدَّق قلبُه وطرْفُه فيها شاهَدَ عظمتها وكثرتها، فيئِس من عَدِّها، والوقوف على حدِّها، وفرَّغَ قلبه لمشاهدة مِنَّة الله عليه بها من غير استحقاق، ولا استجلاب لها بثمن، فتيقَّنَ حينئذ تقصيرَه في واجبها، وهو القيامُ بشكرها.

فأوجب له شهودُ تلك المِنَّةِ والتقصير نوعين جليلين من العبودية: **محبّة المُنعِم** واللَّهَج بذِكْرِه، وتذلُّله وخضوعه له، **وإزراءَه على نفسه**؛ حيث

---

(١) النجمتان تدلان على أن الكلام بينهما عُدل موضعه من كتاب مدارج السالكين مراعاةً للسياق وهي مواضع قليلة.

عجز عن شكر نِعَمِه، فينظر إلى ما سلف منه من الإساءة، ويعلم أنه على خطر عظيم فيها، مُشْرِف على الهلاك بمؤاخَذةِ صاحب الحقِّ بموجِب حَقِّهِ، فإذا طالَعَ جنايته شمَّر لاستدراك الفارِط بالعلم والعمل، وتخلَّص من رِقِّ الجناية بالاستغفار والنَّدم، وطَلَبِ التمحيص، وهو تخليصُ إيمانه ومعرفته من خَبَثِ الجناية.

وهذا التمحيص يكون في دار الدنيا بأربعة أشياءَ: بالتوبة، والاستغفار، والحسنات الماحِيَة، والمصائبِ المُكَفِّرة، فإنْ مَحَّصَتْه هذه الأربعةُ وخلَّصته كان من الذين تتوفَّاهم الملائكة طيِّبينَ، يُبَشِّرونهم بالجنة، وكان من الذين ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

وإن لم تَفِ هذه الأربعةُ بتمحيصه وتخليصه؛ فلم تكن التوبةُ نصوحًا، وهي العامَّةُ الشاملة الصادقة، ولم يكن الاستغفار كاملًا تامًّا، وهو المصحوبُ بمُفارَقة الذنب والندم عليه، هذا هو الاستغفار النافع، لا استغفارَ مَن في يده قدح المُسْكِر، يقول: أستغفر الله، ثم يَرفعه إلى فيه! ولم تكن الحسناتُ في كَمِّيَّتها وكيفيَّتها وافيةً بالتكفير، ولا المصائب، وهذا إما لعِظَمِ الجناية، وإما لضَعْف المُمَحِّص، وإما لهما: **مُحِّصَ في البرزخ بثلاثة أشياءَ:**

أحدها: صلاة أهل الإيمان عليه، واستغفارهم له، وشفاعتهم له.

الثاني: تمحيصُه بفتنة القبر، وروعة الفتَّان، والعَصْرَة والانتهار، وتوابع ذلك.

الثالث: ما يُهدي إليه إخوانُه المسلمون من هدايا الأعمال.

فإنْ لم تَفِ هذه الثلاثةُ بالتمحيص: مُحِّصَ بين يَدَيْ ربه في الموقف بثلاثة أشياءَ: أهوال القيامة وشدة الموقف، وشفاعة الشُّفَعاء، وعفو الله ﷻ.

فإن لم تَفِ هذه الثلاثة بتمحيصه: فلا بدَّ له من دخول الكِير، رحمةً في حقِّه؛ ليتخلَّص ويتمحَّص، ويتطهَّر في النار، فتكون النارُ طُهرةً له وتمحيصًا لخبثه، ويكون مُكثُه فيها على حسَب كثرة الخبث وقلَّته، وشدَّته وضعفه وتراكُمه، فإذا خرج خبثُه وصُفِّي ذَهَبُه، وصار خالصًا طيبًا، أُخرجَ من النار، وأُدخل الجنة.

منزلة الفِكـرة

فإذا استحكمت يقظتُه أوجبتْ له الفكرة، وهي: تحديقُ القلب إلى جهة المطلوب؛ التماسًا له.

والفكرة فكرتان: فكرة تتعلَّق بالعلم والمعرفة، وفكرة تتعلَّق بالطلب والإرادة.

فالتي تتعلَّق بالعلم والمعرفة: فكرةُ التمييز بين الحق والباطل، والثابت والمنفيِّ.

والتي تتعلَّق بالطلب والإرادة: فهي الفكرة التي تُميِّز بين النافع والضارِّ، ثم يترتَّب عليها فكرةٌ أخرى في الطريق إلى حُصول ما ينفع، فيسلكها، وطريق ما يضرُّ، فيتركها.

فهذه ستَّةُ أقسام لا سابعَ لها، هي مجال أفكار العُقَلاء.

منزلة البصيرة

* فإذا صحَّت فكرتُه أوجبت له البصيرةَ؛ فهي نور في القلب يُبصر به الوعدَ والوعيد، والجنةَ والنار، وما وَعَد اللهُ في هذه لأوليائه، وفي هذه لأعدائه، فأبصَرَ الناسَ وقد خرَجوا من قبورهم مُهْطِعِينَ لدعوة الحق، وقد نزلت ملائكةُ السموات فأحاطت بهم، وقد جاء الله ونَصَبَ كُرسيَه لفصل القضاء، وقد أشرقت الأرض لنوره، ووُضِعَ الكتاب، وجِيءَ بالنبيِّينَ والشهداء، وقد نُصِبَ الميزان، وتطايرت الصُّحُف، واجتمعت الخُصوم، وتعلَّق كلُّ غَريم بغريمه، ولاحَ الحَوضُ وأكوابُه عن كَثَبٍ، وكثُر العِطَاشُ وقَلَّ الوارِد، ونُصِبَ الجسر للعبور، ولُزَّ الناسُ إليه، وقُسِّمت الأنوارُ دون ظلمته للعبور عليه، والنار يَحْطِمُ بعضُها بعضًا تحتَه، والمتساقطون فيها أضعافُ أضعافِ الناجين، فينفتح في قلبه عينٌ يرى بها ذلك، ويقوم بقلبه شاهدٌ من شواهد الآخرة يُرِيهِ الآخرةَ ودوامَها، والدنيا وسرعةَ انقضائها.

فالبصيرة نورٌ يقذفه الله في القلب، يرى به حقيقةَ ما أخبرت به الرسل، كأنه شاهَدَ رأيَ عَيْنٍ، فيتحقَّق مع ذلك انتفاعُه بما دعت إليه الرسل، وتضرُّرُه بمخالفتهم، وهذا معنى قول بعضِ العارفين: البصيرة تحقُّق الانتفاع بالشيء والتضرُّر به. وقال بعضهم: البصيرة ما خلَّصك من الحيرة؛ إما بإيمان، وإما بعِيان.

والبصيرة على ثلاث دَرجات؛ مَن استَكملها فقد استَكمل البصيرة: بصيرة

في الأسماء والصفات، وبصيرة في الأمر والنَّهي، وبصيرة في الوعْد والوعيد.

فالبصيرة في الأسماء والصفات: ألَّا يتأثَّر إيمانُك بشُبهة تُعارِضُ ما وصَفَ الله به نفْسَه، ووصفَه به رسولُه، بل تكون الشُّبَه المُعارضة لذلك عندك بمنزلة الشُّبَه والشكوكِ في وجود الله، فكلاهما سواء في البطلان عند أهل البصائر.

وعقْدُ هذا أن يشهَدَ قلبُك الربَّ تبارك وتعالى مستويًا على عرشه، متكلِّمًا بأمرِه ونهيه، بصيرًا بحركات العالم عُلْويِّه وسُفْليِّه، وأشخاصه وذواته، سميعًا لأصواتهم، رقيبًا على ضمائرهم وأسرارهم، وأمْرُ الممالك تحت تدبيره، نازلٌ مِن عنده وصاعد إليه، وأملاكه بين يديه تُنفِّذ أوامره في أقطار الممالك، موصوفًا بصفات الكمال، منعوتًا بنعوت الجلال، منزَّهًا عن العيوب والنقائص والمثال، هو كما وصَفَ نفْسه في كتابه، وفوق ما يصفه به خلقه، حيٌّ لا يموت، قيُّوم لا ينام، عليم لا يخفى عليه مثقالُ ذَرَّةٍ في السماوات ولا في الأرض، بصير يرى دَبيبَ النملةِ السوداء، على الصخرة الصمَّاء، في الليلة الظلماء، سميع يَسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنُّن الحاجات، تَمَّتْ كلماتُه صِدْقًا وعدلًا، فجلَّت صفاتُه أن تُقاس بصفات خلْقِه شَبهًا ومِثْلًا، وتعالت ذاتُه أن تُشبه شيئًا من الذوات أصلًا، ووسِعتْ الخليقةَ أفعالُه عدلًا وحكمةً ورحمةً وإحسانًا وفضلًا، له الخَلْقُ والأمر، وله النعمة والفضل، وله المُلْكُ والحمد، وله الثناء والمجد، أولٌ ليس قبله شيء، آخرٌ ليس بعده شيء، ظاهر ليس فوقَه شيء، باطن ليس دونَه شيء، أسماؤه كلُّها أسماء مدْح وحمدٍ، وثناءٍ وتمجيدٍ، ولذلك كانت حُسْنَى، وصفاتُه كلُّها صفاتُ كمالٍ، ونُعوته نُعوتُ جلال، وأفعاله كلُّها

حكمةٌ ورحمة، ومصلحة وعدل، كلُّ شيء من مخلوقاته دالٌّ عليه، ومرشِد لمن رآه بعين البصيرة إليه، لم يَخلُقِ السمواتِ والأرضَ وما بينهما باطلًا، ولا ترَكَ الإنسان سُدًى عاطلًا، بل خلق الخَلق لقيام توحيده وعبادته، وأسبَغَ عليهم نِعَمَه ليتوسَّلوا بشكرها إلى زيادته وكرامته، تعرَّف إلى عباده بأنواع التعرُّفات، وصَرَّف لهم الآيات، ونَوَّع لهم الدلالات، ودعاهم إلى محبته من جميع الأبواب، ومدَّ بينه وبينهم من عهده أقوى الأسباب، فأتمَّ عليهم نِعَمَهُ السابغة، وأقام عليهم حُجَّتَه البالغة، أفاض عليهم النعمة، وكَتَب على نفْسه الرحمة، وضَمَّن الكِتابَ الذي كتبه: أنَّ رحمتي سبقت غضبي.

المرتبة الثانية: البصيرة في الأمر والنَّهي؛ وهي تجريده عن المعارضة بتأويل، أو تقليد، أو هوًى، فلا يقوم بقلبه شُبهةٌ تُعارِض العلم بأمر الله ونهيه، ولا شهوةٌ تمنع من تنفيذه وامتثالِه والأخذ به، ولا تقليدٌ يُزيحه عن بذْل الجُهدِ في تلقِّي الأحكام من مِشكاة النصوص.

المرتبة الثالثة: البصيرة في الوعد والوعيد؛ [و] هو أن تشهد قيامَ الله تعالى على كل نفس بما كسبت في الخير والشر، عاجلًا وآجلًا، في دار العملِ، ودار الجزاء، وأنَّ ذلك هو موجِب إلهيته وربوبيته، وعدله وحكمته.

فإذا انتبه وأبصر: أخذ في «**القصد**» وصِدْق الإرادة، وأجْمَعَ القصدَ والنية على سفر الهجرة إلى الله، وعَلِم وتيقَّن أنه لا بدَّ له منه، فأخذ في أُهبَة السفر، وتعبئةِ الزاد ليوم المعاد، والتجرُّد عن عوائق السفر، وقطع العلائق التي تمنعه من الخروج؛ فإذا استحكَمَ قصدُه صار «**عزمًا**» جازمًا، مستلزمًا للشروع في

السفر، مقرونًا بالتوكُّل على الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

والعزم: هو القصدُ الجازم المتَّصل بالفعل، ولذلك قيل: إنه أوَّل الشروع في الحركة لطلب المقصود، وحقيقته: هو استجماع قوى الإرادة على الفعل.

والعزم نوعان؛ أحدهما: عزم المُريد على الدخول في الطريق، وهذا من البدايات. **والثاني**: عزمٌ في حال السَّير، وهو أخصُّ من هذا.❋

منزلـة المحاسـبة

وهذه المنازل الأربعة: اليقظة، والفكرة، والبصيرة، والعزم، [هي] لسائر المنازل كالأساس للبُنيان، وعليها مدار منازل السفر إلى الله تعالى، ولا يُتصوَّر السفرُ إليه بدون نزولها البتَّةَ، وهي على ترتيب السَّير الحِسِّي، فإنَّ المقيم في وطنه لا يتأتَّى منه السفرُ حتى يستيقظ من غفلته عن السفر، ثم يتبصَّر في أمر سفره وخَطَرِه، وما فيه من المنفعة والمصلحة، ثم يفكِّر في أُهبة السفر والتزوُّد وإعداد عُدَّته، ثم يعزم عليه، فإذا عزم عليه وأجمع قصده انتقل إلى منزلة المحاسبة؛ وهي التمييز بين ما له وعليه، فيَستصحِب ما له، ويؤدِّي ما عليه؛ لأنه مسافرٌ سَفَرَ مَنْ لا يعود.

[و] قد دلَّ على المحاسبة قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ [الحشر: ١٨].

[ومن أركان المحاسبة]: أن تُقايسَ بين ما مِنَ الله وما منك، فحينئذ يظهرُ لك التفاوتُ، وتعلم أنه ليس إلا عفوه ورحمته، أو الهلاك والعطَبُ.

وفي هذه المُقايَسة تعلم أنَّ الرب ربٌّ والعبدَ عبدٌ، وتتبين لك حقيقةُ النفْس وصفاتُها، وعَظَمَةُ جلال الربوبية، وتفرُّد الرب بالكمال والإفضال، وأن كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، وأنت قبل هذه المُقايَسةِ جاهلٌ بحقيقة نفْسك، وبربوبية فاطرها وخالِقِها، فإذا قايَسْتَ ظهَر لك أنها منبع كلِّ شر،

وأساس كل نقْص، وأنَّ حدَّها: الجاهلةُ الظالمة، وأنَّه لولا فضلُ الله ورحمته بتزكيته لها ما زكتْ أبدًا، ولولا هُداه ما اهتدت، ولولا إرشاده وتوفيقُه لما كان لها وصولٌ إلى خير البتَّة.

[وتتوقف المحاسبة على]: سوء الظنِّ بالنفس لأنَّ حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش ويُلَبِّس عليه، فيرى المَساوئ محاسنَ، والعيوبَ كمالًا؛ [و] رِضا العبد بطاعته دليلٌ على حُسنِ ظنِّه بنفسه، وجَهلِه بحقوق العبوديَّة، وعدمِ عِلمِه بما يَستحقُّه الرب ﷻ ويليق أن يعامَل به.

وحاصل ذلك: أنَّ جهلَه بنفسه وصفاتها وآفاتها، وعيوبِ عمله، وجهلَه بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامَل به، يتولَّد منهما رضاه بطاعته، وإحسانُ ظنِّه بها، ويتولَّد من ذلك من العُجْب والكِبْر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة؛ من الزنا، وشرب الخمر، والفرار من الزحف، ونحوها؛ فالرضا بالطاعة من رُعونات النفس وحماقتِها.

وأرباب العزائم والبصائر أشدُّ ما يَكونون استغفارًا عَقِيب الطاعات؛ لشهودهم تقصيرَهم فيها، وتَرْكَ القيام لله بها كما يَليق بجلاله وكبريائه، وأنه لولا الأمر لَمَا أقدمَ أحدُهم على مثل هذه العبودية، ولا رَضِيَها لسيِّده.

وقد أمَرَ الله تعالى وَفْدَه وحجَّاجَ بيته بأن يستغفروه عَقِيب إفاضتهم من عرفات، وهو أجَلُّ المواقف وأفضلُها، فقال: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم

مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٨ - ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، قال الحسن ﷺ: «مَدُّوا الصلاة إلى السَّحَر، ثم جلسوا يستغفرون الله ﷻ».

ولله درُّ الشيخ أبي يزيدَ حيث يقول: «مَن تحقَّقَ بالعبوديةِ نظر أفعالَه بعينِ الرِّياءِ، وأحوالَه بعين الدَّعوى، وأقوالَه بعين الافتراء».

وكلَّما عَظُم المطلوبُ في قلبِك صغُرَتْ عندك وتضاءلت القيمةُ التي تَبذلها في تحصيله، وكلَّما شهِدْتَ حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية، وعرَفْتَ الله، وعرَفْتَ النفس، تبيَّن لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق، ولو جئت بعمل الثَّقلَينِ خشيتَ عاقبته، وإنما يَقبله بكرمه وجوده وتفضُّله، ويُثيبُك عليه أيضًا بكرمه وجوده وتفضُّله.

[واعلم] أنَّ تَعْييرَك لأخيك بذنبه أعظمُ إثْمًا من ذنبه وأشدُّ من معصيته؛ لِما فيه من صَوْلَة الطاعة، وتزكية النفس، وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وأنَّ أخاك هو الذي باءَ به، ولعل كَسْرَته بذنبه، وما أحدثَ له من الذِّلَّة والخضوع، والإزراء على نفسه، والتخلُّص من مرض الدعوى، والكِبْر والعُجْب، ووقوفه بين يدي الله ناكسَ الرأس، خاشعَ الطرف، مُنكسِر القلب أنفعُ له، وخيرٌ له من صَوْلَة طاعتك، وتكثُّرِك بها، والاعتداد بها، والمِنَّة على الله تعالى وخَلْقِه بها،

فما أقربَ هذا العاصي من رحمة الله! وما أقرب هذا المُدِلَّ من مَقْتِ الله! فذنبٌ تَذِلُّ به لديه، أحبُّ إليه من طاعة تُدِلُّ بها عليه، وإنك أنْ تبيتَ نائمًا وتصبحَ نادمًا، خيرٌ من أن تبيت قائمًا وتصبح مُعجَبًا، فإن المعجَب لا يصعد له عمل، وإنك أن تَضحك وأنت معترِف، خيرٌ من أنْ تبكي وأنت مُدِلٌّ، وأنينُ المذنبين أحبُّ إليه من زَجَل المُسَبِّحين المُدِلِّينَ، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواءً استخرج به داء قاتلًا هو فيك ولا تشعر.

منزلة التوبة

فإذا صحَّ له هذا المقام، ونزَلَ في هذه المنزلةِ، أشرَف منها على مقام التوبة، لأنه بالمحاسبة قد تميَّز عنده ما له مما عليه، فليُجمِعْ على التشمير إليه، والنزول فيه إلى المهات.

ومنزلُ التوبةِ أوَّلُ المنازل، وأوسطها، وآخرُها، فلا يُفارقه العبدُ السالكُ، ولا يزال فيه إلى المهات، وإنِ ارتَحَل إلى منزلٍ آخَرَ ارتحل به، واستَصحَبه معه، ونزل به.

فالتوبة هي بداية العبد ونهايتُه، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أنَّ حاجتَه إليها في البداية كذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وهذه الآية في سورة مدنيَّة، خاطَب الله بها أهلَ الإيمان وخيارَ خَلْقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علَّق الفلاحَ بالتوبة تعليقَ المسبَّب بسببِه، وأتى بأداة (لعلَّ) المُشعِرة بالترجِّي؛ إيذانًا بأنكم إذا تُبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاحَ إلا التائبون، جعلنا الله منهم.

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، فقَسَم العباد إلى تائب وظالم، وما ثَمَّ قِسْمٌ ثالث البتَّةَ، وأوقَع اسمَ الظالم على مَن لم يَتُب، ولا أظلَمَ منه؛ لجهله بِرَبِّه وبحقه، وبعيب نَفْسه وآفاتَ أعماله. وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «يا أيُّها النَّاسُ، تُوبُوا إلى اللهِ، فواللهِ إنِّي لأَتُوبُ

إِلَيهِ في اليَومِ أكثَرَ مِن سَبعينَ مَرَّةً»[1].

ولَمَّا كانت التوبةُ هي رُجوعُ العبد إلى الله، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالِّينَ، وذلك لا يَحصُل إلا بهداية الله تعالى له إلى الصراط المستقيم، ولا تَحصُل هدايته إلا بإعانته وتوحيده، انتظمتها سورةُ الفاتحة أحسنَ انتظام، وتضمَّنتها أبلغَ تضمُّن، فمَن أعطى الفاتحةَ حقَّها -عِلمًا وشهودًا وحالًا ومعرفةً- عَلِم أنه لا تَصِحُّ له قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النَّصُوح، فإن الهداية التامَّة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها؛ فإن الأول جَهْل يُنافي معرفةَ الهدى، والثاني غَيٌّ ينافي قصدَه وإرادتَه؛ فلذلك لا تَصِحُّ التوبةُ إلا بعد معرفة الذنب، والاعتراف به، وطَلبِ التخلُّص من سوء عواقبه، وأنَّك إنما ارتكبت الذنبَ بعد انخلاعك من ثوب عصمته لك، فمتى عَرَف هذا الانخلاع عَظُم خطرُه عنده، واشتدَّت عليه مُفارقتُه، وعَلِمَ أنَّ الهُلْكَ كلَّ الهُلْكِ بُعْدُه، وهو حقيقة الخِذلان، فما خلَّى الله بينك وبين الذنب إلا بعد أن خَذَلَك، وخلَّى بينك وبين نفسك، ولو عصمك ووفَّقك لَما وَجَد الذنبُ إليك سبيلًا.

فقد أجمع العارفون بالله تعالى على أن الخِذلان: أنْ يُخلِّي الله بينك وبين نفسك، والتوفيق: أنْ لا يَكِلَكَ اللهُ إلى نفسك، وله سبحانه في هذه التخلية -بينك وبين الذنب وخِذلانك حين واقعْتَه- حِكَمٌ وأسرارٌ.

والمؤمن لا تتمُّ له لذَّتُه بمعصيته أبدًا، ولا يَكمُل بها فرحُه، بل لا يُباشِرها

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٧) ومسلم (٢٧٠٢).

إلا والحزن مخالطٌ لقلبه، ولكنَّ سُكْرَ الشهوةِ يَحجُبه عن الشعور به، ومتى خَلَا قلبُه من هذا الحزن، واشتدَّت غِبطتُه وسرورُه فليتَّهِمْ إيمانه، ولْيَبْكِ على موت قلبه، فإنه لو كان حيًّا لأحزنه ارتكابُه للذنب، وغاظَه وصَعُب عليه، ولأَحَسَّ القلبُ بذلك، فحيث لم يُحِسَّ به فما لجُرْحٍ بمَيِّتٍ إيلامٌ.

وهذه النُّكتة في الذنْب قلَّ مَن يهتدي إليها، أو ينتبه لها، وهي موضع مَخُوفٌ جدًّا، مُترامٍ إلى الهلاك إن لم يُتدارَك بثلاثة أشياء: خوف من الموافاة عليه قبل التوبة، وندم على ما فاته من الله تعالى بمخالفة أمره، وتشمير للجِدِّ في استدراكه.

فحقيقةُ التوبة: الندمُ على ما سَلَف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على أن لا يُعاودَه في المستقبل.

والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقعُ فيه التوبة، فإنه في ذلك الوقت يندم، ويُقلِع، ويَعزِم.

فحينئذٍ يرجع إلى العبودية التي خُلِق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة، ولما كان مُتوقِّفًا على تلك الثلاثة جُعِلت شرائطَ له.

فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات، منها: أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبل الخطيئة.

ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحبًا له، لا يأمن طرفةَ عَيْن، فخوفه مستمرٌّ إلى أن يسمع قولَ الرسل لقَبْض رُوحه: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ

ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠]، فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه، وتقطُّعه ندمًا وخوفًا، وهذا على قدر عِظَم الجناية وصِغَرها، وهذا تأويل ابن عُيَيْنة لقوله تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة: ١١٠]، قال: «تَقطُّعُها بالتوبة».

ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يُوجِب انصداعَ القلب وانخلاعَه، وهذا هو تَقطُّعُه، وهذا حقيقة التوبة؛ لأنه يتقطع قلبُه حسرةً على ما فَرَط منه، وخوفًا من سوء عاقبته، فمن لم يَتقطَّع قلبُه في الدنيا على ما فَرَّط حسرةً وخوفًا؛ تَقطَّع في الآخرة إذا حَقَّتِ الحقائقُ، وعايَن ثوابَ المطيعين، وعقابَ العاصين، فلا بد من تقطُّع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ومن مُوجِبات التوبة الصحيحة أيضًا: كَسْرةٌ خاصَّة تحصل للقلب لا يُشبِهها شيء، ولا تكون لغير المُذْنِب، لا تحصل بجوع، ولا رياضة، ولا حبٍّ مُجرَّد، وإنما هي أمر وراء هذا كلِّه، تكسر القلبَ بين يدي الرب كسرةً تامَّة، قد أحاطت به من جميع جِهاته، وألقته بين يدي ربه طريحًا ذليلًا خاشعًا، كحال عبدٍ جَانٍ آبِقٍ مِن سيده، فأُخِذ فأُحضر بين يديه، ولم يجد مَن ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بُدًّا ولا عنه غِنًى، ولا منه مهربًا، وعَلِم أن حياته وسعادته، وفلاحه ونجاتَه في رضاه عنه، وقد علِم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته، هذا مع حُبِّه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه، وقوة سيده، وذُلِّه وعزِّ سيده، فيجتمع من هذه الأحوال كَسْرةٌ وذِلَّةٌ وخضوع، ما أنفعَها للعبد وما أجزلَ عائدَها عليه! وما أعظم جَبْرَه

بها، وما أقربَه بها من سيِّده! فليس شيءٌ أحبَّ إلى سيده من هذه الكَسْرة، والخضوع والتذلُّل، والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له، فلله ما أحلى قولَه في هذه الحال: «أسألُكَ بعزِّكَ وذُلِّي لكَ إلَّا رَحِمْتَني، أسألُكَ بقُوَّتِكَ وضَعْفي، وبِغِناكَ عَنِّي وفَقْري إليكَ، هذهِ ناصِيَتي الكاذِبةُ الخاطِئةُ بيْنَ يَدَيْكَ، عَبيدُكَ سِوايَ كَثيرٌ، وليس لي سَيِّدٌ سِواكَ، لا مَلْجأ ولا مَنْجى منكَ إلَّا إليكَ، أسألُكَ مَسألةَ المِسكينِ، وأبتهِلُ إليكَ ابتِهالَ الخَاضِعِ الذَّليلِ، وأدعُوكَ دُعاءَ الخائِفِ الضَّريرِ، سؤالَ مَن خَضَعَتْ لكَ رَقَبتُه، ورَغِمَ لكَ أنْفُه، وفاضَتْ لكَ عَيْناهُ، وذَلَّ لكَ قَلْبُه».

يا مَنْ ألُوذُ بِهِ فيما أُؤَمِّلُهُ
ومَنْ أعُوذُ بهِ مِمَّا أُحاذِرُهُ

لا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أنتَ كاسِرُهُ
ولا يَهِيضُونَ عَظْمًا أنتَ جابِرُهُ

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة، فمَن لم يجد ذلك في قلبه فليتَّهِم توبتَه، وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعبَ التوبةَ الصحيحةَ بالحقيقة، وما أسهلَها باللسان والدعوى! وما عالَجَ الصادقُ شيئًا أشقَّ عليه من التوبة الصادقة الخالصة، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وأكثر الناس المتبرِّئين عن الكبائر الحِسِّيَّةِ والقاذورات، في كبائرَ مِثْلِها أو أعظمَ منها أو دونها، ولا يَخطُر بقلوبهم أنها ذنوب ليتوبوا منها، فعندهم

من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم، وصولة طاعاتهم عليهم، ومِنَّتهم على الخَلْق بلسان الحال، واقتضاء بَواطِنهم لتعظيم الخَلْق لهم على طاعاتهم، اقتضاء لا يخفى على أحد غيرهم، وتوابع ذلك ما هو أبغضُ إلى الله تعالى، وأبْعدُ لهم عن بابه من كبائرِ أولئك، فإنْ تَدارَكَ اللهُ أحدَهم بقاذورة أو كبيرة يُوقِعه فيها ليكسِر بها نفْسَه، ويُعَرِّفَه بها قدْره، ويُذِلَّه بها، ويُخرِج بها صولةَ الطاعة من قلبه، فهي رحمة في حقه، كما أنه إذا تَدارَكَ أصحابَ الكبائر بتوبة نصوح، وإقبال بقلوبهم إليه؛ فهو رحمة في حقِّهم، وإلا فكلاهما على خطر.

تأملات صاحب البصيرة إذا أذنب :

اعلم أن صاحب البصيرة إذا صدرتْ منه الخطيئةُ فله نظرٌ إلى خمسة أمور:

أحدها: أن ينظر إلى الوعد والوعيد، فيُحدِث له ذلك خوفًا وخَشيةً يحمله على التوبة.

[الثاني]: أن ينظر إلى أمر الله تعالى له ونَهْيِه، فيُحدِث له ذلك الاعترافَ بكونها خطيئةً، والإقرارَ على نفسه بالذنب.

[الثالث]: أن ينظر إلى تمكين الله تعالى له منها، وتَخلِيتِه بينه وبينها، وتقديرِها عليه، وأنه لو شاء لعَصَمَه منها، وحالَ بينها وبينه، فيُحدِث له ذلك أنواعًا من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وحكمته، ورحمته، ومغفرته وعفوه، وحِلْمِه وكرمه، وتُوجِب له هذه المعرفةُ عبوديةً بهذه الأسماء، ولا تحصل بدون لوازمها البتَّةَ، ويعلم ارتباطَ الخلق والأمر والجزاءِ بالوعدِ والوعيدِ،

بأسمائه وصفاته وأن ذلك موجب الأسماء والصفات، وأثرها في الوجود، وأنَّ كل اسم وصفةٍ مُقْتَضٍ لأثره وموجبه، متعلِّقٌ به، لا بدَّ منه.

وهذا المشهد يُطلِعه على رياض مُؤنِقة من المعارف والإيمان، وأسرارِ القَدَر والحِكمة يضيقُ عن التعبير عنها نِطاقُ الكَلِم.

فمن بعضها: أنه سبحانه العزيز الذي يقضي ما يشاء، وأنَّه لكمال عِزِّه حَكَمَ على العبد وقضى عليه بأن قلَّب قلبه وصرَّفَ إرادتَه على ما يشاء، وحال بين العبد وقلبه، وجعله مريدًا شائيًا لِما شاء منه العزيز الحكيم، وهذا من كمال العزة؛ إذ لا يقدر على ذلك إلا الله تعالى، وغاية المخلوق أن يتصرَّف في بدنك وظاهرك، وأما جَعْلُك مريدًا شائيًا لِما يشاؤه منك ويريده فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة.

فإذا عرَف العبدُ عزَّ سيده، ولاحظه بقلبه، وتمكَّن شهودُه منه؛ كان الاشتغال به عن ذُلِّ المعصية أولى به وأنفعَ له؛ لأنه يصير مع الله تعالى لا مع نفسه.

ومن معرفة عزته في قضائه: أن يعرف أنه مُدبَّر مقهور، ناصيته بيد غيره، لا عصمة له إلا بعصمته، ولا توفيق له إلا بمعونته، فهو ذليلٌ حقيرٌ، في قبضة عزيز حميد.

ومن شهود عزته أيضًا في قضائه: أن يشهد أن الكمال والحمد، والغناءَ التَّامَّ، والعزة كلَّها لله، وأن العبد نفْسَه أولى بالنقص والذم، والعيبِ والظلم

والحاجة، وكلما ازداد شهودُه لذُلِّه ونقصه وعيبه وفقره، ازداد شهودُه لعزة الله تعالى وكماله، وحَمْدِه وغناه، وكذلك بالعكس، فنقص الذنب وذِلَّته تُطْلِعُه على مشهد العزة.

ومنها: أن يعرف بِرَّه سبحانه في سَتْره عليه حال ارتكاب المعصية مع كمال رؤيته له، ولو شاء لفَضَحه بين خَلْقه فحَذِروه، وهذا من كمال برِّه، ومن أسمائه: (البَرُّ)، وهذا البِرُّ من سيِّده به مع كمال غِنَاه عنه، وكمال فقر العبد إليه، فيشتغل بمطالعة هذه المِنَّة، ومشاهدة هذا البِرِّ والإحسان والكرم، فيذهل عن ذُلِّ الخطيئة، فيبقى مع الله، وذلك أنفع له من الاشتغال بجنايته، وشهود ذُلِّ معصيته؛ فإن الاشتغال بالله والغفلةَ عما سواه هو المطلب الأعلى، والمقصدُ الأسنى.

ومنها: شهوده حِلْمَ الله ﷻ في إمهال راكب الخطيئة، ولو شاء لعاجله بالعقوبة؛ ولكنه الحليم الذي لا يَعجل، فيُحْدِث له ذلك معرفتَه سبحانه باسمه (الحليم)، ومشاهدةَ صفة (الحِلْم)، والتعبُّدَ بهذا الاسم.

ومنها: معرفة العبد كرمَ ربه في قَبول العذر منه إذا اعتذر إليه، فيقبل عذره بكرمه وَجوده، فيُوجِب له ذلك اشتغالًا بذكره وشكره، ومحبَّةً أخرى لم تكن حاصلةً له قبل ذلك، فإنَّ محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخِذْك بها أضعافُ محبتك على شكر الإحسان وحدَه، والواقع شاهد بذلك، فعبودية التوبة بعدَ الذنب لون آخر.

ومنها: أن يشهد فضله في مغفرته، فإن المغفرة فضلٌ من الله تعالى، وإلا

فلو واخَذَنَا بالذنب لَوَاخَذ بمحض حقِّه، وكان عادلًا محمودًا، وإنما غفره بفضله لا باستحقاقك، فيُوجِب لك ذلك أيضًا شكرًا له ومحبة، وإنابةً إليه، وفرحًا وابتهاجًا به، ومعرفةً له باسمه (الغفَّار)، ومشاهدةً لهذه الصفة، وتعبُّدًا بمقتضاها، وذلك أكمل في العبودية والمعرفة والمحبة.

ومنها: أن يُكَمِّلَ لعبده مراتبَ الذُّلِّ والخضوع والانكسار بين يديه، والافتقار إليه، فإن النفس فيها مضاهاةٌ للربوبية، ولو قَدرَتْ لقالت كقول فرعونَ، ولكنه قَدَرَ فأظهر، وغيرُه عجز فأضمر، وإنما يُخَلِّصُها من هذه المضاهاة ذلُّ العبودية.

ومنها: أن أسماءه الحسنى تقتضي آثارُها اقتضاءَ الأسباب التامة لمسبباتها، فاسم (السميع، البصير) يقتضي مسموعًا ومُبصَرًا، واسم (الرزاق) يقتضي مرزوقًا، واسم (الرحيم) يقتضي مرحومًا، وكذلك اسم (الغفور)، و(العفو)، و(التواب)، و(الحليم) يقتضي مَن يغفر له، ويتوب عليه، ويعفو عنه، ويَحلُمُ عنه، ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات؛ إذ هي أسماءٌ حسنى، وصفاتُ كمال، ونعوت جلال، وأفعالُ حكمةٍ وإحسانٍ وجُودٍ، فلابد من ظهور آثارها في العالم، وقد أشار إلى هذا أعلمُ الخلْق بالله -صلوات الله وسلامه عليه- حيث يقول: **«لَوْ لَمْ تُذْنِبوا، لَذَهَبَ الله بكُمْ، ولَجَاءَ بقَومٍ يُذْنِبونَ - ثُمَّ يَستَغفِرونَ - فيَغفِرُ لَهُمْ»**(١).

ومنها: السِّرُّ الأعظم، الذي لا تقتحمُه العِبارة، ولا تجسُرُ عليه الإشارة،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩).

ولا يُنادي عليه منادي الإيمان على رُؤوس الأشهاد، بل شَهِدَتْه قلوبُ خواصِّ العباد، فازدادت به معرفةً لربها ومحبةً له، وطمأنينة به، وشوقًا إليه، ولَهَجًا بذِكْرِه، وشهودًا لبِرِّه، ولطفه وكرمه وإحسانه، ومطالعةً لسر العبودية، وإشرافًا على حقيقة الإلهية، وهو ما ثبت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لله أفرَحُ بتَوبةِ عَبْدِه حينَ يَتوبُ إلَيهِ مِنْ أحَدِكُم كان على راحِلةٍ بأرْضٍ فَلَاةٍ، فانفَلَتَتْ مِنهُ، وعليها طَعامُه وشَرابُه، فَأيِسَ منها، فأتَى شَجَرةً فاضطَجَعَ في ظِلِّها، قَدْ أيِسَ مِنْ راحِلَتِه، فبيْنَما هو كذلكَ إذا هو بها قائِمةٌ عِندَه، فأخَذَ بخِطَامِها، ثُمَّ قال مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ: اللهمَّ أنتَ عَبدِي وأنا رَبُّكَ، أخْطأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ**»[1].

والقصد أن هذا الفرح له شأنٌ لا ينبغي للعبد إهمالهُ والإعراضُ عنه، ولا يَطَّلع عليه إلا مَن له معرفة خاصَّةٌ بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق بعِزِّ جلالِه.

فالمؤمنون من نوع الإنسان خيرُ البرية على الإطلاق، وخِيرَةُ الله من العالَمين، فإنه خلَقه ليُتِمَّ نعمته عليه، وليتواتَرَ إحسانه إليه، وليَخُصَّه من كرامته وفضله بما لم تَنله أمنيته، ولم يخطر على باله ولم يشعر به، ليسألَه من المواهب والعطايا الباطنةِ والظاهرة، العاجلةِ والآجلة، التي لا تُنال إلا بمحبَّته، ولا تُنال محبَّته إلا بطاعته، وإيثارِه على ما سواه، فاتَّخذه محبوبًا له، وأعدَّ له أفضلَ ما يُعِدُّه مُحِبٌّ غنيٌّ قادرٌ جوَادٌ لمحبوبه إذا قدم عليه، وعَهِدَ إليه عهدًا تقدَّمَ إليه فيه بأوامره ونواهيه، وأعلمه في عهده ما يُقرِّبه إليه، ويزيده

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٧)، وأخرج البخاري أوله (٦٠٣٩).

محبةً له وكرامة عليه، وما يُبعِده منه ويسخطه عليه، ويُسْقِطه من عينه.

وللمحبوب عدوٌّ هو أبغض خلقِه إليه، قد جاهرَه بالعداوة، وأمر عباده أن يكون دينُهم وطاعتهم وعبادتُهم له، دون وَلِيِّهم ومعبودهم الحق، واستقطع عبادَه، واتخذ منهم حزبًا ظاهَرُوه ووالَوْهُ على ربهم، وكانوا أعداءً له مع هذا العدو.

فإذا تعرَّض عبدُه ومحبوبُه لغضبه، وارتكب مَساخِطَه وما يَكرَهه، وأبَقَ منه، ووالَى عدوَّه وظاهَرَه عليه، وتحيَّزَ إليه، وقطع طريق نِعَمِه وإحسانه إليه التي هي أحبُّ شيء إليه، وفتح طريقَ العقوبة والانتقام والغضب: فقد استدعى من الجوَادِ الكريمِ خلافَ ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبِرِّ، وتعرَّض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه، وأن يصير غضبُه وسخطُه في موضع رضاه، وانتقامه وعقوبتُه في موضع كرمه وبِرِّه وإعطائه، فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحبُّ إليه منه، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان. فبينما هو حبيبه المقرَّب المخصوصُ بالكرامة، إذِ انقلب آبِقًا شاردًا، رادًّا لكرامته، مائلًا عنه إلى عدوه، مع شدة حاجته إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين. فبينما ذلك الحبيب مع العدو في طاعته وخدمته ناسيًا لسيده، مُنهمِكًا في موافقة عدوِّه، قد استدعى من سيِّده خلافَ ما هو أهله إذ عرضت له فكرة فتذكَّر بِرَّ سيده وعطفَه، وجودَه وكرمَه، وعَلِمَ أنه لا بُدَّ له منه، وأن مصيرَه إليه، وعَرْضَه عليه، وأنه إن لم يَقدَمْ عليه بنفسه قُدِمَ به عليه على أسوأ الأحوال، ففرَّ إلى سيده من بلد عدوِّه، وجَدَّ في الهرب إليه

حتى وصل إلى بابه، فوضع خدَّه على عتبة بابه، وتوسَّد ثَرَى أعتابه، مُتذلِّلًا متضرعًا، خاشعًا باكيًا آسفًا، يتملَّق سيده ويسترحمه، ويستعطفه ويعتذر إليه، قد ألقى بيده إليه، واستسلم له وأعطاه قِيَادَه، وألقى إليه زمامه، فعلم سيدُه ما في قلبه، فعاد مكان الغضب عليه رضًا عنه، ومكانُ الشدة عليه رحمةً به، وأبدله بالعقوبة عفوًا، وبالمنع عطاء، وبالمؤاخذة حلمًا، فاستدعى بالتوبة والرجوع من سيِّده ما هو أهله، وما هو موجب أسمائه الحسنى، وصفاته العليا، فكيف يكون فَرَحُ سيِّده به وقد عاد إليه حبيبه ووَلِيُّه طوعًا واختيارًا، وراجَع ما يحبه سيِّدُه منه ويرضاه، وفتح طريق البِرِّ والإحسان والجود، التي هي أحبُّ إلى سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة؟

وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين أنه حصل له شُرُودٌ وإِبَاقٌ من سَيِّده، فرأى في بعض السِّكَك بابًا قد فُتِح، وخرج منه صبي يستغيث ويبكي، وأمه خلفه تطرده، حتى خرج، فأغلقت الباب في وجهه ودخلت، فذهب الصبي غيرَ بعيد، ثم وقف مُفكِّرًا، فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أُخرِج منه، ولا مَن يُؤويه غيرَ والدته، فرجع مكسور القلب حزينًا، فوجد الباب مُرتجًا، فتوسَّده ووضع خدَّه على عتبة الباب ونام، فخرجت أمُّه، فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رَمَتْ نفسها عليه، والتزمته تُقبِّله وتبكي، وتقول: يا ولدي، أين تذهب عني؟ ومَن يُؤويك سِواي؟ ألم أقل لك: لا تُخالفني، ولا تَحمِلني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبِلتُ عليه من الرحمة لك، والشفقة عليك، وإرادتي الخيرَ لك؟ ثم أخذَتْه ودخلت.

فتأمَّلْ قول الأم: لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جُبِلتُ عليه من الرحمة والشفقة.

وتأمَّلْ قوله ﷺ: «للهُ أرْحَمُ بعِبادِهِ مِنَ الوالِدَةِ بوَلَدِها»[1]، وأين تقع رحمةُ الوالدة من رحمة الله؟ فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعى منه صرْفَ تلك الرحمة عنه، فإذا تاب إليه فقد استدعى منه ما هو أهْلُه وأولى به.

فهذه نبذة يسيرة تُطْلِعُكَ على سِرِّ فرح الله بتوبة عبده أعظَمَ من فرح هذا الواجد لراحلته في الأرض المهلكة، بعد اليأس منها، ووراء هذا ما تجفو عنه العبارة، وتَدِقُّ عن إدراكه الأذهانُ.

هذا إذا نظرتَ إلى تعلُّق الفرح الإلهيِّ بالإحسانِ والجُود والبِرِّ، وأمَّا إن لاحظت تعلُّقَه بإلهيَّته وكونِه معبودًا فذاك مشهدٌ أجَلُّ من هذا وأعظم منه، وإنما يشهده خواصُّ المُحِبِّينَ.

فإنَّ الله سبحانه إنَّما خلَق الخلق لعبادته الجامعة لمحبَّته والخضوع له وطاعته، وهذا هو الحق الذي خُلِقَت به السمواتُ والأرض، وهو غاية الخلق والأمر، ونفيُه- كما يقول أعداؤه- هو الباطل، والعبث الذي نَزَّهَ نفسه عنه، وهو السُّدَى الذي نزَّه نفسه عنه أن يترك الإنسان عليه، فهو سبحانه يحب أن يُعْبَد ويُطاعَ، ولا يَعْبَأ بخلْقه شيئًا لولا محبَّتُهم وطاعتهم له.

بل فما الظنُّ بمحبوب لك تحبُّه حبًّا شديدًا، وأسَرَهُ عدوُّك، وحال بينك

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

وبينه، وأنت تعلم أنَّ العدوَّ سيَسُومُه سوءَ العذاب، ويعرِّضه لأنواع الهلاك، وأنت أوْلَى به منه، وهو غَرسُك وتربيتك، ثم إنَّه انفلت من عدوه، ووافاك على غير ميعاد، فلم يَفْجَأْك إلا وهو على بابك، يتملَّقك ويترضَّاك ويستعتبك، ويُمَرِّغ خدَّيْه على تراب أعتابك، فكيف يكون فرحُك به وقد اختَصصتَه لنفسك، ورضيتَه لقُرْبك، وآثرتَه على سِواه؟!

هذا ولستَ الذي أوجدتَه وخلقتَه، وأسبغت عليه نِعَمَك، والله ﷻ هو الذي أوجدَ عبده، وخلَقه وكوَّنَه، وأسبغ عليه نِعَمَه، وهو يحبُّ أن يُتِمَّها عليه، فيصير مُظهِرًا لنعمه، قابلًا لها، شاكرًا لها، مُحبًّا لوَليِّها، مُطيعًا له عابدًا له، مُعاديًا لعدوِّه، مُبْغِضًا له عاصيًا له، والله تعالى يحب من عبده معاداةَ عدوِّه، ومعصيتَه ومخالفتَه، كما يحبُّ أن يواليَه سبحانه ويطيعَه ويَعبُده، فتنضاف محبَّته لعبادته وطاعته والإنابة إليه إلى محبَّته لعداوة عدوِّه، ومعصيته ومخالفته، فتشتدُّ المحبَّة منه سبحانه، مع حصول محبوبه، وهذا حقيقة الفرح.

النظر [الرابع][1]: النظر إلى محلِّ الجناية ومصدرِها، وهو النَّفس الأمَّارة بالسوء، ويفيده نظرُه إليها أمورًا:

منها: أنْ يعرف أنَّها جاهلة ظالمة، وأنَّ الجهل والظلم يصدر عنهما كلُّ قولٍ وعمل قبيح، ومَن صِفَتُه الجهلُ والظلمُ لا مَطْمَعَ في استقامته واعتداله البتَّة، فيوجِب له ذلك بذلَ الجهد في العلم النافع الذي يُخْرِجها به عن

---

(١) لصاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة.

وصف الجهل، والعملِ الصالح الذي يُخْرِجها به عن وَصْف الظُّلم، ومع هذا فجهلُها أكثر من عِلْمها، وظُلمها أعظم من عَدْلها.

فحقيقٌ بِمَن هذا شأنُه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يَقِيَه شَرَّها، وأنْ يؤتيها تقواها ويُزَكِّيَها، فهو خيرُ مَن زَكَّاها، فإنه وليُّها ومَولاها، وأن لا يَكِلَه إليها طرفةَ عينٍ، فإنَّه إن وَكَلَه إليها هلك، فما هلك مَن هلك إلا حيث وُكِلَ إلى نفسه، وقال النبي ﷺ لحُصَيْنِ بن [عبيد] رضي الله عنه: «**قُلِ: اللهمَّ أَلهِمْني رُشْدي، وقِنِي شَرَّ نَفْسي**»(١)، فمَن عرَف حقيقة نفسه وما طُبِعَت عليه عَلِمَ أنها منبع كل شرٍّ، ومأوى كلِّ سوء، وأنَّ كل خير فيها ففضلٌ مِن الله مَنَّ به عليها، لم يكن منها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

ومنها: أنَّ مَن له بصيرةٌ بنفسه، وبصيرةٌ بحقوق الله تعالى، وهو صادقٌ في طَلَبِه، لم يُبْقِ له نظرُه في سيئاته حسنةً البتَّة، فلا يَلْقَى الله تعالى إلا بالإفلاس المَحْض، والفقرِ الصِّرْفِ؛ لأنَّه إذا فتَّش عن عيوب نفسه وعيوبِ عمله عَلِم أنَّها لا تصلح لله، وأنَّ تلك البضاعة لا تُشْتَرَى بها النجاةُ مِن عذابه، فضلًا عن الفوز بعظيم ثوابه، فإن خَلَصَ له عملٌ وحالٌ مع الله، وصَفَا له معه وقتٌ؛ شاهَد مِنَّـةَ الله عليه به، ومجرَّد فضلِه، وأنَّه ليس من نفسه، ولا هي أهلٌ لذلك، فهو دائمًا مُشاهِدٌ لِمِنَّةِ الله عليه، ولعيوب نفسه وعمله؛ لأنَّه متى تَطَلَّبها رآها، وهذا من أجَلِّ أنواع المعارف وأنفعِها للعبد، ولذلك كان سيِّد الاستغفار:

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٨٣)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٤٧٦).

«اللهمَّ أنتَ رَبِّي، لا إلهَ إلَّا أنتَ، خَلَقْتَني، وأنا عَبْدُكَ، وأنا على عَهْدِكَ ووَعْدِكَ ما استَطَعْتُ، أعُوذُ بكَ مِنْ شَرِّ ما صَنَعْتُ، أبُوءُ لكَ بنِعمَتِكَ عليَّ، وأبُوءُ بذَنْبي، فاغفِرْ لي، إنَّه لا يَغفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أنتَ»(١).

فتضمَّن هذا الاستغفارُ الاعترافَ من العبد برُبُوبِيَّته، وإلهيَّته وتوحيده، والاعترافَ بأنَّه خالقُه، العالِـم به؛ إذ أنشأه نشأةً تستلزِم عَجْزَه عن أداء حقِّه، وتقصيره فيه، والاعترافَ بأنَّه عبدُه الذي نَاصِيَتُه بيده وفي قبضته، لا مَهْرَبَ له منه، ولا وَلِيَّ له سواه، ثم التزام الدُّخول تحت عهده -وهو أمْرُه ونَهْيُه- الذي عَهِدَه إليه على لسان رسوله، وأنَّ ذلك بحسَب استطاعتي، لا بحسَب أداء حَقِّك؛ فإنَّه غير مقدور للبشر، وإنما هو جُهْد المُقِلِّ، وقَدْر الطاقة، ومع ذلك فأنا مُصدِّق بوعدك الذي وعدتَه لأهل طاعتك بالثواب، ولأهل معصيتك بالعقاب، فأنا مُقِيمٌ على عهدك، ومُصَدِّقٌ بوعدك، ثم الاستعاذة والاعتصام بك مِن شرِّ ما فَرَّطْتُ فيه من أمْرِك ونَهْيِك، فإنَّك إن لم تُعِذْني مِن شرِّه، وإلا أحاطت بي الهَلَكَةُ، فإنَّ إضاعة حقِّك سببُ الهلاك، وأنا أُقِرُّ لك وألتزم بنِعمتك عليَّ، وأُقِرُّ وألتزم بذَنبي؛ فمنك النِّعمة والإحسانُ والفضل، ومنِّي الذَّنبُ والإساءة، فأسألك أن تغفر لي بِمَحْوِ ذنبي، وأنْ تَقِيَني مِن شَرِّه، إنَّه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

فلهذا كان هذا الدُّعاء سيِّدَ الاستغفار؛ إذْ هو مُتضمِّن لَمحْض العبوديَّة، فأيُّ حسنة تبقى للبصير الصَّادق مع مُشاهَدتِه عيوبَ نفسِه وعملِه ومِنَّةَ الله عليه؟

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

النظر [الخامس]: نظرُه إلى الآمِر له بالمعصية، المُزيِّن له فِعلَها، الحاضِّ له عليها، وهو شيطانه المُوكَّل به.

فيُفيده النظرُ إليه وملاحظتُه اتخاذَه عدُوًّا، وكمالَ الاحتراز منه، والتحفُّظَ واليقظةَ، والانتباهَ لِمَا يريده منه عدوُّه وهو لا يشعر، فإنَّه يريد أن يظفر به في عَقَبةٍ من سبع عقبات؛ بعضُها أصعب من بعض، لا ينزل منه من العقبة الشاقَّة إلى ما دونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها:

العقبة الأولى: عقبة الكُفر بالله وبدِينه ولقائه، وصفاتِ كماله، وما أخبَرَتْ به رسلُه عنه، فإنَّه إن ظَفِرَ به في هذه العقبة بَرَدَتْ نارُ عداوته، واستراح معه، فإن اقتحم هذه العقبةَ ونجا منها ببصيرة الهداية، وسَلِمَ معه نورُ الإيمان؛ طلبَه على:

العقبة الثانية: وهي عقبة البِدْعة، إمَّا باعتقادِ خلافِ الحقِّ الذي أرسل اللهُ به رسولَه، وأنزل به كتابَه، وإمَّا بالتعبُّد بما لم يأْذَنْ به من الأوضاعِ والرُّسوم المُحْدَثة في الدِّين، التي لا يَقبَلُ الله منها شيئًا.

العقبة الثالثة: وهي عَقَبةُ الكبائر، فإنْ ظَفِر به فيها زَيَّنَها له، وحَسَّنها في عينه، وسَوَّف به، وفتح له باب الإرجاء.

فإنْ قَطَعَ هذه العقبةَ بعِصْمةٍ مِن الله، أو بتوبةٍ نَصُوحٍ تُنْجِيه، طلبَه على:

العقبة الرَّابعة: وهي عقبة الصَّغائر، فكَالَ له منها بالقَفزَان، قال: ما عليك إذا اجتنبتَ الكبائر ما غَشِيتَ مِنَ اللَّمَمِ، أوَما علِمتَ بأنَّها تُكَفَّر باجتناب

الكبائر وبالحسنات؟ ولا يزال يُهَوِّن عليه أمرَها حتى يُصِرَّ عليها، فيكون مرتكِبُ الكبيرة الخائفُ الوَجِلُ النادمُ أحسنَ حالًا منه؛ فإنَّ الإصرار على الذَّنب أقبح منه، ولا كبيرةَ مع التَّوبة والاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار، وقد قال ﷺ: **«إيَّاكُمْ ومُحَقَّراتِ الذُّنوبِ»**، ثُمَّ ضَرَبَ لذلكَ مَثَلًا بقَوْمٍ **«نَزَلُوا بفَلاةٍ مِنَ الأرضِ، فأعْوَزَهُمُ الحَطَبُ، فجَعَلَ يَجِيءُ هذا بِعُودٍ، وهذا بعُودٍ، حتَّى جَمَعُوا حَطَبًا كثيرًا، فأوْقَدُوهُ نارًا، وأنضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، فكذلكَ شَأْنُ مُحَقَّراتِ الذُّنُوبِ؛ تَجتَمِعُ على العَبدِ ويَستَهينُ بشأنِها حتَّى تُهْلِكَه»**[1].

العقبة الخامسة: وهي عقبة المُباحات التي لا حَرَجَ على فاعِلِها، فشَغَلَه بها عن الاستكثار من الطَّاعات، وعن الاجتهاد في التزوُّد لِمَعادِه، ثُمَّ طمِع فيه أنْ يستدرجه منها إلى تَرْكِ السنن، ثم مِن تَرْك السُّنَن إلى تَرْك الواجبات، وأقَلُّ ما يُنال منه تفويتُه الأرباح، والمكاسبَ العظيمة، والمنازلَ العالية، ولو عَرَفَ السِّعْر لَمَا فوَّت على نفسه شيئًا من القُرُبات، ولكنَّه جاهل بالسِّعر. فإنْ نَجَا من هذه العقبة ببصيرة تامَّة، ونورٍ هادٍ، ومعرفة بقدرِ الطاعات والاستكثار منها، وقِلَّةِ المقام على الميناء، وخطرِ التِّجارة، وكرم المُشتَرِي، وقدر ما يُعَوَّض به التُّجَّار، فبخِل بأوقاته، وضَنَّ بأنفاسه أن تذهب في غير رِبح طَلَبَه العدوُّ على:

العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال المَرجوحة المَفضولة من الطاعات، فأمَرَه بها، وحسَّنها في عينه، وزيَّنها له، وأراه ما فيها من الفضل والرِّبح؛

---

(١) أخرجه أحمد (٣٨١٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٨٩).

ليشغله بها عمَّا هو أفضل منها، وأعظمُ كسبًا وربحًا؛ لأنَّه لَّما عجز عن تخسيره أصلَ الثواب طَمِعَ في تخسيره كمالَه وفضلَه، ودرجاتِه العاليةَ، فشَغَلَه بالمفضول عن الفاضِل، وبالمرجوح عن الرَّاجِح، وبالمحبوبِ لله عن الأحبِّ إليه، وبالمَرْضِيِّ عن الأرْضَى له.

ولكن أين أصحابُ هذه العقبة؟ فهم الأفراد في العالَم، والأكثرون قد ظفِر بهم في العقبات الأُوَل.

فإنَّ في الأعمال والأقوال سيِّدًا ومَسُودًا، ورئيسًا ومرؤوسًا، وذِرْوَةً وما دونها، كما في الحديث الصحيح: «سَيِّدُ الِاستِغفارِ أنْ يَقولَ العَبدُ: اللهمَّ أنتَ رَبِّي، لاإلهَ إلَّا أنتَ»[1]، الحديثَ، وفي الحديث الآخر: «الجِهادُ ذِرْوةُ سَنامِ الأمْرِ»[2]، ولا يقطع هذه العقبةَ إلا أهلُ البصائر والصِّدق من أُولي العِلْم، السائرين على جادَّة التوفيق، قد أنزلوا الأعمالَ منازِلَها، وأعطَوْا كُلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

فإذا نجا منها لم يبقَ هناك عقبةٌ يطلبه العدوُّ عليها سوى واحدة لا بدَّ له منها، ولو نجا منها أحدٌ لَنَجَا منها رسلُ الله وأنبياؤه، وأكرم الخَلْق عليه.

[العقبة السابعة]: وهي عقبةُ تسليطِ جُنْدِه عليه بأنواع الأذى، باليد واللسان والقلب، على حسَب مرتبته في الخير، فكلما عَلَتْ مرتبتُه أجلَب عليه بخيله ورَجِله، وظاهَرَ عليه بِجُنْده، وسلَّط عليه حزبَه وأهلَه بأنواع التَّسليط، وهذه العقبة لا حِيلَةَ له في التخلُّص منها، فإنَّه كلَّما جدَّ في الاستقامة والدعوة

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) وقال: (حديث حسن صحيح)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

إلى الله تعالى، والقيام بأمْرِه، جَدَّ العدوُّ في إغراء السُّفهاء به، فهو في هذه العَقَبة قد لَبِس لَأْمَةَ الحرب، وأخذ في محاربة العدوِّ لله وبالله، فعُبودِيَّتُه فيها عبوديَّةُ خَوَاصِّ العارفين، وهي تُسمَّى عبوديَّةَ المُراغَمة، ولا ينتبه لها إلا أُولُو البصائر التَّامَّة، ولا شيء أحَبُّ إلى الله من مُراغَمةِ وَلِيِّه لعدوِّه، وإغاظَتِه له.

أحـكام التّوبـــة

ونذكر نُبَذًا تتعلَّق بأحكام التَّوبة تشتدُّ الحاجة إليها، ولا يَليقُ بالعبد جَهْلُها:

منها: المبادرة إلى التَّوبة من الذَّنب فَرْضٌ على الفَوْرِ، لا يجوز تأخيرُها، فمتى أخَّرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذَّنب بَقِيَ عليه توبةٌ أخرى، وهي توبته من تأخير التَّوبة، وقَلَّ أن تَخطُر هذه ببالِ التائبِ، بل عنده أنَّه إذا تاب من الذَّنب لم يبقَ عليه شيء آخر، وقد بَقِيَ عليه التَّوبةُ من تأخير التَّوبة، ولا يُنجي من هذا إلا توبةٌ عامة مِمَّا يعلم من ذنوبه ومِمَّا لا يَعْلَم، فإنَّ ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثرُ مما يعلمه، ولا ينفعه في عدم المؤاخَذةِ بها جهلُه إذا كان متمكِّنًا من العلم، فإنَّه عاصٍ بترْك العلم والعمل، فالمعصية في حقِّه أشدُّ.

[ومنها]: أنَّ العبد إذا تابَ من الذَّنب فهل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذَّنب من الدَّرجة التي حطَّه عنها الذَّنب أو لا يرجع إليها؟ اختُلِف في ذلك.

وسمِعتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رحمه الله يحكي هذا الخلافَ، ثم قال: «والصَّحيح أنَّ مِن التائِبِينَ مَن لا يعود إلى درجته، ومنهم مَن يعود إليها،

ومنهم مَن يعود إلى أعلى منها، فيصير خيرًا مما كان قبل الذَّنب، فكان داود بعد التَّوبة خيرًا منه قبل الخطيئة».

قال: «وهذا بحسَب حال التَّائِب بعد تَوبتِه وعزْمِه وحَذَره وجِدِّه وتشميره، فإنْ كان ذلك أعظمَ مِمَّا كان له قبل الذَّنب عاد خيرًا مِمَّا كان وأعلى درجةً، وإن كان مثلَه عاد إلى مثلِ حالِه، وإن كان دونَه لم يَعُد إلى درجته، وكان مُنحطًّا عنها».

وقد ضُرِبَ لذلك مثَلٌ برَجُلٍ خرج مِن بيته يريد الصلاة في الصفِّ الأول، لا يَلْوِي على شيء في طريقه، فعرَض له رجلٌ مِن خَلْفِه جَبَذَ ثوبَه وأوْقَفه قليلًا، يريد تَعْويقَه عن الصلاة، فله معه حالان:

أحدهما: أنْ يشتغل به حتى تفوتَه الصلاةُ، فهذه حالُ غيرِ التَّائب.

الثاني: أن يُجاذِبَه على نفسه، ويتفلَّت منه؛ لئلَّا تفوتَه الصلاة، ثم له بعد هذا التفلُّت ثلاثةُ أحوال:

أحدها: أن يكون سَيْرُه جمزًا ووَثْبًا؛ ليستدرك ما فاته بتلك الوَقْفة، فرُبَّما استدركه وزاد عليه.

الثاني: أن يعود إلى مثل سَيْرِه.

الثالث: أنْ تُورِثَه تلك الوقفةُ فُتُورًا وتهاوُنًا، فيفوته فضيلةُ الصف الأول، أو فضيلةُ الجماعة وأوَّل الوقت، فهكذا التائب سواء.

ويتبيَّن هذا بمسألةٍ شريفةٍ، وهي أنَّه: هل المُطيع الذي لم يَعْصِ خيرٌ من العاصي الذي تاب إلى الله تَوْبةً نَصُوحًا، أو هذا التَّائب أفضل منه؟ اختُلِفَ في ذلك؛

فطائفة رجَّحَت مَن لم يَعْصِ على مَن عصى وتاب تَوْبةً نَصُوحًا، واحتَجُّوا بوجوهٍ [منها]:

١- أنَّ في زمنِ اشتغال العاصي بمعصيته يسبقه المُطيعُ عِدَّةَ مراحلَ إلى فوق، فتكون درجتُه أعلى من درجته، وغايتُه أنَّه إذا تاب استقبل سَيْرَه ليلحقه، وذاك في سَيْرٍ آخَرَ، فأنَّى له بلَحاقِه؟

٢- أنَّ المُطيعَ قد أحاطَ على بستان طاعته حائطًا حَصِينًا لا يجد الأعداءُ إليه سبيلًا، فثَمرَتُه وزهرتُه وخُضرتُه وبهجتُه في زيادةٍ ونُمُوٍّ أبدًا، والعاصي قد فتح فيه ثَغْرًا، وثَلَمَ فيه ثُلْمةً، ومَكَّنَ منه السُّرَّاقَ والأعداءَ، فدخلوا فعَاثُوا فيه يمينًا وشمالًا، وأفسَدوا أغصانَه، وخرَّبوا حِيطانَه، وقطَعوا ثمراتِه، وأحرَقوا في نواحيه، وقطَعُوا ماءه، أو نَقَصُوا سَقْيَه، فمتى يرجع هذا إلى حالِه الأوَّل؟

وطائفةٌ رجَّحَتِ التَّائبَ -وإنْ لم تُنكِر كَوْنَ الأوَّلِ أكثرَ حسناتٍ منه- واحتجَّت بوجوهٍ [منها]:

١- أنَّ عبوديَّة التَّوبة مِن أحَبِّ العبوديَّات إلى الله، وأكْرَمِها عليه، فإنَّه سبحانه يحب التَّوابِينَ، ولو لم تكن التَّوبةُ أحبَّ الأشياء إليه لَمَا ابتُلِيَ بالذَّنب أكرمُ الخَلْق عليه.

٢- أنَّ عبوديَّة التَّوبة فيها من الذُّل، والانكسار، والخضوع، والتملُّقِ لله، والتذلُّل له، ما هو أحبُّ إليه من كثير من الأعمال الظَّاهرة، وإنْ زادت في القَدْر والكَمِّيَّة على عبوديَّة التَّوبة، فإنَّ الذُّلَّ والانكسار رُوحُ العبوديَّة، ومُخُّها ولُبُّها، يوضِّحه:

٣- أنَّ حصولَ مراتِبِ الذُّلِّ والانكسار للتَّائب أكملُ منها لغيره؛ فإنَّه قد شارَكَ مَن لم يُذنِب في ذُلِّ الفقر، والعبوديَّة، والمحبَّة، وامتازَ عنه بانكسارِ قلبه بالمعصية كما في الأثر الإسرائيلي: يا رَبِّ، أين أجِدُكَ؟ قال: عِنْدَ المُنكسِرةِ قلوبُهم مِن أجْلي. ولأجْلِ هذا أقربُ ما يكون العبدُ من رَبِّه وهو ساجد؛ لأنَّه مقامُ ذُلٍّ وانكسارٍ بين يدي رَبِّه ﷻ.

وتأمَّلْ قولَ النبيِّ ﷺ فيما يَروي عن ربِّه تبارك وتعالى: «أنَّه يَقولُ يومَ القيامةِ: ابنَ آدَمَ، استَطعَمْتُكَ فلَمْ تُطعِمْني، قال: يا رَبِّ، كيف أُطعِمُكَ وأنتَ رَبُّ العالَمِينَ؟ قال: استَطعَمكَ عَبْدي فلَمْ تُطعِمْه، أمَا لو أطعَمْتَه لَوَجَدْتَ ذلكَ عِنْدي. ابنَ آدَمَ، استَسقَيْتُكَ فلَمْ تَسْقِني، قال: يا رَبِّ، كيفَ أسقيكَ وأنتَ رَبُّ العالَمِينَ؟ قال: استَسقاكَ عَبْدي فُلانٌ فلَمْ تَسْقِهِ، أمَا لَوْ سَقَيْتَه لَوَجَدْتَ ذلكَ عِنْدي. ابنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فلَمْ تَعُدْني، قال: يا رَبِّ، كيف أعُودُكَ وأنتَ رَبُّ العالَمِينَ؟ قال: أمَا إنَّ عَبْدي فُلانًا مَرِضَ فلَمْ تَعُدْه، أمَا لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَني عِندَه»[1]، فقال في عيادة المريض: «لَوَجَدْتَني عِندَه»، وقال في الإطْعام والإسْقَاءِ: «لَوَجَدْتَ ذلكَ عِنْدي»، ففرَّق بينهما، فإنَّ المريضَ مكسورُ القلبِ ولو كان مَن كان، فلا بدَّ أن يَكسِره المرضُ، فإذا كان مؤمنًا

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٩) بنحوه.

قد انكسر قلبُه بالمرض كان الله عنده.

والقصد: أنَّ شمعةَ الجَبْرِ والفضلِ والعَطايا إنَّما تَنزِل في شَمْعِدانِ الانكسارِ، وللعاصي التَّائبِ مِن ذلك نصيبٌ وافرٌ، يوضحه :

٤- أنَّ الذَّنب قد يكون أنفعَ للعبد إذا اقترنت به التَّوبةُ مِن كثيرٍ مِن الطَّاعات، وهذا معنى قولِ بعضِ السَّلَف: «قد يعمل العبدُ الذَّنْبَ فيدخل به الجنَّةَ، وقد يعمل الطَّاعةَ فيدخل بها النَّار، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذَّنْبَ فلا يزال نُصْبَ عَينَيْهِ؛ إنْ قام وإنْ قَعَدَ وإنْ مشى، كلَّما ذَكَرَه أحدَثَ له تَوبةً، واستغفارًا، ونَدَمًا، فيكون ذلك سببَ نجاتِه، ويعمل الحسنة، فلا تزال نُصْبَ عينيه؛ إنْ قام وإن قعدَ وإن مشى، كلَّما ذَكَرَها أوْرثَتْه عُجْبًا وكِبْرًا ومِنَّة، فتكون سببَ هلاكِه، فيكون الذَّنبُ مُوجِبًا لتَرَتُّب طاعاتٍ وحسنات، ومعاملاتٍ قلبيَّة؛ مِن خوفٍ مِن الله، وحياءٍ منه، وإطراقٍ بين يديه مُنكِّسًا رأسَه خجلًا، باكيًا نادِمًا، مُستقبِلًا رَبَّه»، وكلُّ واحدٍ من هذه الآثارِ أنفعُ للعبدِ مِن طاعةٍ توجِب له صَوْلةً، وكِبْرًا، وازْدِراءً بالنَّاس، ورؤيتَهم بعينِ الاحتقارِ، ولا ريبَ أنَّ هذا المُذْنِب خيرٌ عند الله، وأقربُ إلى النَّجاة والفوزِ من هذا المُعْجَب بطاعتِه، الصَّائِل بها، المَـانِّ بها، وبِحالِه على الله ﷻ وعبادِه، وإنْ قال بلسانه خلافَ ذلك فاللهُ شهيد على ما في قلبِه، ويكاد يُعادِي الخلائقَ إذا لم يُعظِّموه ويرفعوه، ويخضعُوا له، ويجد في قلبِه بُغْضةً لِمَنْ لم يفعل به كذلك، ولو فتَّش نفْسَه حقَّ التفتيشِ لرأى فيها ذلك كامِنًا.

فإذا أراد الله بهذا العبدِ خيرًا ألقاه في ذَنْبٍ كَسَرَه به، وعرَّفه به قَدْرَه، وكفى

به عبادَه شَرَّهُ، ونكَّس به رأسَه، واستخرج به منه داءَ العُجب والكِبْرِ والمِنَّة عليه وعلى عباده، فيكون هذا الذَّنْبُ أنفعَ لهذا مِن طاعاتٍ كثيرة، ويكون بمنزلة شُرْبِ الدَّواء ليستخرج به الدَّاء العُضَال، كما قيلَ بلسان الحال في قصَّة آدمَ ﷺ وخروجِه من الجنَّة بذنْبِه:

يا آدمُ، إنَّما ابتليتُك بالذَّنب لأنِّي أحبُّ أنْ أُظهِر فضلي وجُودي وكَرَمي على مَن عصاني، **لَوْ لَمْ تُذْنِبوا لَذَهَبَ الله بكُمْ، ولَجَاءَ بقَومٍ يُذْنِبُونَ فيَستَغفِرُونَ الله فيَغفِرُ لهُم**.

يا آدم، إذا عصمتُك وعصمتُ بَنِيكَ من الذُّنوب فعلى مَن أجُود بحِلْمي؟ وعلى مَن أجود بعَفْوي ومَغفرتي وتوبتي، وأنا التَّوَّابُ الرَّحيم؟

يا آدم، لا تجزع مِن قولي لك: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ [الأعراف: ١٨] فلك خَلَقْتُها، ولكن اهبِطْ إلى دارِ المجاهَدة، وابْذُر بِذَارَ التَّقوى، وأمطِرْ عليه سَحائبَ الجُفُون، فإذا اشتدَّ الحَبُّ واستَغلَظ، واستوى على سُوقِه؛ فتَعَالَ فاحْصُدْهُ.

يا آدم، ذنبٌ تَذِلُّ به لدينا، أحَبُّ إلينا من طاعةٍ تُدِلُّ بها علينا.

يا آدم، أنينُ المُذْنِبينَ، أحَبُّ إلينا من تسبيح المُدِلِّينَ.

«يا ابنَ آدَمَ، إنَّكَ ما دَعَوْتَني ورَجَوْتَني غَفَرْتُ لكَ على ما كان مِنكَ ولا أُبالي. ابنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنوبُكَ عَنَانَ السَّماءِ، ثُمَّ استَغفَرْتَني غَفَرْتُ لكَ. يا ابنَ آدَمَ، لَوْ لَقِيتَني بِقُرَابِ الأرضِ خَطايَا، ثُمَّ لَقِيتَني لا تُشرِكُ بي شَيْئًا، أتَيْتُكَ بقُرَابِها مَغفِرةً»[١].

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٣٨).

التوبة النصوح وحقيقتها:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨]، فجعلَ وقايةَ شرِّ السيِّئات -وهو تكفيرُها- بزوال ما يَكْرَهُ العبدُ، ودخولَ الجنَّات -وهو حصولُ ما يحبُّ العبدُ- مَنُوطًا بحصول التَّوبة النَّصوح، وقد اختلفت عباراتُ السَّلف عنها، ومرجِعُها إلى شيء واحد، فقال عمر بن الخطاب وأُبَيُّ بن كعبٍ ﵄: «التَّوبةُ النَّصوحُ: أنْ يتوبَ من الذَّنب ثم لا يعود إليه كما لا يعودُ اللبنُ إلى الضَّرْع».

وقال محمد بن كعبٍ القُرَظيُّ ﵀: «يجمعها أربعةُ أشياءَ: الاستغفارُ باللِّسان، والإقلاعُ بالأبدان، وإضمارُ تَرْكِ العَوْدِ بالجَنان، ومهاجَرةُ سَيِّءِ الإخوان».

قلت: النصحُ في التَّوبة يتضمَّن ثلاثةَ أشياءَ:

[الأول]: تعميمُ جميعِ الذُّنوب واستغراقُها بها بحيثُ لا تَدَعُ ذنبًا إلا تناولَتْه.

الثاني: إجماعُ العَزْم والصِّدق بكُلِّيَّته عليها، بحيث لا يبقى عنده تَردُّد، ولا تلوُّمٌ ولا انتظار، بل يجمع عليها كلَّ إرادتِه وعزيمتِه مبادِرًا بها.

الثالث: تخليصُها من الشَّوائب والعِلَل القادِحة في إخلاصِها، ووقوعُها لمحض الخوفِ مِن الله تعالى وخشيتِه، والرغبةِ فيما لديه، والرهبةِ ممَّا عنده، لا كَمَنْ يتوبُ لِحفْظِ جاهِه وحُرمتِه، ومنصبه ورياستِه، أو لِحفْظِ حالِه، أو حفظِ قوَّتِه ومالِه، أو استدعاءِ حَمْدِ الناسِ، أو الهربِ مِن ذَمِّهم، أو لئلَّا يتسلَّط عليه

السُّفَهاءُ، أو لقضاء نَهْمَتِه من الذَّنب، أو لإفلاسه وعجْزِه، ونحو ذلك من العِلَل التي تَقدَحُ في صحَّتها وخُلُوصِها لله.

فلأهلِ الذُّنوبِ ثلاثةُ أنهارٍ عِظامٍ يتطهَّرونَ بها في الدُّنيا، فإنْ لم تَفِ بطُهْرِهم طُهِّروا في نهرِ الجحيمِ يومَ القيامة: نهر التَّوبة النَّصوح، ونهر الحسناتِ المُستغرِقة للأوزارِ المحيطةِ بها، ونهر المصائب العظيمةِ المُكفِّرة، فإذا أراد الله بعبده خيرًا أدخله أحدَ هذه الأنهارِ الثلاثة، فوَرَدَ القيامةَ طيِّبًا طاهرًا، فلم يحتَجْ إلى النهر الرَّابع.

وتَوبةُ العبدِ إلى الله تعالى محفوفةٌ بتوبةٍ مِن الله عليه قَبْلَها، وتَوبةٍ منه بعدَها، فتَوبتُه بين تَوبتَيْنِ من الله؛ سابقةٍ ولاحقةٍ، فإنَّه تابَ عليه أوَّلًا إذنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتابَ العبدُ، فتابَ الله عليه ثانيًا قبولًا وإثابةً، قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّوبة: ١١٧-١١٨].

والعبد تَوَّابٌ، والله تَوَّابٌ، فتَوبةُ العبد رجوعُه إلى سيِّده بعد الإباقِ، وتَوبةُ الرَّبِّ نوعانِ: إذنٌ وتوفيقٌ، وقَبولٌ واعتدادٌ.

والتَّوبة لها مبدأٌ ومُنتهى، فمبدؤُها الرجوعُ إلى الله بسلوكِ صراطِه المستقيم الَّذي نَصَبَه لعبادِه، مُوصِلًا إلى رِضوانه، وأمَرَهم بسلوكه بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ونهايتُها الرجوعُ إليه في المَعاد، وسلوكُ صراطِه الذي نَصَبَه مُوصِلًا إلى جنَّته، فمَن رجع إلى الله في هذه الدَّارِ بالتَّوبة؛ رجع إليه في المَعاد بالثَّوابِ.

الذنوب صغائر وكبائر:

الذُّنوب تنقسم إلى صغائرَ وكبائرَ بنصِّ القرآنِ والسُّنَّة وإجماعِ السَّلَف والاعتبارِ، قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

وأمَّا حديث: «لَوْ لَقِيتَني بقُرابِ الأرضِ خَطايا، ثُمَّ لَقِيتَني لا تُشْرِكُ بي شَيئًا، أتَيْتُكَ بقُرابِها مَغفِرةً»[1]، فلا يدلُّ هذا على أنَّ ما عَدَا الشركَ كلُّه صغائرُ، بل يدلُّ على أنَّ مَن لم يُشْرِك بالله شيئًا فذنوبُه مغفورةٌ كائنةً ما كانت، ولكن ينبغي أنْ يعلم ارتباط أعمال القلوبِ بأعمال الجوارح، وتعلُّقها بها، وإلَّا لم يفهم مراد الرسول ﷺ، ويقع الخبْط والتَّخْبيط.

فاعلمْ أن هذا النَّفي العامَّ للشِّرْك- أنْ لا يُشْرِك بالله شيئًا البتَّةَ- لا يصدُر مِن مُصِرٍّ على معصية أبدًا، ولا يمكن مُدمِنُ الكبيرة والمُصِرُّ على الصغيرة أنْ يصفو له التَّوحيدُ، حتى لا يُشرِكَ بالله شيئًا، هذا مِن أعظمِ المُحال، ولا يلتفتُ إلى جَدَليٍّ لا حَظَّ له في أعمال القلوب، بل قَلْبُه كالحجرِ أو أقسى، يقول: وما المانع؟ وما وجْهُ الإحالة؟

فَدَعْ هذا القلبَ المَفتونَ بِجَدَلِه وجهلِه، واعلمْ أنَّ الإصرارَ على المعصيةِ يوجِبُ مِن خوفِ القلب مِن غير الله ورجائه لغيرِ الله، وحُبِّه لغير الله، وذُلِّه لغير الله، وتَوكُّلِه على غير الله ما يصير به مُنغمِسًا في بِحارِ الشِّرْك،

(١) أخرجه مسلم (٢٦٨٧) بنحوه.

والحاكم في هذا ما يعلمُه الإنسان مِن نفسِه -إنْ كان له عقلٌ-، فإنَّ ذُلَّ المعصية لا بدَّ أنْ يقومَ بالقلب فيُورِثَه خوفًا من غير الله، وذلك شِرْكٌ، ويُورِثَه محبَّةً لغير الله، واستعانةً بغيره في الأسباب التي تُوصِلُه إلى غَرَضِه، فيكون عملُه لا بالله ولا له، وهذا حقيقةُ الشِّرْك.

والمقصود: أنَّ مَن لم يُشرِكْ بالله شيئًا يستحيلُ أن يلقى الله بِقُرابِ الأرضِ خطايَا مُصِرًّا عليها غيرَ تائبٍ منها، مع كمالِ توحيدِه الذي هو غايةُ الحُبِّ والخضوعِ، والخوفِ والرجاء للرَّبِّ تعالى.

وهاهنا أمرٌ ينبغي التَّفطُّنُ له، وهو أنَّ الكبِيرة قد يَقترِنُ بها مِن الحياءِ والخوفِ، والاستعظامِ لها ما يُلحِقُها بالصغائرِ، وقد يقترنُ بالصَّغيرة مِن قِلَّةِ الحياء، وعدمِ المُبالاة، وتَرْكِ الخوف، والاستهانةِ بها ما يُلْحِقُها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى رُتَبِها.

وهذا أمرٌ مَرْجِعُه إلى ما يقومُ بالقلبِ، وهو قدرٌ زائدٌ على مجرَّد الفعلِ، والإنسانُ يعرف ذلك مِن نفسِه وغيرِه.

وأيضًا فإنَّه يُعْفَى للمُحِبِّ، ولصاحبِ الإحسانِ العظيم، ما لا يُعفَى لغيرِه، ويسامَحُ بما لا يسامَحُ به غيرُه.

فضل (لا إله إلا الله) وما يقع في القلب منها

ونَزيد هاهنا إيضاحًا؛ لعِظَم هذا المَقام وشدَّةِ الحاجة إليه:

اعلمْ أنَّ أشعَّةَ (لا إله إلا الله) تُبدِّدُ مِن ضَبابِ الذُّنوب وغيومِها بقَدْرِ قوَّةِ ذلك الشُّعاعِ وضعْفِه، فلها نورٌ، وتفاوُتُ أهلِها في ذلك النُّورِ قوةً وضعفًا لا يُحصيه إلا اللهُ تعالى؛ **فمِن الناسِ**: مَن نُورُ هذه الكلمةِ في قلبِه كالشمس.

ومنهم: مَن نورُها في قلبِه كالكوكبِ الدُّرِّيِّ.

ومنهم: مَن نورُها في قلبه كالمِشْعَل العظيم.

وآخَر: كالسِّراج المُضِيء، **وآخر**: كالسِّراج الضَّعيف.

ولهذا تظهرُ الأنوارُ يومَ القيامةِ بأيْمانِهِم وبيْن أيديهم على هذا المِقْدار، بحسَبِ ما هو في قلوبِهم مِن نورِ هذه الكلمةِ، عِلْمًا وعملًا، ومعرفةً وحالًا.

وكلَّما عظُمَ نورُ هذه الكلمةِ واشتدَّ؛ أحْرَقَ مِن الشُّبُهاتِ والشهوات بحسبِ قوَّتِه وشِدَّتِه، حتى إنَّه ربَّما وصلَ إلى حالٍ لا يصادِفُ معها شُبهة ولا شهوةً ولا ذنْبًا إلا أحْرَقه، وهذا حالُ الصادق في توحيده، الذي لم يُشْرِك بالله شيئًا، فأيُّ ذنبٍ أو شهوةٍ أو شُبهة دَنَتْ من هذا النُّور أحْرَقها، فسماءُ إيمانِه قد حُرِسَت بالنُّجوم مِن كلِّ سارقٍ لحسناته، فلا ينالُ منها السَّارقُ إلا على غِرَّةٍ وغفلةٍ لا بدَّ منها للبشر، فإذا استيقظَ وعَلِمَ ما سُرِقَ منه استنقذَه مِن سارِقِه، أو حصَّلَ أضعافَه بكَسْبِه، فهو هكذا أبدًا مع لصوصِ الجِنِّ والإنسِ، ليس كمَن فَتَحَ لهم خِزانتَه، ووَلَّى البابَ ظهرَه.

وليس التوحيدُ مجرَّدَ إقرارِ العبدِ بأنَّه لا خالقَ إلا الله، وأنَّ الله ربُّ كلِّ شيء ومَليكُه، كما كان عُبَّادُ الأصنامِ مُقِرِّينَ بذلك وهُم مُشرِكون، بل التوحيدُ يتضمَّنُ مِن محبَّة الله، والخضوعِ له، والذُّلِّ له، وكمالِ الانقيادِ لطاعتِه، وإخلاصِ العبادةِ له، وإرادةِ وجهِه الأعلى بجميعِ الأقوالِ والأعمال، والمنعِ، والعطاء، والحبِّ، والبُغضِ ما يَحُول بين صاحبِه وبين الأسبابِ الدَّاعية إلى المعاصي، والإصرارِ عليها، ومَن عرَف هذا عرَف قولَ النَّبيِّ ﷺ: «**إنَّ الله حَرَّمَ على النَّارِ مَن قال: لا إلهَ إلَّا الله، يَبتَغي بذلكَ وَجْهَ الله**»[1]، وقولَه: «**لا يَدخُلُ النَّارَ مَن قال: لا إلهَ إلَّا الله**»[2].

والشارِع صلواتُ الله وسلامُه عليه لم يجعل ذلك حاصلًا بمجرَّد قولِ اللِّسانِ فقط، فإنَّ هذا خلافُ المعلوم بالاضطرار مِن دِينِ الإسلام، فإنَّ المنافقين يقولونها بألسنتهم، وهم تحت الجاحِدِينَ لها في الدَّرْكِ الأسفلِ من النَّار، فلا بدَّ مِن قولِ القلب، وقولِ اللِّسانِ، وقولُ القلبِ يتضمَّنُ مِن معرفتِها، والتصديقِ بها، ومعرفةِ حقيقةِ ما تَضمَّنَتْه مِن النفي والإثبات، ومعرفةِ حقيقةِ الإلهيَّة المَنْفيَّة عن غير الله، المختصَّة به، التي يستحيل ثُبوتُها لغَيْرِه، وقيامِ هذا المعنى بالقلب عِلمًا ومعرفةً، ويقينًا وحالًا ما يوجِبُ تحريمَ قائلها على النار، وكُلُّ قولٍ رَتَّبَ الشارعُ ما رَتَّب عليه من الثَّواب، فإنَّما هو القول التامُّ، كقولِه ﷺ: «**مَن قال في يَومٍ: سُبحانَ الله وبحَمْدِه، مائةَ مرَّةٍ،**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣)

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢).

حُطَّتْ عنهُ خَطاياهُ -أوْ غُفِرَتْ لهُ ذُنُوبُه- ولَوْ كانتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحرِ»[1]، وليس هذا مُرَتَّبًا على مجرَّد القولِ اللِّساني.

نَعَمْ، مَن قالها بلسانه، غافلًا عن معناها، مُعْرِضًا عن تدبُّرها، ولم يواطِئْ قلبُه لسانَه، ولا عرَف قَدْرَها وحقيقتَها، راجيًا مع ذلك ثوابَها، حَطَّت مِن خطاياه بحسَب ما في قلبه، فإنَّ الأعمالَ لا تتفاضَلُ بصوَرها وعددِها، وإنَّما تتفاضَلُ بتفاضُلِ ما في القلوبِ، فتكونُ صورةُ العملَيْنِ واحدةً، وبينهما في التفاضُل كما بين السماء والأرضِ، والرَّجُلان يكون مقامُهما في الصفِّ واحدًا، وبين صلاتَيْهِما كما بين السماء والأرض.

وتأمَّلْ حديثَ البطاقةِ التي توضَع في كِفَّةٍ، ويقابلها تسعةٌ وتسعونَ سِجِلًّا، كلُّ سِجِلٍّ منها مَدَّ البصرِ، فتثقُلُ البطاقةُ وتَطِيشُ السِّجِلَّات، فلا يُعذَّب.

ومعلومٌ أن كل موَحِّد له مثلُ هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذُنوبِه، ولكنَّ السِّرَّ الذي ثَقَّلَ بطاقةَ ذلك الرجلِ، وطاشَتْ لأجْلِه السِّجِلَّاتُ، لَـمَّـا لمْ يحصل لغيره من أرباب البطاقات، انفردتْ بطاقتُه بالثِّقَل والرَّزانة.

وإذا أردتَ زيادة الإيضاحِ لهذا المعنى فانظرْ إلى ذِكْرِ مَن قلْبُه ملآن بمحبَّتِك، وذِكرِ مَن هو مُعْرِضٌ عنك، غافلٌ سَاهٍ، مشغولٌ بغيرك، قد انجذبتْ دَواعي قلبه إلى محبَّةِ غيرك، وإيثارِه عليك، هل يكون ذِكْرُهُما لك واحدًا؟ أم هل يكون ولداكَ اللَّذانِ هُما بهذه المثابة، أو عَبْداك، أو زَوْجَتاك، عندك سواء؟

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١).

وتأمَّلْ ما قام بقلبِ قاتلِ المائةِ من حقائقِ الإيمانِ الَّتي لم تشغلْه عند السِّياق عن السَّير إلى القرية، وحَمَلتْه -وهو في تلك الحال- على أنْ جعل يَنُوءُ بصدره، وهو يعالِج سَكَراتِ الموت، فهذا أمرٌ آخر، وإيمانٌ آخر، ولا جَرَم أن أُلحِقَ بالقرية الصالِحة، وجُعِلَ مِن أهلِها.

وقريبٌ من هذا ما قام بقلبِ البَغِيِّ التي رأت ذلك الكلبَ وقد اشتدَّ به العطشُ يأكُلُ الثَّرى، فقام بقلبها ذلك الوقتَ -مع عدمِ الآلة، وعدم المُعِينِ، وعدم مَن تُرائِيه بعملها- ما حملَها على أنْ غَرَّرَتْ بنفسها في نزول البئرِ، ومَلْءِ الماء في خُفِّها، ولم تعبأ بتعرُّضِها للتَّلَف، وحَمِلها له بِفِيها وهو ملآن، حتى أمكنها الرُّقِيُّ في البئر، ثم تواضُعِها لهذا المخلوق الذي جَرَتْ عادةُ الناس بضَرْبِه وطَرْدِه، فأمسكتْ له الخُفَّ بيدها حتى شَرِبَ، مِن غير أنْ ترجو منه جزاءً ولا شُكُورًا، فأحرقتْ أنوارُ هذا القَدْرِ من التوحيد ما تقدَّم منها من البِغاء، فغفر لها، فهكذا حالُ الأعمال والعُمَّالِ عند الله، **والعاملُ في غفلةٍ من هذا الإكْسِير الكيماويِّ، الذي إذا وُضِعَ منه مثقال ذَرَّةٍ على قناطيرَ من نُحاسِ الأعمال قَلَبَها ذَهَبًا**، والله المُستعان[1].

---

(١) ومن هذه الدرة من كلام ابن القيم رحمه الله لمعت فكرة هذا الكتاب وبها سمّي، والله الهادي إلى سواء السبيل.

أجناسُ ما يُتابُ منها ولا يستحقُ العبدُ اسمَ التائب حتى يتخلّص منها

وهي اثنا عَشَرَ جِنسًا مذكورة في كتاب الله تعالى، هي أجناسُ المحرَّمات: الكفر، والشِّرْك، والنِّفاق، والفُسُوق، والعصيان، والإثم، والعُدْوان، والفَحْشاء، والمُنْكَر، والبَغْي، والقَول على الله بلا عِلْم، واتِّباع سبيلِ غيرِ سبيله.

فهذه الاثنا عشر جِنْسًا عليها مَدارُ كلِّ ما حَرَّمَ الله، وإليها انتهاءُ العالَمِ بأسْرِهِم، إلا أتباع الرُّسُل، صلواتُ الله وسلامُه عليهم، وقد يكون في الرجل أكثرُها وأقلُّها، أو واحدة منها، وقد يعلم بذلك، وقد لا يعلم. فالتَّوبة النَّصُوح هي بالتخلُّص منها، والتَّحصُّن والتَّحرُّز مِن مُواقَعتِها، وإنَّما يمكن التخلُّص منها لمَن عرَفها.

١- فأما الكفر فنوعان: كُفْرٌ أكبرُ، وكفرٌ أصغرُ؛ فالكفرُ الأكبر هو المُوجِبُ للخلودِ في النَّار، والأصغر موجِبٌ لاستحقاق الوعيدِ دون الخلود.

٢- وأما الشرك فهو نوعان: أكبرُ وأصغرُ؛ فالأكبرُ لا يَغفِرُه الله إلا بالتَّوبة منه، وهو أن يَتَّخِذَ من دون الله نِدًّا، وأما الشِّركُ الأصغرُ: فكَيَسِيرِ الرِّياء، والتصنُّع للخَلْق، والحَلِفِ بغير الله.

٣- وأما النِّفاق: فالدَّاءُ العُضال الباطن، الذي يكون الرجُل ممتلئًا منه وهو لا يَشعُرُ، فإنَّه أمرٌ خَفِيٌّ؛ خَفِيَ على النَّاس، وكثيرًا ما يَخفَى على مَن تَلَبَّس به، فيزعُم أنَّه مُصلِحٌ وهو مُفسِدٌ.

[والمنافقون] لهم علاماتٌ يُعرفون بها مُبيَّنةٌ في السُّنَّة والقرآن، باديةٌ لِمن تَدبَّرها مِن أهلِ بصائرِ الإيمان، قام بهم واللهِ الرِّياءُ، وهو أقبحُ مقام قامه الإنسانُ، وقعد بهم الكسلُ عمّا أُمِروا به مِن أوامرِ الرحمنِ، فأصبح الإخلاصُ لذلك عليهم ثقيلًا، ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

يُؤخِّرون الصَّلاةَ عن وقتِها الأوَّل إلى شَرَقِ الموتى[1]، فالصُّبح عند طلوع الشمسِ، والعصرُ عند الغُروبِ، ويَنقُرونها نَقْرَ الغُراب؛ إذ هي صلاةُ الأبدان، لا صلاةُ القلوبِ، ويلتفتون فيها التفاتَ الثعلبِ؛ إذ يتيقَّن أنَّه مطرودٌ مطلوب، ولا يشهدون الجماعةَ، بل إنْ صلَّى أحدُهم ففي البيت أو الدُّكّان، وإذا خاصَمَ فَجَر، وإذا عاهَدَ غَدَر، وإذا حَدَّث كَذَب، وإذا وَعَدَ أخلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خان.

كَرِهَ الله طاعاتِهم؛ لِخُبْثِ قلوبِهم وفسادِ نيّاتِهم، فثَبَّطَهم عنها وأقعدَهم، وأبغَضَ قُرْبَهم منه وجِوارَهم؛ لِمَيْلِهم إلى أعدائه، فطردَهم عنه وأبعدَهم، وأعرَضوا عن وَحْيِه فأعرَضَ عنهم، وأشقاهم وما أسعدَهم، وحَكَمَ عليهم بحُكْمِ عَدْلٍ لا مَطمَعَ لهم في الفَلاح بعده، إلَّا أنْ يكونوا مِن التَّائبينَ، فقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التَّوبة: ٤٦].

تاللهِ لقد قطعَ خوفُ النِّفاق قلوبَ السابِقينَ الأوَّلِين، ولعِلمهم بدِقِّهِ

(١) أراد أنَّهم يُصلُّونها ولم يَبْقَ من النَّهارِ إلَّا بقَدْرِ ما يَبْقَى من نفسِ المُحتَضِرِ إذا شَرِقَ بريقِه.

وجِلّه وتفاصيله وجُمَلِه ساءتْ ظُنونُهم بنفوسِهم حتى خَشُوا أنْ يكونوا من جملة المنافقين؛ قال عمر بن الخطاب لحذيفة ﷺ: «يا حذيفةُ، نشدتُك باللهِ، هل سَمَّاني لكَ رسولُ الله ﷺ منهم؟ فقال: لا، ولا أُزكِّي بعدَكَ أحدًا».

قال ابنُ أبي مُلَيْكَةَ ﷺ: «أدركتُ ثلاثين من أصحابِ محمد ﷺ، كلُّهم يخاف النِّفاق على نفسِه، ما منهم أحدٌ يقول: إنَّ إيمانه كإيمانِ جبريلَ وميكائيلَ» ذكرَه البخاريُّ.

وذُكِرَ عن الحسَن ﷺ: «ما أمِنَه إلا منافق، ولا خَافَهُ إلا مؤمن».

زَرْعُ النِّفاقِ يَنبُتُ على ساقِيَتَيْنِ: ساقية الكَذِب، وساقيةِ الرِّياء، ومَخْرَجُهما مِن عَيْنَيْنِ: عينِ ضَعْفِ البصيرة، وعينِ ضَعفِ العزيمة، فإذا تَمَّت هذه الأركانُ الأربع استَحكَمَ بُنيانُ النِّفاق، ولكنَّه بمدارج السيول على شَفَا جُرُفٍ هارٍ، فإذا سال سَيْلُ الحقائق، وعاينوا يوم تُبْلَى السرائر، وكُشِفَ المستورُ، وبُعْثِرَ ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور، تَبَيَّنَ حينئذ لمن كانت بضاعته النِّفاق؛ أنَّ حواصله التي حصلها كانت كالسراب، ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

قلوبُهم عن الخيرات لاهِيَة، وأجسادُهم إليها ساعِيَة، والفاحشةُ في فِجَاجِهم فاشية، وإذا سَمِعوا الحقَّ كانت قلوبُهم عن سماعِه قاسية، وإذا حَضَروا الباطلَ وشَهِدوا الزُّور انفتحتْ أبصارُ قلوبِهم وكانت آذانُهم واعية، فهذه واللهِ أماراتُ النِّفاق فاحْذَرْها أيُّها الرَّجُلُ قبلَ أنْ تنزلَ بك القاضية.

٥،٤- وأمَّا الفُسُوق فهو في كتاب الله نوعان: مُفْرَد مُطْلَق، ومَقرون

بالعِصيان ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

٦،٧- وأمَّا الإثم والعدوانُ فهما قَرينانِ، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢].

٨- [و] البغي غالب استعماله في حقوق العباد والاستطالة عليهم.

٩،١٠- وأمَّا الفحشاء والمنكر؛ فالفحشاءُ: ما ظهر قُبْحُها لكل أحد، واستفحشَه كلُّ ذي عقلٍ سليم، وأمَّا المنكرُ [فهو] الذي تُنكِرُه العقولُ والفِطَر، فما اشتدَّ إنكار العقولُ والفِطَر له فهو فاحشة.

١١- وأمَّا القول على الله بلا عِلْم: فهو أشدُّ هذه المُحرَّمات تحريمًا، وأعظمُها إثمًا، وهو أصلُ الشِّرك والكُفْر، وعليه أُسِّست البِدَعُ والضَّلالات، فكلُّ بدعةٍ مُضِلَّة في الدِّين أساسُها القولُ على الله بلا عِلْم[1].

مَشاهِدُ الخَلق في المعصيَة

١-فأمَّا مشهد الحيوانية وقضاء الشهوة: فمشهد الجُهَّال الذين لا فَرْقَ بينهم وبين سائر الحيوان إلا في اعتدال القامة ونُطْق اللِّسان، ليس همُّهم إلا مجرَّد نَيْل الشهوة بأي طريق أفْضَتْ إليها، فهؤلاء نفوسُهم نفوسٌ حيوانية لم تَتَرَقَّ عنها إلى درجة الإنسانية، فضلًا عن درجة الملائكة، فهؤلاء حالهم أخَسُّ من أنْ تُذْكر، وهم في أحوالهم مُتَفاوِتون بحسَب تفاوُتِ الحيوانات التي هم على أخلاقها وطباعها.

(١) لم يتكلم ابن القيم عن الثاني عشر وهو (اتباع سبيل غير المؤمنين).

فمنهم مَن نفْسُه كَلْبيَّة، لو صادَف جيفةً تُشبِعُ ألْفَ كلبٍ لوقع عليها وحماها من سائر الكلاب، وهَمُّه شِبَعُ بطنِه من أي طعام اتَّفق؛ ميتة أو ذَكِيّ، خبيث أو طيِّب، ولا يستحي من قبيح، إن تَحْمِل عليه يَلْهَث أو تَتْرُكه يلهث.

ومنهم مَن نفْسُه حِماريَّة لم تُخْلَق إلا للكَدِّ والعلَف، كلما زِيدَ في علَفِه زِيدَ في كَدِّه، أبكَمُ الحيوانِ وأقلُّه بصيرةً، ولهذا مثَّل الله ﷻ به مَن حمَّله كتابَه فلم يَحْمِلْه معرفةً ولا فِقهًا ولا عملًا، ومَثَّل بالكلب عالِمَ السُّوء الذي آتاه الله آياتِه فانسلخ منها وأخلَدَ إلى الأرض واتَّبع هواه.

ومنهم مَن نفسُه سَبُعيَّة غضبِيَّة، هَمُّه العدوان على الناس وقَهرُهم بما وصلتْ إليه قدرتُه، طبيعته تتقاضى ذلك كتَقاضي طبيعة السَّبُع لِمَا يصدُر منه.

ومنهم مَن نفسُه فَأْرِيَّةٌ، فاسقٌ بطبْعِه، مُفْسِد لما جاوَرَه، تسبيحُه بلسان الحال: سبحان مَن خَلَقَه للفساد.

ومنهم مَن نفسُه على نفوسِ ذَوات السُّمُوم والحُمات، كالحيَّة والعقرب وغيرهما، وهذا الضرب هو الذي يؤذي بعينه، فيُدخِل الرجلَ القبرَ، والجَمَلَ القِدْرَ.

ومِن النَّاس مَن طَبْعُه طَبعُ خِنزير؛ يَمُرُّ بالطيِّبات فلا يَلْوِي عليها، فإذا قامَ الإنسانُ عن رَجيعِه قَمَّه، وهكذا كثيرٌ من الناسِ، يسمعُ منك ويرَى من المحاسِن أضعافَ أضعافِ المساوِئ، فلا يتحفَّظُها ولا ينقلُها ولا تناسِبُه، فإذا رأى سَقْطةً أو كلمةً عَوْراءَ وَجَدَ بُغْيَتَه وما يناسِبُه، فجعَلها فاكهتَه ونُقْلَه.

ومنهم مَن هو على طبيعة الطَّاووسِ؛ ليس له إلا التَّطوُّس والتَّزيُّن بالرِّيش، وما وراء ذلك شيءٌ.

ومنهم مَن هو على طبيعة الجَمَل؛ أحْقَدُ الحيوان، وأغلَظُه كَبِدًا.

وأحمدُ طبائعِ الحيواناتِ طبائعُ الخيل، التي هي أشرَفُ الحيواناتِ نُفوسًا، وأكرمُها طِباعًا، وكذلك الغَنَم.

والمقصودُ أنَّ أصحابَ هذا المشهدِ ليس لهم شُهُودٌ سِوى مَيْلِ نفوسِهم وشهواتِهم، لا يعرفون ما وراء ذلك البَتَّة.

٢- ومشهدُ حِكمةِ اللهِ في تقديرِه على عبدِه ما يُبْغِضُه سبحانَه ويكرهُه، ويلومُ ويعاقِبُ عليه، وأنَّه لو شاء لعَصَمَه منه، ولَحَالَ بينه وبينه، وأنَّه سبحانه لا يُعصَى قَسْرًا، وأنَّه لا يكونُ في العالَمِ شيءٌ إلا بمشيئتِه، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهؤلاء يَشهَدون أنَّ الله سبحانه لم يَخْلُق شيئًا عبثًا ولا سُدًى، وأنَّ له الحِكمةَ البالِغةَ في كل ما قَدَّرَه وقضاهُ مِن خير وشَرٍّ، وطاعةٍ ومعصية.

ويكفي من هذا مثالٌ واحدٌ، وهو أنَّه لولا المعصيةُ مِن أبِي البشر -بأكْلِه مِن الشجرة- لما تَرتَّب على ذلك ما تَرتَّب من وجود هذه المحبوبات العِظام للرَّبِّ تعالى، مِن امتحان خَلْقِه وتكليفِهم، وإرسال رُسُلِه، وإنزالِ كُتُبِه، وإظهارِ آياته وعجائِبِه، وتنويعها وتصريفها، وإكرامِ أوليائِه، وإهانةِ أعدائه، وظهورِ عَدْلِه وفضلِه، وعِزَّتِه وانتقامِه، وعَفْوِه ومغفرتِه، وصَفْحِه وحِلْمِه، وظهورِ

مَن يعبُدُه ويُحِبُّه ويقوم بِمَراضِيه بين أعدائِه في دار الابتلاءِ والامتحان.

٣- [مشهد التوحيد] وهو أنْ يَشهد انفرادَ الرَّبِّ تعالى بالخَلْق والحُكْم، وأَنَّه ما شاء كان، وما لم يَشَأْ لم يكن، وأَنَّه لا تتحرَّك ذَرَّةٌ إلا بإذنه، وأَنَّ الخَلْق مَقهورون تحت قبضته، وأَنَّه ما مِن قلْبٍ إلا وهو بين أصابعه، إن شاء أن يُقِيمَه أقامه، وإن شاء أن يُزيغَه أزاغَه، فالقلوبُ بيده، وهو مُقَلِّبُها ومُصَرِّفُها كيف شاء وكيف أراد.

٤- مشهدُ التوفيقِ والخِذلان، وقد أجمعَ العارِفون بالله أنَّ التوفيق هو أَلَّا يَكِلَك الله إلى نفسك، والخِذلان أنْ يُخَلِّي بيْنك وبينها؛ فالعبيد مُتقلِّبون بين توفيقه وخِذلانه، بل العبد في السَّاعة الواحدة ينال نصيبَه من هذا وهذا، فيُطيعُه ويُرضيه ويَذكُره ويشكره بتوفيقه له، ثم يَعصيه ويخالفه ويُسْخِطُه ويغفُلُ عنه بخِذلانه له، فهو دائِرٌ بين توفيقه وخِذلانه، فإنْ وَفَّقَه فبفضله ورحمته، وإنْ خَذَله فبِعدلِه وحِكمته، وهو المحمود على هذا وهذا، له أَتَمُّ حمدٍ وأكملُه، ولم يَمنع العبدَ شيئًا هو له، وإنَّما منعه ما هو مجرَّدُ فضلِه وعطائه، وهو أعلمُ حيث يضعه وأين يجعله.

فمتى شهِد العبدُ هذا المشهدَ وأعطاه حقَّه عَلِم ضرورتَه وفاقتَه إلى التوفيق في كل نفَس، وكلِّ لحظةٍ وطرْفةِ عين، وأنَّ إيمانه وتوحيده بِيَدِ غيره، لو تَخلَّى عنه طرفةَ عينٍ لثُلَّ عرشُه، ولَخَرَّت سماءُ إيمانِه على الأرض، وأنَّ المُمْسِك له مَن يُمسِك السماءَ أن تقع على الأرض إلا بإذنه، فهِجِّيرَى قلبه ودأبُ لسانه: «يا مُقلِّبَ القُلوبِ، ثَبِّتْ قَلْبي على دِينِكَ»، و«يا مُصَرِّفَ القُلوبِ، صَرِّفْ

قَلْبي على طاعَتِكَ»، ودعواه: «يا حَيُّ يا قَيُّومُ، يا بَديعَ السَّمَواتِ والأرضِ، يا ذا الجَلالِ والإكرامِ، لا إلهَ إلَّا أنتَ، برَحمتِكَ أستغيثُ، أصْلِحْ لي شأْني كُلَّه، ولا تَكِلْني إلى نَفْسي طَرْفةَ عَيْنٍ، ولا إلى أحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ».

والتوفيق إرادة الله من نفسِه أنْ يفعلَ بعبدِه ما يَصْلُح به العبد، بأن يجعله قادرًا على فِعلِ ما يُرضيه، مُريدًا له، مُحِبًّا له، مؤثرًا له على غيره، ويُبَغِّض إليه ما يُسخِطُه، ويُكَرِّهه إليه، وهذا مُجرَّد فعله، والعبد مَحَلٌّ له، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧ - ٨].

وقد ضُرِب للتوفيق والخِذلانِ مَثَل: مَلِك أرسلَ إلى أهلِ بلدةٍ مِن بلادِه رسولًا، وكتبَ معه كتابًا يُعْلِمُهم أنَّ العدوَّ مُصَبِّحُهم عن قريب ومُجْتاحُهم، ومُخَرِّب البلد، ومُهْلِك مَن فيها، وأرسل إليهم أموالًا ومراكبَ وزادًا وعُدَّةً وأدِلَّةً، وقال: ارتحِلُوا إليَّ مع هؤلاء الأدِلَّة، وقد أرسلت إليكم جميع ما تحتاجون إليه، ثم قال لجماعة من مماليكه: اذهبوا إلى فلان، فخُذوا بيده واحْمِلوه، ولا تَذَروه يَقعُد، واذهبوا إلى فلان كذلك وإلى فلان، وذَرُوا مَن عَداهُم؛ فإنَّهم لا يَصلُحون أنْ يُساكِنُوني في بلدي، فذهب خَواصُّ المِلك إلى مَن أُمِروا بِحَمْلِهم، فلم يتركوهم يَقِرُّون، بل حَمَلُوهم حَمْلًا، وساقُوهم سَوْقًا إلى الملك، فاجْتاحَ العدوُّ مَن بَقِي في المدينة وقَتَلهم، وأسَرَ مَن أسَرَ. فهل يُعَدُّ الملكُ ظالمًا لهؤلاء، أم عادلًا فيهم؟ نعم، خَصَّ أولئك بإحسانِه وعنايتِه، وحَرَمها مَن عَداهم؛ إذْ لا تجب عليه التَّسويةُ بينهم في فضله وإكرامه، بل ذلك فضلُه وإكرامُه يؤْتيه مَن يشاء.

٥- **مشهد الأسماء والصِّفات**، وهو مِن أجَلِّ المشاهد، وهو أعلى مما قبْلَه وأوسع.

والمُطَّلِع على هذا المشهد: معرفة تَعلُّق الوجود خَلْقًا وأمرًا بالأسماء الحسنى، والصفات العُلَى، وارتباطِه بها، وأنَّ العالم بما فيه مِن بعض آثارها ومقتضاها. فله في كل ما قضى وقدَّرَه الحكمةُ البالغة، والآياتُ الباهرة، والتعرُّف إلى عبادِه بأسمائه وصفاته، واستدعاءُ محبَّتِهم له، وذِكْرِهم له، وشكرهم له، وتعبُّدِهم له بأسمائه الحسنى؛ إذ كلُّ اسمٍ فله تعبُّدٌ مُختَصٌّ به، عِلْمًا ومعرفةً وحالًا، وأكملُ الناسِ عبوديَّةً: المتعبِّدُ بجميع الأسماء والصفات التي يطَّلِع عليها البشر، فلا تَحجُبُه عبوديةُ: اسمٍ عن عبوديَّة اسمٍ آخَرَ، كمَنْ يحجُبُه التعبُّد باسمه (القدير) عن التعبُّد باسمه (الحليم الرحيم)، أو تحجبه عبوديَّة اسمه (المعطِي) عن عبوديَّة اسمه (المانع)، أو عبوديَّة اسمه (الرحيم) و(العفُو) و(الغفور) عن اسمه (المنتقِم)، أو التعبُّد بأسماء التودُّد، والبِرِّ، واللُّطف، والإحسان عن أسماء العدل، والجبروت، والكبرياء، والعظمة ونحو ذلك.

وهذه طريقةُ الكُمَّلِ من السَّائرينَ إلى الله تعالى، وهي طريقةٌ مشتقَّةٌ من قلبِ القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والدُّعاء بها يتناوَلُ دعاءَ المسألة، ودعاءَ الثَّناء، ودعاءَ التعبُّد، وهو سبحانه يدعو عبادَه إلى أنْ يعرفُوه بأسمائه وصفاتِه، ويُثْنُوا عليه بها، ويأخُذوا بِحَظِّهم من عبوديَّتِها. وهو سبحانه يحب مُوجَبَ أسمائه وصفاتِه، فهو (عليم) يحبُّ كلَّ عليم، (جَوَاد) يحبُّ كلَّ جَواد، (وِتْرٌ) يحب الوِتْر، (جميل) يحبُّ الجمال، (عَفُوٌّ) يحب العفو وأهلَه، (حَيِيٌّ) يحب الحياء وأهلَه، (بَرٌّ) يحب الأبرار، (شَكُور) يحب الشاكرين، (صَبُور) يحبُّ الصابِرينَ؛ (حليم) يحبُّ أهلَ الحِلْم، فلِمحبَّتِه سبحانه للتَّوبة

والمغفرة، والعفوِ والصَّفحِ؛ خَلَقَ مَن يغفرُ له، ويتوبُ عليه، ويعفو عنه، وقَدَّر عليه ما يقتضي وقوعَ المكروه والمَبْغُوض له؛ ليترتَّب عليه المحبوبُ له المَرْضِيُّ له، فتوسُّطه كتوسُّط الأسباب المكروهة المُفْضِية إلى المحبوب.

٦ـ **مشهد زيادة الإيمان وتعدُّد شواهِده**، وهذا مِن ألطفِ المشاهد، وأخَصِّها بأهلِ المعرفة.

وآثار الحسناتِ والسَّيِّئاتِ في القلوبِ والأبدانِ والأموال، أمرٌ مشهود في العالَم، لا ينكرُه ذو عقلٍ سليم، بل يَعرِفُه المؤمنُ والكافر، والبَرُّ والفاجر.

وشهودُ العبدِ هذا في نفسِه وفي غيرِه، وتأمُّله ومطالعتُه، مما يقوِّي إيمانَه بما جاءت به الرُّسُل، وبالثَّواب والعِقاب، فإنَّ هذا عدلٌ مشهودٌ محسوسٌ في هذا العالَم، ومَثُوباتٌ وعُقوباتٌ عاجلة دالَّة على ما هو أعظمُ منها لمن كانت له بصيرةٌ، كما قال لي بعضُ النَّاسِ: إذا صَدَرَ مني ذَنبٌ ولم أبادِره، ولم أتدارَكْه بالتَّوْبة انتظرتُ أثرَه السيِّئ، فإذا أصابَني -أو فوقَه أو دونَه- كما حسبتُ، يكون هِجِّيرايَ: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمدًا رسولُ الله، ويكون ذلك مِن شواهِدِ الإيمان وأدلَّتِه، فإنَّ الصادق متى أخبرك أنَّك إذا فعلتَ كذا وكذا ترتَّب عليه مِن المكروه كذا وكذا، فجعلتَ كلَّما فعلتَ شيئًا من ذلك حصل لك ما قال مِن المكروه، لم تَزْدَدْ إلا عِلْمًا بصدقه وبصيرةً فيه، وليس هذا لكلِّ أحد، بل أكثر الناس تَرِينُ الذنوبُ على قلْبِه، فلا يشهدُ شيئًا مِن ذلك، ولا يشعرُ به البتَّةَ.

وإنَّما يكون هذا القلبُ فيه نورُ الإيمان، وأهْوِيةُ الذُّنوب والمعاصي تَعصِفُ

فيه، فهو يشاهِد هذا وهذا، ويرى حال مِصباحِ إيمانه مع قوَّة تلك الأَهْويةِ والرِّياح، فيرى نفسه كراكِبِ البحرِ عند هَيَجانِ الرِّياح، وتقلُّبِ السفينةِ وتَكَفُّئِها، ولا سيَّما إذا انكسرتْ به، وبَقِيَ على لَوحٍ تلعب به الرِّياح، فهكذا المؤمنُ يشاهدُ نفسَه عند ارتكابِ الذُّنوب، إذا أُرِيدَ به الخيرُ، وإنْ أُريدَ به غيرُ ذلك فقلبُه في وادٍ آخر.

ومتى انفتَحَ هذا البابُ للعبد انتفع بمطالَعةِ تاريخِ العالَم، وأحوالِ الأُمَم، ومُجْرَيات الخَلْق، بل انتفع بمُجريات أهلِ زمانِه وما يشاهِدُه من أحوال النَّاس.

فالذُّنوب مثل السُّموم مُضِرَّةٌ بالذَّات، فإنْ تدارَكها مِن سَقْيٍ بالأدوية المقاوِمةِ لها، وإلا قَهَرت القُوَّةَ الإيمانيَّة، وكان الهلاكُ، كما قال بعض السَّلَف: «المعاصي بَرِيدُ الكُفْر، كما أنَّ الحُمَّى بَريدُ الموت».

فشهودُ العبدِ نقْصَ حالِه إذا عصى رَبَّه وتغيُّرَ القلوبِ عليه، وجُفولَها منه، وانسدادَ الأبوابِ في وجهه، وتَوعُّرَ المسالكِ عليه، وهَوانَه على أهلِ بيتِه وأولادِه وزوجتِه وإخوانِه، وتَطَلُّبُه سببَ ذلك حتى يعلَمَ من أين أُتِي، ووقوعُه على السبب الموجِب لذلك، مما يقوِّي إيمانَه، فإنْ أقلع وباشَرَ الأسبابَ التي تُفضي به إلى ضدِّ هذه الحال، رأى العِزَّ بعد الذُّلِّ، والغِنى بعد الفقر، والسُّرورَ بعد الحزن، والأمنَ بعد الخوف، والقوَّةَ في قلبِه بعد ضَعفِه ووَهَنِه؛ ازدادَ إيمانًا مع إيمانه، فتَقْوى شواهدُ الإيمانِ في قلبِه وبراهينُه وأدلَّتُه في حال معصيتِه وطاعتِه، فهذا مِن الذينَ قال اللهُ فيهم: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

وصاحبُ هذا المشهدِ متى تبصَّرَ فيه، وأعطاه حقَّه، صار مِن أطبَّاء القلوبِ العالِمِينَ بدائِها ودَوائِها، فنفعه الله في نفْسِه، ونفع به مَن شاء مِن خَلْقِه.

٧ـ **مشهد الرحمة**؛ فإنَّ العبدَ إذا وقع في الذَّنب خرج مِن قلبه تلك الغِلظةُ والقسوة، والكيفيَّةُ الغَضَبيَّةُ التي كانت عنده لمن صَدَرَ منه ذَنْبٌ، حتى لو قَدَرَ عليه لأهلكه، وربَّما دعا اللهَ عليه أنْ يُهلِكَه ويأخذَه، غضبًا منه لله، وحِرصًا على أنْ لا يُعْصى، فلا يجدُ في قلبه رحمةً للمُذنبِينَ الخطّائين، ولا يراهم إلا بِعَيْنِ الاحتِقارِ والازدِراءِ، ولا يَذْكُرُهم إلا بلسان الطَّعْنِ فيهم، والعَيْبِ لهم والذَّمِّ، فإذا جَرَتْ عليه المقاديرُ وخُلِّي ونفسَه استغاثَ باللهِ والتَجأ إليه، وتَمَلْمَلَ بين يديه تَمَلْمُلَ السَّلِيم، ودعاه دُعاءَ المُضطَرِّ، فتَبَدَّلَت تلك الغِلظةُ على المذنِبينَ رِقَّةً، وتلك القَساوةُ على الخَطَّائِينَ رحمةً ولِينًا، مع قيامِه بحدودِ الله، وتبدَّلَ دُعاؤُه عليهم دُعاءً لهم، وجَعَل لهم وظيفةً من عُمُره، يسألُ اللهَ فيها أنْ يغفرَ لهم، فما أنفعَه له مِن مشهد! وما أعظمَ جَدْواه عليه!

٨ـ **مشهد العجز والضعف**، وأنَّه أعجَزُ شيء عن حِفْظ نفسه وأضعفُ، وأنَّه لا قوَّة له ولا قدرة ولا حولَ إلا بربِّه، فيشهد قلبَه كريشة مُلْقاةٍ بأرضِ فَلاةٍ تُسيِّرُها الرياح يمينًا وشمالًا، ويشهد نفسَه كراكبِ سفينةٍ في البحر تَهِيجُ بها الرياح، وتتلاعب بها الأمواج، ترفعها تارة، وتَخفِضُها أخرى، تجري عليه أحكامُ القَدَر، وهو كالآلة طَرِيحًا بين يديْ وليِّه، مُلْقًى ببابه، واضعًا خدَّه على ثَرى أعتابه، لا يَملكُ لنفسه ضَرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نُشورًا، ليس له مِن نفسه إلا الجهلُ والظُّلم،

وآثارُهما ومقتضياتُهما، فالهلاكُ أدنى إليه مِن شِراك نَعلِه، كشاةٍ مُلْقاةٍ بين الذِّئاب والسِّباع، لا يَرُدُّهم عنها إلا الرَّاعي، فلو تخلَّى عنها طرْفةَ عينٍ لتقاسموها أعضاءً.

وهكذا حالُ العبدِ مُلْقًى بين الله وبين أعدائِه؛ مِن شياطينِ الإنسِ والجنِّ، فإنْ حَماهُ منهم وكفَّهم عنه لم يَجدوا إليه سبيلًا، وإن تخلَّى عنه، ووَكَلَه إلى نفسه طرفةَ عينٍ لم يَنقَسِم عليهم، بل هو نصيبُ مَن ظَفِر به منهم.

والمقصود أنَّ في هذا المشهدِ يَعرِفُ العبدُ أنَّه عاجزٌ ضعيف، فتَزولُ عنه رُعوناتُ الدَّعاوَى، والإضافات إلى نفسه، ويعلم أنَّه ليس له مِن الأمرِ شيء، وليس بيده شيء، إنْ هو إلَّا مَحْضُ الفقر والعجزِ والضَّعف.

٩ـ **مشهد الذُّلِّ، والانكسار، والخضوع، والافتقارِ للرَّبِّ ﷻ**، فيشهد في كل ذَرَّةٍ من ذَرَّاتِه الباطنة والظَّاهرة ضرورةً تامَّةً، وافتقارًا تامًّا إلى ربِّه وَوَلِيِّه، ومَن بيده صلاحُه وفلاحه، وهُداه وسعادتُه، وهذه الحال التي تحصُل لقلبه لا تَنالُ العبارةُ حقيقتَها، وإنَّما تدرَك بالحصول، فيحصُل لقلبِه كَسْرةٌ خاصَّة لا يُشْبِهُها شيء، بحيث يرى نفسه كالإناء المَرْضُوض تحت الأرجُل، الذي لا شيء فيه، ولا به ولا منه، ولا فيه منفعة، ولا يُرغَب في مثله، وأنه لا يصلُح للانتفاع إلا بِجَبرٍ جديدٍ مِن صانِعه وقَيِّمِه، فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما مِنْ رَبِّه إليه مِن الخيرِ، ويرى أنه لا يَستحِقُّ منه قليلًا ولا كثيرًا، فأيُّ خيرٍ نالَه من الله تعالى استكثرَه على نفسه، وعلِم أنَّ قَدْرَه دُونَه، وأنَّ رحمةَ ربِّه اقتضت ذِكْرَه به، وسياقتَه إليه، واستَقَلَّ ما مِن

نفسه مِن الطاعات لربِّه، ورآها- ولو ساوَتْ طاعاتِ الثَّقلَيْن- مِن أقلِّ ما ينبغي لربِّه عليه، واستكثر قليلَ معاصيه وذنوبِه، فإنَّ الكَسْرة التي حصلت لقلبه أوجبَتْ له هذا كلَّه.

فما أقرب الجبرَ مِن هذا القلب المكسورِ! وما أدنى النَّصرَ والرحمة والرِّزقَ منه! وما أنفعَ هذا المشهدَ له وأجْداه عليه! وذَرَّةٌ مِن هذا ونَفَسٌ منه أحبُّ إلى الله من طاعاتِ أمثال الجبال من المُدِلِّينَ المُعجَبينَ بأعمالهم وعلومِهم وأحوالهم، وأحبُّ القلوب إلى الله سبحانه قلبٌ قد تمكَّنت منه هذه الكَسْرة، ومَلَكَتْه هذه الذِّلَّة، فهو ناكِسُ الرأس بين يديْ ربِّه، لا يرفع رأسه إليه حياءً وخجلًا من الله تعالى.

قيل لبعضِ العارِفينَ: أيَسجدُ القلبُ؟ قال: نعم، يسجدُ سجدةً لا يرفعُ رأسَه منها إلى يوم اللِّقاء، فهذا سجود القلب.

فقلبٌ لا تباشرُه هذه الكَسْرةُ فهو غيرُ ساجدٍ السجودَ المراد منه، وإذا سجدَ القلبُ لله هذه السجدةَ العُظْمى سجدَتْ معه جميعُ الجوارح، وعَنَا الوجهُ حينئذ للحَيِّ القَيُّوم، وخَشَعَ الصَّوتُ والجوارحُ كلُّها، وذَلَّ العبدُ وخَضَعَ واستكان، ووضَعَ خدَّه على عتبة العبوديَّة، ناظرًا بقلْبه إلى ربِّه ووَلِيِّه نَظَرَ الذَّليلِ إلى العزيز الرَّحيم، فلا يُرى إلَّا مُتملِّقًا لربِّه، خاضِعًا له، ذليلًا مستكينًا مُستعطِفًا له، يسأله عَطْفَه ورحمَتَه، فهو يَترضَّى ربَّه كما يترضَّى المُحِبُّ الكامل المحبَّةِ محبوبَه المالكَ له، الذي لا غِنى له عنه، ولا بد له منه، فليس له همٌّ غير استرضائه واستعطافه؛ لأنَّه لا حياة له ولا فلاح إلا في قُرْبِه ورضاه عنه،

ومحبَّتِه له، يقول: كيف أُغضِب مَن حياتي في رضاه؟ وكيف أعْدِلُ عمَّن سعادتي وفلاحي وفَوْزي في قُرْبه وحُبِّه وذِكْرِه؟

وصاحبُ هذا المشهد: يشهد نفسَه كرجُلٍ كان في كَنَفِ أبيه يَغْذُوه بأطيبِ الطَّعام والشَّراب واللِّباس، ويُزَيِّنه أحسنَ الزِّينة، ويُرَقِّيه درجاتِ الكمالِ أتَمَّ ترقية، وهو القَيِّمُ بمصالحِه كلِّها، فبعثَه أبوه في حاجة له، فخرَج عليه في طريقه عدُوٌّ، فأسَرَه وكتَّفَه وشَدَّه وَثاقًا، ثم ذهب به إلى بلاد الأعداء فسامَه سُوءَ العذاب، وعامَلَه بِضِدِّ ما كان أبوه يعامله به، فهو يتذكَّر تربيةَ والده وإحسانه إليه الفَيْنَةَ بعد الفَينة، فتَهِيج من قلبه لَواعِجُ الحسرات كلَّما رأى حالَه وتذكَّر ما كان عليه وكلَّ ما كان فيه، فبيْنا هو في أسْرِ عدوِّه يَسومُه سوءَ العذابِ، ويريد نَحْرَه في آخر الأمر، إذ حانت منه التفاتةٌ إلى نحو دِيارِ أبيه، فرأى أباه منه قريبًا، فسعى إليه، وألقى نفسَه عليه، وانطَرَحَ بين يديه، يستغيثُ: يا أبتاه، يا أبتاه! انظر إلى ولدك وما هو فيه، ودموعُه تَستَبِقُ على خَدَّيْه، قد اعتنقه والتزمه، وعدوُّه في طلبِه، حتى وقف على رأسه، وهو مُلتزِمٌ لوالده مُمسِكٌ له، فهل تقول: إنَّ والدَه يُسْلِمُه مع هذه الحالِ إلى عدُوِّه ويُخَلِّي بينه وبينه؟! فما الظَّنُّ بمن هو أرحمُ بعبده مِن الوالد بولده، والوالدةِ بولدِها إذا فَرَّ إليه، وهرَب من عدوِّه إليه، وألقى نفسه طريحًا ببابه، يُمَرِّغ خدَّه في ثرى أعتابه باكيًا بين يديه، يقول: يا ربِّ، يا ربِّ، ارحم مَن لا راحِمَ له سواك، ولا وليَّ له سواك، ولا ناصر له سواك، ولا مُؤْوِي له سواك، ولا مُغيث له سواك، مِسْكينُك وفقيرك، وسائلك ومؤمِّلُك ومُرْتَجيك، لا ملجأ له ولا مَنْجى له منك إلا إليك، أنت ملاذُه، وبك مَعاذُه.

يا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فيما أُؤَمِّلُهُ
ومَنْ أعُوذُ بِهِ مِمَّا أُحاذِرُهُ

لا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أنتَ كاسِرُهُ
ولا يَهِيضُونَ عَظْمًا أنتَ جابِرُهُ

١٠ - **مشهد العبودية والمحبَّة**، والشَّوق إلى لقائه، والابتهاج به، والفرح والسُّرور به، فتَقَرُّ به عينه، ويسكن إليه قلبه، وتطمئن إليه جوارحه، ويستولي ذِكرُه على لسان مُحِبِّه وقلبِه، فتصيرُ خَطَراتُ المحبَّة مكانَ خَطَراتِ المعصية، وإرادةُ التقرُّب إليه ومرضاته مكانَ إرادةِ معاصيه ومَساخِطِه، وحركات اللِّسان والجوارح بالطاعات مكانَ حركاتها بالمعاصي، وقد امتلأ قلبُه من مَحبَّتِه، ولَهِجَ لسانُه بِذِكره، وانقادَت الجوارحُ لطاعته، فإن هذه الكَسرةَ الخاصَّة لها تأثيرٌ عجيب في المحبَّة لا يُعبَّر عنه.

وكان شيخُ الإسلامِ ابن تيميَّة رحمه الله يقول: «مَن أراد السعادة الأبديَّة، فليلزَمْ عَتَبَةَ العُبوديَّة».

والقصد: أنَّ هذه الذِّلَّة والكَسرة الخاصَّة تُدخِلُه على الله، وتَرْمِيه على طريق المحبَّة، فيُفتح له منها باب لا يُفتح له من غير هذه الطريق، وإن كانت طُرُق سائر الأعمال والطاعات تَفتح للعبد أبوابًا من المحبَّة، ولكن الذي يُفتح منها من طريق الذُّلِّ والانكسار، والافتقار وازدراء النفس، ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنَّقصِ والذَّم، بحيث يشاهدها ضَيْعَةً وعجزًا، وتفريطًا وذنبًا وخطيئةً: نوعٌ آخر وفتح آخر، والسالك بهذا الطريق

غريبٌ في الناس، وهم في وادٍ وهو في وادٍ، وهي تسمَّى طريقة الطَّير، يسبق النائمُ فيها على فراشه السُّعاةَ، فيصبح وقد قطع الرَّكْبَ، بيْنا هو يحدِّثُك وإذا به قد سَبَقَ الطرف وفاتَ السُّعاةَ، فالله المستعان، وهو خير الغافرين.

وهذا الذي حصل له مِن آثار محبَّةِ الله له، وفرحِه بِتوبة عبدِه، فإنَّه سبحانه يُحبُّ التَّوَّابينَ، ويَفرحُ بتوبتهم أعظمَ فَرَحٍ وأكملَه.

فكلَّما طالَعَ العبدُ مِنَنَه سبحانه عليه قبل الذَّنب، وفي حال مُواقَعةِ الذَّنبِ، وبعد الذَّنبِ، وبِرَّه به، وحِلْمَه عنه، وإحسانَه إليه، هاجت مِن قَلبِه لَواعِجُ محبَّتِه والشَّوقِ إلى لقائه، فإنَّ القلوب مجبولة على حب مَن أحسَنَ إليها، وأيُّ إحسان أعظم مِن إحسانِ مَن يبارِزُه العبدُ بالمعاصي، وهو يَمُدُّه بنِعَمِه، ويعامله بألطافه، ويُسْبِلُ عليه سَتْرَه، ويحفظه من خَطَفات أعدائه المُترقِّبِينَ له أدنى عَثْرةٍ؛ ينالون منه بها بُغْيتَهم، ويردُّهم عنه، ويَحولُ بينهم وبينه، وهو في ذلك كله بِعَيْنِه يراه ويَطَّلِعُ عليه.

منزلــة الإنــابة

فإذا استقرَّت قَدَمُه في منزل التَّوبة نزل بَعدَه منزلَ الإنابة، وقد أمَر به تعالى في كتابه، وأثنى على خليله بها، فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[هود: ٧٥]، وأخبر أنَّ ثوابَه وجنَّتَه لأهل الخشيةِ والإنابة، فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ [ق: ٣١-٣٤].

والإنابة إنابتان: إنابة لرُبوبيَّتِه، وهي إنابة المخلوقاتِ كلِّها، يَشترِكُ فيها المؤمن والكافر، والبَرُّ والفاجر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]، **والإنابة الثانية**: إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلهيَّتِه، إنابة عبودية ومحبَّة.

وهي تتضمَّن أربعةَ أمور: محبَّته، والخضوعَ له، والإقبالَ عليه، والإعراضَ عمَّا سِواه، فلا يستحقُّ اسمَ المُنيب إلَّا مَن اجتمعتْ فيه هذه الأربعة، وتفسيرُ السَّلفِ لهذه اللفظة يدور على ذلك.

وفي اللَّفظة معنى الإسراعِ والرجوعِ والتقدُّم، فـ(المُنيب) إلى الله: المُسرِع إلى مَرْضاتِه، الراجع إليه كلَّ وقت، المتقدِّم إلى مَحابِّه.

علامات صدق الإنابة:

إذا صَفَتْ له الإنابةُ إلى ربِّه تَخلَّص من الفكرة في لَذَّة الذَّنب، وأعاد مكانَها ألمًا وتوجُّعًا لذِكْرِه، والفكرة فيه، فما دامت لذَّةُ الفِكْر فيه موجودةً في قلبه فإنابتُه غيرُ صافية.

فإن قيل: أيُّ الحالَيْنِ أعلى؟ حالُ مَن يجد لذَّةَ الذَّنبِ في قلبه فهو يجاهدها لله، ويتركها مِن خوفه ومحبَّتِه وإجلالِه، أو حالُ مَن ماتت لذَّة الذَّنب في قلبه، وصار مكانها ألمًا وتوجُّعًا وطمأنينة إلى رَبِّه، وسكونًا إليه، والتِذاذًا بحُبِّه، وتنعُّمًا بذِكره؟

قيل: حالُ هذا أرفعُ وأكمل، وغايةُ صاحبِ المجاهَدة: أنْ يجاهِدَ نفسَه حتى يصلَ إلى مقامِ هذا ومنزلته، ولكنَّه تالِيهِ في المنزلةِ والقُرْب، ومَنُوطٌ به.

فإن قيل: فأين أجْرُ مجاهدةِ صاحبِ اللَّذَّة، وتَرْكِه محَابِّه لله، وإيثارِه رضا الله على هواه، وبهذا كان النوع الإنساني أفضلَ من النوع المَلَكيِّ عند أهل السُّنَّة، وكانوا خير البَرِيَّة، والمطمئِنُّ قد استراح مِن هذه المجاهدة وعُوفيَ منها، فبينهما من التفاوت ما بين درجة المعافَى والمبتلَى.

قيل: **النَّفس لها ثلاثةُ أحوال**: الأمرُ بالذَّنب، ثم اللَّوْم عليه والنَّدم منه، ثم الطمأنينة إلى ربِّها والإقبالُ بكلِّيَّتِها عليه، وهذه الحالُ أعلى أحوالها، وأرفعها، وهي التي يُشَمِّر إليها المجاهِد، وما يحصل له من ثواب مجاهدتِه وصَبرِه فهو لتَشْميرِه إلى درجة الطمأنينةِ إلى الله، فهو بمنزلة راكبِ القِفار والمهامِهِ[1] والأهوالِ لِيَصِلَ إلى البيت فيطمئن قلبُه برؤيته والطوافِ به.

والآخرُ بمنزلةِ مَن هو مشغولٌ به طائفًا وقائمًا، وراكعًا وساجدًا، ليس له التفاتٌ إلى غيره، فهذا مشغولٌ بالغاية، وذاك بالوسيلة، وكلٌّ له أجرٌ، ولكن بيْن أجْرِ الغاياتِ وأجْرِ الوسائل بَوْنٌ.

(١) أي: المفاوز البعيدة.

وما يحصل للمطمئنِّ من الأحوال والعبوديَّة والإيمان فوق ما يحصل لهذا المجاهِدِ نفسَه في ذاتِ الله تعالى -وإن كان أكثرَ عملًا- فقَدْرُ عملِ المطمئنِّ المُنيبِ بجملتِه وكيفيَّتِه أعظمُ، وإن كان هذا المجاهِدُ أكثرَ عملًا، وذلك فضلُ الله يؤتيه مَن يشاء، فما سَبَق الصِّدِّيقُ الصحابةَ بكثرة عملٍ، وفيهم مَن هو أكثر صيامًا وحَجًّا وقراءةً وصلاةً منه، ولكن بأمرٍ آخَرَ قامَ بقلبه، حتى إنَّ أفضلَ الصحابة كان يسابِقُه ولا يراه إلا أمامه.

ولكن عبوديَّة مجاهِدِ نفسِه على لَذَّة الذَّنب والشهوة قد تكونُ أشقَّ، ولا يلزم من مشقَّتِها تفضيلُها في الدرجة، فأفضلُ الأعمالِ الإيمان بالله، والجهادُ أشقُّ منه وهو تالِيهِ في الدَّرجة .

وِمن علامات الإنابة: تركُ الاستهانة بأهل الغفلة، والخوفُ عليهم، مع فتحك بابَ الرجاء لنفسك، فترجو لنفسك الرحمة، وتخشى على أهل الغفلة النِّقمة، ولكن ارجُ لهم الرحمة، واخشَ على نفسك النقمة، فإن كنت لا بد مستهينًا بهم ماقتًا لهم، لانكشاف أحوالهم لك، ورؤيةِ ما هُم عليه، فكن لنفسك أشدَّ مقتًا منك لهم، وكن أرجى لرحمة الله منك لنفسك.

قال بعض السلف: «لن تَفقَهَ كلَّ الفِقهِ حتَّى تَمقُتَ الخَلْقَ في ذات الله، ثمَّ تُقْبِل على نفْسِكَ فتكون لها أَشَدَّ مَقْتًا».

[ومنها] : التفتيش عما [يشوب الأعمال] من حظوظ النفس، وتمييزُ حقِّ الربِّ منها مِن حظ النفس، ولعل أكثرها أو كلَّها أن تكون حظًّا لنفسك وأنت لا تشعر.

فلا إله إلا اللهُ، كم في النفوس مِن عِلَلٍ وأغراض، وحظوظٍ تمنع الأعمالَ أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه؟ وإنَّ العبد ليَعمَلُ العمل حيث لا يراه بشرٌ البَتَّة، وهو غير خالص لله، ويعمل العملَ والعيون قد استدارت عليه نطاقًا، وهو خالص لوجه الله، ولا يميِّزُ هذا من هذا إلا أهلُ البصائر، وأطبَّاءُ القلوب العالِمون بأدوائها وعِلَلِها.

فبين العمل وبيْن القلب مسافة، وفي تلك المسافة قُطَّاع تمنع وصول العمل إلى القلب، فيكون الرجل كثيرَ العمل، وما وصَل منه إلى قلبه محبَّةٌ ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا ولا رغبةٌ في الآخِرة، ولا نور يُفَرِّق به بين أولياء الله وأعدائه، وبين الحق والباطل، ولا قوَّةٌ في أمره؛ فلو وصل أثرُ الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق، ورأى الحق والباطل، وميَّز بين أولياء الله وأعدائِه، وأوجب له ذلك المزيدَ من الأحوال.

ثم بين القلب وبيْن الرب مسافة، وعليها قُطَّاع تمنع وصول العمل إليه، مِن كِبْرٍ وإعجاب وإدلال، ورؤية العمل، ونسيانِ المِنَّة، وعِلَلٍ خفية لو استقصى في طلبها لرأى العجب، ومن رحمة الله تعالى سترُها على أكثر العمَّال؛ إذْ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها، من اليأس والقنوط والاستحسار، وتركِ العمل، وخمود العزم، وفُتورِ الهمَّة.

منزلة التذكّر

ثم يَنزِل القلبُ منزلةَ التذكُّر، وهو قرين الإنابة؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر:١٣].

وهو مِن خَواصِّ أُولي الألباب؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد:١٩].

والتذكُّر والتفكُّر منزلان يُثمران أنواعَ المعارف، وحقائقَ الإيمانِ والإحسان، فالعارف لا يزال يعود بتفكُّره على تذكُّره، وبتذكُّره على تفكُّره، حتى يفتحَ قُفل قلبه بإذن الفتاح العليم.

قال الحسن البصري رحمه الله: «ما زال أهلُ العلمِ يعودون بالتذكُّر على التفكُّر، وبالتفكُّر على التذكُّر، ويُناطِقون القلوبَ حتى نطقت».

فمنزلة التذكُّر من التفكُّر منزلةُ حصول الشيء المطلوب بعد التفتيش عليه، ولهذا كانت آياتُ الله المتلوَّةُ والمشهودةُ ذِكرى؛ كما قال في المتلوَّة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [غافر:٥٣-٥٤]، وقال تعالى في آياته المشهودة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٦-٣٧].

والناس ثلاثةٌ: رجلٌ قلبُه ميت، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآيةُ ذِكرى في حقِّه.

الثاني: رجلٌ له قلب حَيٌّ مستعدٌّ، لكنه غيرُ مستمع للآيات المتلُوَّة، التي يُخبر بها الله عن الآيات المشهودة؛ إمَّا لعدم ورودِها، أو لوصولها إليه ولكن قلبه مشغولٌ عنها بغيرها، فهو غائب القلب، ليس حاضرًا، فهذا أيضًا لا تحصُلُ له الذِّكرى، مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث: رجلٌ حَيُّ القلب مستعدٌّ، تُليَتْ عليه الآياتُ، فأصغى بسمعه، وأحضَر قلبه، ولم يَشغَلْه بغير فَهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، مُلقٍ السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلُوَّة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يُبصر.

والثاني: بمنزلة البصير الطامِحِ ببصره إلى غير جهة المنظور إليه. فكِلاهما لا يراه.

والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حَدَّق إلى جهة المنظور إليه، وأَتْبَعه بصرَه، وقابلَه على توسُّط من البُعد والقرب، فهذا هو الذي يراه.

فسبحان مَن جَعل كلامه شفاءً لِما في الصدور!

وسائل اكتساب ثمرة التفكر:

قال[الهروي ﵀]: «وإنَّما تُجتَنى ثمرةُ الفِكرةِ بثلاثةِ أشياءَ: بِقِصَرِ الأَمَلِ، والتَّأمُّلِ في القُرآنِ، وقِلَّةِ الخُلْطَة والتَّمنِّي والتَّعلُّقِ بغَيرِ اللهِ والشِّبَعِ والمَنامِ».

فأمَّا قِصَرُ الأمل: فهو العِلم بقُرب الرحيل، وسرعةِ انقضاء مدَّة الحياة،

وهو من أنفع الأمور للقلب؛ فإنه يبعثه على مغافصة الأيام[1]، وانتهاز الفرص التي تمرُّ مَرَّ السحاب، ومبادرة طَيِّ صحائف الأعمال، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويَحُثُّه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط، ويزهِّده في الدنيا، ويرغِّبه في الآخرة؛ فيقوم بقلبه -إذا داوم مطالعة قصر الأمل- شاهدٌ من شواهد اليقين، يُريه فناءَ الدنيا، وسرعةَ انقضائها، وقلَّة ما بقيَ منها، وأنها قد ترحَّلَتْ مُدْبِرةً، ولم يبقَ منها إلا صُبابةٌ كصبابة الإناء يَتصابُّها صاحبُها، وأنها لم يبق منها إلا كما بقيَ من يوم صارت شمسُه على رؤوس الجبال.

ويُريه بقاءَ الآخرة ودوامَها، وأنها قد ترحَّلت مُقْبِلةً، وقد جاء أشراطها وأعلامُها، وأنه مِن لقائها كمسافر خرج صاحبٌ له يتلَقَّاه، فكلٌّ منهما يسير إلى الآخَر، فيوشك أن يلتقيا سريعًا.

ويكفي في قِصَر الأمل قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥- ٢٠٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٤٥]، وخَطَبَ النبيُّ ﷺ يومًا أصحابه والشمسُ على رؤوس الجبال، فقال: «**إنَّه لمْ يَبقَ مِنَ الدُّنْيا فيما مَضى منها إلَّا كما بَقيَ مِن يَومِكُم هذا فيما مَضى منه**»[2].

وقِصَرُ الأمل بِناؤه على أمرين: تيقُّن زوالِ الدنيا ومفارقتِها، وتيقُّن لقاءِ الآخرة وبقائِها ودوامها، ثم يُقايِسُ بين الأمرين ويؤْثِر أولاهما بالإيثار.

---

(١) الأخذ على غرة، والمراد مسابقتها وانتهاز فرص الطاعات.

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٩١)، وقال: حديث حسن.

وأمّا التأمُّل في القرآن: فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمْعُ الفِكْر على تدبُّره وتعقُّلِه، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرَّد تلاوته بلا تفهُّمٍ ولا تدبُّر.

قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، فليس شيءٌ أنفعَ للعبد في معاشه ومعادِه، وأقربَ إلى نجاته، مِن تدبُّر القرآن، وإطالةِ التأمُّل فيه، وجمْعِ الفِكْر على معاني آياته؛ فإنها تُطلِع العبدَ على معالم الخير والشرِّ بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابِهما، وغاياتِهما وثمراتهما، وتُثبِّت قواعدَ الإيمان في قلبه، وتُشيِّد بنيانه، وتُوطِّدُ أركانَه، وتُريه صورة الدُّنيا والآخرة، والجنَّةِ والنار في قلبه، وتُحضِرُه بين الأمم، وتريه أيَّامَ الله فيهم، وتُبصِّره مواقعَ العِبَر، وتُشهِدُه عدلَ الله وفضْلَه، وتُعرِّفُه ذاته وأسماءَه وصفاتِه وأفعالَه، وما يُحِبُّه وما يُبغضه، وصراطَه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطعَ الطريق وآفاتِها، وتُعرِّفه النَّفْسَ وصفاتِها، ومفسداتِ الأعمال ومصحِّحاتِها، وتعرِّفه طريقَ أهل الجنَّةِ وأهلِ النار وأعمالَهم، وأحوالهم، وسِيماهم، ومراتبَ أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسامَ الخلْق واجتماعَهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقَهم فيما يفترِقون فيه.

وبالجملة: تُعرِّفه الربَّ المدعوَ إليه، وطريقَ الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قَدِم عليه.

وتُعرِّفه في مقابل ذلك ثلاثةً أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلةَ إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذابِ بعد الوصول إليه.

فهذه ستَّةُ أمور ضروريةٌ للعبد معرفتها، ومشاهدتها ومطالعتها، فتُشهده

الآخرة حتى كأنه فيها، وتُغيِّبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتُميِّز له بين الحق والباطلِ في كل ما اختَلف فيه العالَم، فتُريه الحق حقًّا، والباطلَ باطلًا، وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرِّق به بين الهدى والضلال، والغَيِّ والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه، وحياةً وسَعَةً وانشراحًا، وبهجة وسرورًا؛ فيصير في شأن والناسُ في شأنٍ آخَرَ.

فلا تزالُ معانيه تُنهض العبدَ إلى ربِّه بالوعد الجميل، وتحذِّره وتخوِّفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتَحُثُّه على التَّضمُّرِ والتَّخفُّفِ للِقاء اليوم الثَّقيل، وتَهديه في ظُلَم الآراء والمذاهبِ إلى سواء السَّبيل، وتصُدُّه عن اقتحام طُرُقِ البِدَع والأضاليل، وتَبعثُه على الازدياد مِن النِّعَم بشكر ربِّه الجليل، وتُبصِّره بحدود الحلال والحرام، وتَقِفُه عليها؛ لئلَّا يتعدَّاها فيقعَ في العناء الطَّويل.

وتُثبِّت قلبه عن الزَّيغ والمَيلِ عن الحقِّ والتَّحويل، وتُسهِّل عليه الأمورَ الصِّعابَ والعقباتِ الشَّاقَّةَ غايةَ التَّسهيل، وتناديه كلَّما فترتْ عزَماتُه وونى في سَيرِه: تقدَّمَ الركبُ وفاتَك الدَّليل، فاللَّحاقَ اللَّحاقَ، والرَّحيلَ الرَّحيلَ.

وتَحْدو به وتسير أمامه سَيْرَ الدَّليل، وكلَّما خرج عليه كمينٌ من كمائن العدوِّ، أو قاطعٌ من قُطَّاع الطَّريق نادتْه: الحذرَ الحذرَ! فاعتصِم بالله، واستعن به، وقل: حسبي الله ونِعْمَ الوكيل.

وأمَّا مفسداتُ القلب الخمسةُ فهي الَّتي أشار إليها: من كثرة الخلطة، والتَّمنِّي، والتَّعلُّق بغير الله، والشِّبَع، والمنام.

فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب.

[و] اعلم أنَّ القلب يسيرُ إلى الله والدَّارِ الآخرة، ويكشف عن طريق الحقِّ ونَهْجِه، وآفات النفس والعمل، وقطَّاع الطريق، بنوره وحياته وقوَّتِه، وصِحَّتِه وعزمه، وسلامةِ سمعِه وبصره، وغَيبةِ الشَّواغل والقواطع عنه.

وهذه الخمسة تُطفئ نورَه، وتغور عين بصيرته، وتُثقل سمعه، إنْ لم تُصِمه وتُبْكِمه وتُضعِف قُواه كلَّها، وتوهن صحَّتَه، وتُفَتِّرُ عزيمته، وتوقف همَّتَه، وتنكسه إلى ورائه، ومَن لا شعور له بهذا فميت القلب:

وما لِجُرحٍ بمَيِّتٍ إيلامُ.

فهي عائقةٌ له عن نَيلِ كماله، قاطعةٌ له عن الوصول إلى ما خُلِق له، وجُعِل نعيمُه وسعادته وابتهاجُه ولذَّتُه في الوصول إليه؛ فإنَّه لا نعيم له ولا لَذَّةَ، ولا ابتهاج، ولا كمالَ، إلا بمعرفة الله ومحبَّتِه، والطمأنينةِ بذِكره، والفرحِ والابتهاج بقُربه، والشَّوقِ إلى لقائه؛ فهذه جنَّتُه العاجلة، كما أنَّه لا نعيم له في الآخرة، ولا فوزَ إلا بجواره في دار النَّعيمِ في الجنَّة الآجلة، فله جنَّتان، لا يَدخُلُ الثانيةَ منهما إن لم يدخلِ الأُولى.

وسمِعتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ ﷺ يقول: «إنَّ في الدنيا جنةً مَن لم يَدخُلْها لم يدخل جنَّةَ الآخرة».

وقال بعض العارفين: «إنه ليَمُرُّ بالقلب أوقات أقول: إن كان أهلُ الجنَّةِ في مِثل هذا، إنَّهم لفي عيشٍ طيِّب».

وقال بعض المحبِّين: «مساكينُ أهل الدنيا، خرَجوا من الدُّنيا وما ذاقوا

أطيبَ ما فيها، قالوا: وما أطيبُ ما فيها؟ قال: محَبَّةُ الله، والأُنسُ به، والشَّوقُ إلى لقائه، والإقبالُ عليه، والإعراض عمَّا سِواه»، أو نحو هذا من الكلام. وكلُّ مَن له قلب حَيٌّ يَشهَد هذا ويَعرِفه ذوقًا.

وهذه الأشياء الخمسة: قاطعةٌ عن هذا، حائلةٌ بين القلب وبيْنه، عائقةٌ له عن سَيره، مُحدِثةٌ له أمراضًا وعللًا إنْ لم يتداركْها المريضُ خِيفَ عليه منها.

فأمَّا ما تؤَثِّره كثرةُ الخلطة: فامتلاء القلب من دُخَان أنفاس بني آدمَ حتى يَسْودَّ، ويوجب له تشتتًا وتفرُّقًا، وهمًّا وغمًّا، وضَعفًا، وحَمْلًا لِما يَعجِز عن حمله من مؤنة قُرناء السُّوء، وإضاعةِ مصالحِه، والاشتغال عنها بِهِم وبأمورهم، وتقسيم فِكره في أودية مطالبهم وإراداتهم؛ فماذا يبقى منه لله والدَّارِ الآخرة؟!

هذا، وكم جلبتْ خلطةُ الناس من نِقمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من محنة، وعطَّلتْ من مِنحة، وأحلَّت من رَزيَّة، وأوقعت في بلية؟!

وهل آفةُ النَّاسِ إلَّا الناسُ؟ وهل كان علَى أبي طالب عند الوفاة أضرُّ من قُرناء السُّوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدةٍ توجِب له سعادةَ الأبد.

وهذه الخلطة الَّتي تكون على نوع مودَّةٍ في الدنيا، وقضاءِ وَطَرِ بعضِهم من بعض، تنقلب -إذا حَقَّتِ الحقائق- عداوةً، يَعَضُّ المخالِطُ عليها يديه ندمًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ

﴿لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزُّخرُف:٦٧].

والضَّابط النَّافعُ في أمْر الخلطة: أن يخالط النَّاسَ في الخير -كالجمعة والجماعات، والأعيادِ والحجِّ، وتعليم العِلم، والجهادِ، والنَّصيحة- ويَعتزلَهم في الشَّرِّ، وفضولِ المباحات، فإذا دعتِ الحاجة إلى خُلطتِهم في الشَّرِّ، ولم يُمكِنْه اعتزالُهم فالحذرَ الحذرَ أن يُوافِقَهم، ولْيَصبِرْ على أذاهم، فإنَّهم لا بدَّ أن يؤذوه إن لم يكن له قوَّةٌ ولا ناصر، ولكن أذًى يَعقُبه عِزٌّ ومحبةٌ له وتعظيم، وثناءٌ عليه منهم ومن المؤمنين، ومن ربِّ العالَمين، وموافقتُهم يعقبها ذُلٌّ وبغضٌ له، ومَقْتٌ، وذمٌّ منهم ومن المؤمنين، ومِن ربِّ العالَمين.

فالصَّبرُ على أذاهُم خيرٌ وأحسَنُ عاقبةً، وأحمدُ مآلًا، وإن دعتِ الحاجةُ إلى خُلطتِهم في فضول المباحات، فليجتهِدْ أن يَقلِب ذلك المجلسَ طاعةً لله إن أمكنه، ويُشجِّع نفْسَه ويقوِّي قلبه، ولا يَلتفِتْ إلى الوارد الشَّيطانيِّ القاطعِ له عن ذلك، بأنَّ هذا رياءٌ ومحبةٌ لإظهار عِلمك وحالك، ونحو ذلك، فليُحارِبه، وليستعنْ بالله، ويؤثِّر فيهم من الخير ما أمكنه.

فإن عجَّزتْه المقاديرُ عن ذلك، فلْيَسُلَّ قلبه من بينهم كسَلِّ الشَّعَرةِ من العجين، وليكنْ فيهم حاضرًا غائبًا، قريبًا بعيدًا، نائمًا يقظانًا؛ يَنظر إليهم ولا يُبصِرهم، ويسمع كلامهم ولا يَعيه؛ لأنَّه قد أخذ قلبَه مِن بيْنهم، ورَقَى به إلى الملأِ الأعلى، يسبح حولَ العرش مع الأرواح العُلْويَّةِ الزَّكيَّة.

وما أصعبَ هذا وأشقَّه على النُّفوس! وإنَّه لَيسيرٌ على مَن يسَّره الله عليه؛ فبيْنَ العبد وبينَه أنْ يَصدُقَ اللهَ، ويُديمَ اللجأ إليه، ويُلقي نفْسَه على بابه طريحًا ذليلًا، ولا يعين على هذا إلا المَحبَّةُ الصادقة، والذِّكرُ الدائم بالقلب واللِّسان، وتجنُّبُ المفسدات الأربعِ الباقيةِ الآتي ذِكرُها، ولا ينال هذا إلا بعُدَّةٍ صالحة، ومادَّةِ قوة من الله، وعزيمةٍ صادقة، وفراغٍ من التعلُّق بغير الله.

المفسد الثَّاني من مفسدات القلب: ركوبُه بحرَ التَّمنِّي: وهو بحرٌ لا ساحل له، وهو البحر الَّذي يركبه مفاليسُ العالَم، كما قيل: إنَّ المُنى رأسُ أموال المفاليس، وبضاعةُ رُكَّابه مواعيدُ الشياطين، وخيالات المحال والبهتان، فلا تزال أمواجُ الأماني الكاذبة، والخيالاتِ الباطلة، تتلاعب براكبِه كما يُتلاعَب بالجيفة، وهي بضاعةُ كلِّ نفسٍ مَهينةٍ خَسيسة سُفْليَّة، ليست لها هِمَّةٌ تَنال بها الحقائقَ الخارجية، فاعتاضت عنها بالأماني الذِّهنية، فيُمثِّل المُتمنِّي صورةً مطلوبةً في نفْسه وقد فاز بوصولها، والتَذَّ بالظَّفَر بها، فبيْنا هو على هذه الحال إذ استيقظ فإذا يدُه والحصير.

وصاحب الهمَّةِ العَليَّةِ أمانيه حائمةٌ حول العلم والإيمان، والعملِ الذي يقرِّبه من ربِّه، ويُدنيه مِن جِواره.

فأماني هذا إيمانٌ ونور، وأماني أولئك خدع وغرور.

وقد مدح النَّبيُّ ﷺ متمنِّي الخير، وربَّما جَعَل أجرَه في بعض الأشياء كأجر فاعله، كالقائل: لو أنَّ لي مالًا لعمِلْتُ بعملِ فُلانٍ- الَّذي يتَّقي في مالِه ربَّه،

ويَصِلُ فيه رحِمَه، ويُخرِجُ منه حقه - وقال: «هُمَا في الأجرِ سَواءٌ»[1].

المفسد الثالثُ من مفسدات القلب: التعلُّق بغير الله، وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق.

فليس عليه أضرُّ من ذلك، ولا أقطعُ له عن الله، وأحجب له عن مصالحه وسعادته منه؛ فإنَّه إذا تعلَّق بغير الله وَكَلَه الله إلى مَن تعلَّق به، وخذَله مِن جهة مَن تعلَّق به، وفاتَه تحصيلُ مقصوده من الله بتعلُّقه بغيره، والتفاتِه إلى سواه؛ فلا على نصيبه مِن الله حصَل، ولا إلى ما أمَّله ممَّن تعلَّق به وصل؛ قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢]؛ فأعظمُ النَّاسِ خِذلانًا مَن تعلَّق بغير الله، فإنَّ ما فاته مِن مصالحه وسعادتِه وفَلاحِه أعظمُ ممَّا حصل له ممَّن تعلَّق به، وهو مُعرَّضٌ للزَّوالِ والفوات، ومَثَلُ المتعلِّق بغير الله كمَثَلِ المستظِلِّ مِن الحرِّ والبردِ ببيت العنكبوت أوْهَنِ البيوت.

المفسد الرَّابعُ مِن مفسدات القلب: الطَّعام: والمفسِدُ له من ذلك نوعان:

أحدهما: ما يُفسِدُه لعَيْنِه وذاتِه كالمحرَّمات، وهي محرَّماتٌ لحَقِّ الله، ومحرَّماتٌ لحق العِباد.

والثاني: ما يفسده بقَدْرِه، وتَعدِّي حدِّه، كالإسراف في الحلال، والشِّبَعِ المفرط؛ فإنَّه يُثقله عن الطَّاعات، ويَشغله بمزاولة مؤنةِ البِطنة ومحاولتِها،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٥)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ١١٠).

حتى يظفر بها، فإذا ظَفِر بها شغله بمزاولة تصرُّفها ووقايةِ ضررِها، والتَّأذِّي بثقلها، وقوَّى عليه موادَّ الشَّهوة، وطرَّق مجاري الشيطان ووسَّعها؛ فإنَّه يجري من ابن آدمَ مجرى الدَّم، فالصَّوم يُضيِّق مجاريه ويَسُدُّ عليه طُرقه، والشِّبَع يُطرِّقها ويوسِّعُها، ومَن أكل كثيرًا شرِب كثيرًا، فنام كثيرًا، فخسِر كثيرًا، وفي الحديث المشهور: «**ما مَلأ آدَميٌّ وِعاءً شَرًّا مِن بَطْنِه، بحَسْبِ ابنِ آدَمَ لُقَيْماتٌ يُقِمْنَ صُلْبَه، فإنْ كان لا بُدَّ فاعِلًا فثُلُثٌ لطَعامِه، وثُلُثٌ لشَرابِه، وثُلُثٌ لنَفَسِه**»[1].

المفسد الخامس: كثرة النوم: فإنَّه يميت القلبَ، ويُثقل البدنَ، ويضيِّعُ الوقت، ويُورث كثرةَ الغفلة والكسل، ومنه المكروه جدًّا، ومنه الضَّارُّ غير النَّافع للبدن، وأنفع النوم ما كان عِندَ شدَّةِ الحاجة إليه، ونومُ أوَّلِ اللَّيلِ أحمَدُ وأنفعُ من آخِره، ونومُ وسَطِ النَّهارِ أنفعُ من طرَفَيْه، وكلَّما قرُب النَّوم من الطَّرَفينِ قلَّ نفعُه، وكثُر ضررُه، ولا سيَّما نومُ العصر والنَّومُ أوَّلَ النَّهارِ إلَّا لسهران.

ومِن المكروه عندَهم النَّومُ بين صلاة الصُّبحِ وطلوعِ الشمس؛ فإنَّه وقت غَنيمة، وللسَّير ذلك الوقتَ عِندَ السَّالكينَ مَزِيَّةٌ عظيمة، حتى لو ساروا طول ليلهم لم يَسمحوا بالقعود عن السَّير ذلك الوقتَ حتى تطلُع الشَّمسُ؛ فإنَّه أوَّلُ النَّهارِ ومِفتاحه، ووقتُ نزول الأرزاق، وحصول القَسْم، وحلول البركة، ومنه ينشأ النَّهار، وينسحب حُكْمُ جميعِه على حكم تلك الحِصَّة؛

(١) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢٦٥).

فينبغي أن يكون نومُها كنوم المضطر.

وبالجملة فأعدلُ النوم وأنفعُه نوم نصفِ الليل، وسُدسِه الأخير، وهو مقدار ثمانِ ساعاتٍ، وهذا أعدلُ النومِ عند الأطباء، فما زاد عليه أو نَقَص منه أثَّر عندهم في الطبيعة انحرافًا بحسَبه.

ومِن النَّوم الَّذي لا ينفع أيضًا: النَّومُ أوَّلَ اللَّيل، عَقِيبَ غروب الشمس، حتى تذهب فَحمةُ العِشاء، وكان نبيُّ الله ﷺ يَكْرهه، فهو مكروهٌ شرعًا وطَبْعًا.

وكما أنَّ كثرة النَّومِ مُورِثة لهذه الآفات، فمدافعتُه وهَجْرُه مُطلَقًا مُورِثٌ لآفات أخرى عِظام: من سوء المزاج ويُبْسِه، وانحراف النَّفْس، وجَفاف الرُّطوبات المُعينةِ على الفَهْم والعمل، ويُورِث أمراضًا مُتلِفة لا ينتفع صاحبُها بقلبه ولا بدنه معها، وما قام الوجود إلَّا بالعدل، فمَنِ اعتَصم به فقد أخذ بحظِّه من مجامعِ الخير، والله المستعان.

منزلة الاعتصام

وهو نوعان: اعتصام بالله، واعتصامٌ بحبل الله، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران:١٠٣]، ومدار السَّعادة الدُّنيويةِ والأُخرويَّةِ على الاعتصام بالله، والاعتصامِ بحبله، ولا نجاةَ إلَّا لِمَنِ استمسك بهاتين العِصمتين.

فأما الاعتصامُ بحبله: فإنه يَعصِم من الضلالة، والاعتصامُ به يَعصِمُ من الهَلَكة؛ فإنَّ السَّائرَ إلى الله كالسائر على طريقٍ نحوَ مقصدِه؛ فهو محتاج إلى هداية الطَّريق، والسَّلامةِ فيها، فلا يصل إلى مقصده إلَّا بعد حصول هذين الأمْرين له؛ فالدَّليلُ كفيلٌ بِعصمته من الضَّلالة، ويهديه إلى الطريق، والعُدَّةُ والقوَّةُ والسِّلاحُ بها تحصُلُ له السَّلامةُ من قُطَّاع الطَّريق وآفاتِها.

والاعتصام بحبل الله يوجِب له الهدايةَ واتِّباعَ الدَّليل، والاعتصامُ بالله يوجب له القوَّةَ والعُدَّةَ والسِّلاح، والمادَّةَ التي يَسلَم بها في طريقه؛ ولهذا اختَلفتْ عباراتُ السَّلف في الاعتصام بحبل الله، بعد إشارتهم كلِّهم إلى هذا المعنى.

فقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «تمسَّكوا بدِينِ الله».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «هو الجماعةُ».

وأمَّا الاعتصامُ به: فهو التَّوكُّل عليه، والامتناعُ به، والاحتماء به، وسؤالُه

أن يَحميَ العبد ويمنعه، ويَعصِمَه ويدفعَ عنه؛ فإنَّ ثمرة الاعتصام به هو الدَّفعُ عن العبد، والله يدفع عن الَّذين آمنوا، فيَدفع عن عبده المؤمنِ إذا اعتَصم به كلَّ سبب يُفضي إلى العطب، ويحميه منه، فيدفع عنه الشُّبهاتِ والشَّهوات، وكيْدَ عدوِّه الباطن والظَّاهر، وشَرَّ نفْسِه، ويدفع عنه موجبَ أسباب الشَّرِّ بعد انعقادها، بحسَب قوَّةِ الاعتصام به وتمكُّنِه، فينعقد في حقِّه أسبابُ العطب، فيدفع عنه موجباتِها ومسبباتها، ويدفع عنه قدَرَه بقَدَرِه، وإرادتَه بإرادتِه، ويُعيذه به منه.

منزلة السماع

وقد أمَر الله به في كتابه، وأثنى على أهْلِه، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ﴾ [المائدة:١٠٨]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة:٨٣].

فالسَّماعُ أصلُ العقل، وأساسُ الإيمان الذي انبنى عليه، وهو رائده وجليسُه ووزيره، ولكنَّ الشَّأنَ كلَّ الشَّأنِ في المسموع، وفيه وقَع خَبْطُ الناس واختلافُهم، وغَلِطَ فيه مَن غَلِطَ.

وحقيقة السَّماع تنبيهُ القلب على معاني المسموع، وتحريكه عنها طلبًا وهربًا، وحُبًّا وبغضًا، فهو حادٍ يَحدو بكلِّ أحد إلى وطنه ومألفِه.

وأصحاب السَّماع؛ منهم مَن يسمع بطبعه ونفْسِه وهواه، فهذا حظُّه مِن مسموعه ما وافق طبعَه.

ومنهم مَن يسمع بحاله وإيمانِه ومعرفتِه وعقله، فهذا يُفتح له من المسموع بحسَب استعداده وقوَّتِه ومادته.

ومنهم مَن يسمع بالله، لا يسمع بغيره، كما في الحديث الإلهيِّ الصَّحيح: «**فَبِي يَسمَعُ، وبِي يُبصِرُ**»(١)، وهذا أعلى سماعًا، وأصحُّ من كلِّ أحد.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) بمعناه.

فأمَّا المسموع فعلى ثلاثة أضرب:

أحدها: مسموع يُحبُّه الله ويرضاه، وأمَر به عبادَه، وأثنى على أهله، ورضيَ عنهم به.

الثاني: مسموع يُبغضه ويَكرهه، ونهى عنه، ومدَحَ المُعرِضين عنه.

الثالث: مسموع مباحٌ مأذون فيه، لا يُحبُّه ولا يبغضه، ولا مدَحَ صاحبَه ولا ذمَّه؛ فحُكْمُه حُكم سائر المباحات.

فأمَّا النَّوع الأوَّل: فهو السَّماع الَّذي مدحه الله في كتابه، وأمَر به، وأثنى على أصحابه، وذَمَّ المُعرِضين عنه ولعَنَهُم، وجعَلَهم أضلَّ من الأنعام، وهُمُ القائلونَ في النَّار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [المُلك: ١٠]، وهو سماع آياتِه المتلوَّةِ التي أنزلها على رسوله ﷺ؛ فهذا السَّماع أساسُ الإيمان الَّذي عليه بناؤه، وهو على ثلاثة أنواع: سماع إدراك بحاسَّة الأذن، وسماع فَهم وعقل، وسماع إجابة وقَبول، والثلاثة في القرآن.

والمقصود: أنَّ سماع المقرَّبين هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكًا وفَهمًا وتدبُّرًا، وإجابة.

وكلُّ سماع في القرآن مَدَح الله أصحابه وأثنى عليهم، وأمَر به أولياءَه فهو هذا السَّماع، وهو سماع الآيات، لا سماعُ الأبيات، وسماعُ القرآن، لا سماع الشيطان، وسماع كلامِ ربِّ الأرض والسَّماء، لا سماعُ قصائدِ الشُّعراء، وسماع المراشِد، لا سماع القصائِد، وسماع الأنبياء والمرسَلينَ والمؤمنين، لا سماع المغنِّينَ والمطربين.

فهذا السَّماع حادٍ يَحدو القلوبَ إلى جِوار علَّام الغيوب، وسائقٌ يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح، ومحرِّك يُثير ساكنَ العَزماتِ إلى أعلى المقامات وأرفعِ الدرجات، ومنادٍ ينادي للإيمان، ودليلٌ يدلُّ الرَّكبَ في طريق الجنان، وداعٍ يدعو القلوب بالمساء والصَّباح، مِن قِبَل فالِق الإصباح: حيَّ على الفلاَّح، حيَّ على الفلاح.

فلن تعدم مِن هذا السماع إرشادًا لحُجَّة، وتبصرةً لعِبرة، وتذكرةً لمعرفة، وفِكرةً في آية، ودَلالةً على رشد، وردًّا عن ضلالة، وإرشادًا مِن غَيٍّ، وبصيرةً من عمًى، وأمرًا بمصلحة، ونهيًا عن مَضرَّة ومفسدة، وهدايةً إلى نور، وإخراجًا من ظلمة، وزجرًا عن هوى، وحثًّا على تُقى، وجِلاءً لبصيرة، وحياةً لقلب، وغذاءً ودواءً وشفاء، وعِصمةً ونجاة، وكشْفَ شُبْهة، وإيضاح برهان، وتحقيقَ حقٍّ، وإبطال باطل.

[النوع الثاني من السماع]: ما يُبغِضُه الله ويَكرَهه، ويَمدح المُعرِضَ عنه، وهو سماع كلِّ ما يَضُرُّ العبدَ في قلبه ودِينه، كسماع الباطل كلِّه، إلا إذا تضمَّن ردَّه وإبطاله والاعتبارَ به، بعِلمه بحُسن ضِدِّه؛ فإنَّ الضدَّ يُظهِر حُسنَه الضدُّ، كما قيل:

وإذا سَمِعْتُ إلى حديثِكَ زادَني
حُبًّا لهُ سَمْعي حديثَ سِواكا

وكسماع اللَّغو الَّذي مدَح اللهُ التَّاركينَ لسماعه، والمعرِضينَ عنه بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [القصص:٥٥].

منزلــة الخــوف

وهي مِن أجَلِّ منازل الطَّريقِ وأنفعِها للقلب، وفرضٌ على كل أحد، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]، ومَدَحَ أهلَه في كتابه وأثنى عليهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧- ٦١].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسولَ الله، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]، أهو الذي يَزني، ويَشرَبُ الخَمْرَ، ويَسرِقُ؟ قال: «**لا يا ابنةَ الصِّدِّيقِ، ولكنَّه الرَّجُلُ يَصومُ ويُصَلِّي ويَتصَدَّقُ، ويَخافُ ألَّا يُقبَلَ منه**»[١].

قال الحسَن رحمه الله: «عمِلوا واللهِ بالطاعات، واجتهَدوا فيها، وخافوا أن تُردَّ عليهم؛ إنَّ المؤمن جمَع إحسانًا وخشية، والمنافق جمَع إساءةً وأمْنًا».

و«**الوَجَل**» و«**الخوف**» و«**الخشية**» و«**الرَّهبة**» ألفاظٌ متقاربة غيرُ مترادفة.

قال أبو القاسم الجُنَيْد رحمه الله: «الخوف توقُّع العقوبة على مجارِي الأنفاس».

و«**الخشية**» أخصُّ من الخوف؛ فإن الخشية للعلماء بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ فهي خوف مقرون بمعرفة، وقال النبي ﷺ: «**إنِّي أتقاكُم لله، وأشَدُّكُم له خَشْيةً**»[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٧٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

فالخوفُ حركةٌ، والخَشيةُ انْجِماعٌ وانقباضٌ وسكونٌ، فإن الذي يرى العدوَّ والسَّيلَ ونحو ذلك له حالتان:

إحداهما: حركة للهرب منه، وهي حالة الخوف.

والثانية: سكونُه وقرارُه في مكان لا يَصِلُ إليه، وهي الخشية.

وأمَّا الرهبة: فهي الإمعان في الهَرَب من المكروه، **وأمَّا الوَجَل**: فرجفان القلب، وانصداعُه لِذِكر مَن يخاف سُلطانه وعقوبتَه، أو لرؤيته، وأما **الهيبةُ**: فخوفٌ مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثرُ ما يكون مع المعرفة والمحبة، **والإجلال**: تعظيمٌ مقرونٌ بالحب.

فالخوف لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهيبةُ للمحبِّين، والإجلال للمُقرَّبين، وعلى قدْر العلم والمعرفة يكون الخوفُ والخشية، كما قال ﷺ: «**إنِّي لأعْلَمُكُم باللهِ، وأشَدُّكُم له خشية**»[1].

قال أبو حفص رحمه الله: «الخوف سَوط الله، يُقَوِّم به الشاردَ عن بابه». وقال: «الخوف سراج في القلب، به يُبصر ما فيه من الخير والشر، وكلُّ أحد إذا خِفتَه هرَبتَ منه إلا الله تعالى؛ فإنك إذا خِفتَه هربتَ إليه».

فالخائف هاربٌ مِن ربِّه إلى ربِّه.

قال أبو سليمان رحمه الله: «ما فارق الخوفُ قلبًا إلا خرِب». وقال إبراهيم بن شيبان رحمه الله: «إذا سكَن الخوفُ القلوبَ أحرق مواضع الشهوات منها، وطرَد الدنيا عنها».

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

وقال ذو النُّونِ ﵀: «الناسُ على الطريق ما لم يَزُلْ عنهم الخوفُ، فإذا زال عنهم الخوفُ ضلُّوا الطريقَ».

والخوف ليس مقصودًا لذاته، بل مقصودًا لغيره قَصْدَ الوسائل؛ ولهذا يَزول بزوال المَخُوف؛ فإن أهل الجنة لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

والخوف المحمود الصادق: ما حالَ بيْن صاحبِه وبيْن محارِم الله، فإذا تجاوزَ ذلك خِيف منه اليأسُ والقنوط.

قال أبو عثمان ﵀: «صِدق الخوفِ هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطنًا».

وسمِعت شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ ﵀ يقول: «الخوف المحمودُ ما حجَزَك عن محارمِ الله».

[و] القلب في سَيرِه إلى الله تعالى بمنزلة الطائر؛ فالمَحبَّةُ رأسُه، والخوفُ والرجاء جَناحاه؛ فمتى سَلِمَ الرأس والجناحان فالطَّيرُ جيِّد الطيران، ومتى قُطِع الرأسُ مات الطائر، ومتى عُدم الجَناحان فهو عُرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبُّوا أن يقوى في الصحة جَناحُ الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف؛ هذه طريقةُ أبي سليمانَ وغَيرِه؛ قال: «ينبغي للقلب أن يكون الغالبُ عليه الخوفَ؛ فإنه إذا كان الغالب عليه الرجاء فسَد».

وقال غيرُه: «أكمل الأحوال: اعتدالُ الرجاء والخوف، وغلبةُ الحب؛ فالمحبة هي المركب، والرجاء حادٍ، والخوف سائقٌ، والله المُوصِل بمَنِّه وكرمه».

منزلة الخشوع

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [الحديد:١٦].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كان بيْن إسلامِنا وبيْن أن عاتبَنا اللهُ بهذه الآية إلا أربعُ سِنينَ»[١].

وقال ابن عباس رحمه الله: «إنَّ الله استبطأ قلوبَ المؤمنين، فعاتبَهم على رأس ثلاثَ عشرةَ سَنَةً مِن نزول القرآن»[٢].

وقال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢].

والخشوع: قيام القلب بين يدَيِ الرَّبِّ بالخضوع والذِّلَّة، والجمعيَّةِ عليه.

وقال الجُنَيد رحمه الله: «الخشوع: تذلُّلُ القلوب لعلام الغيوب».

وأجمع العارفون على أنَّ الخشوع محلُّه القلب، وثمرته على الجوارح؛ فهي تُظهره.

وكان بعض الصَّحابة رضي الله عنهم يقول: «إيَّاكم وخشوعَ النِّفاق، فقيل له: وما خشوعُ النفاق؟ قال: أن يُرى البدنُ خاشعًا والقلب غيرُ خاشع».

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٢٧).

(٢) «الدر المنثور» للسيوطي (١٤/ ٢٧٦)، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه.

ورأى عمرُ بن الخطَّاب ﷺ رجلًا طأطأ رقبته في الصَّلاة، فقال: «يا صاحبَ الرَّقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوعُ في الرقاب، إنَّما الخشوعُ في القلوب».

ورأت عائشةُ ﷺ شبابًا يمشون ويَتماوَتون في مِشْيَتِهم، فقالت لأصحابها: «مَن هؤلاء؟ فقالوا: نُسَّاك، فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضَرَب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وكان هو النَّاسِك حقًّا».

وقال الفُضَيل بن عِياض ﷺ: «كان يُكره أن يُريَ الرجلُ من الخشوع أكثرَ ممَّا في قلبه».

وقال حذيفة ﷺ: «أوَّل ما تَفقِدون من دينكم الخشوع، وآخِر ما تفقدون من دينكم الصَّلاة، ورُبَّ مُصَلٍّ لا خير فيه، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعًا»[1].

فإن قيل: ما تقولون في صَلاة مَن عَدِمَ الخشوع؛ هل يُعتَدُّ بها أمْ لا؟

قيل: **أمَّا الاعتدادُ بِهَا في الثَّوَابِ**: فلا يُعْتَدُّ له منها إلا بما عَقَل فيه، وخَشَع فيه لربه.

وأما الاعْتِدادُ بها في أحكام الدنيا، وسقوط القضاء: فإن غلَب عليها الخشوعُ وتعقُّلها، اعتُدَّ بها إجماعًا، وإن غلَب عليه عدمُ الخشوع فيها، وعدم

(١) أخرجه أحمد في الزهد (١٠٠٣)، وابن أبي شيبة (٣٤٨٠٨)، والحاكم (٨٤٤٨)، وقال: صحيح الإسناد.

تعقُّلها، فقد اختَلف الفقهاء في وجوب إعادتها، فأوْجَبها [قوم]:

قالوا: لأنَّ الخشوع والعقلَ رُوحُ الصلاة ومقصودُها ولُبُّها، فكيف يُعتدُّ بصلاةٍ فَقَدتْ رُوحَها ولُبَّها، وبقيتْ صورتُها وظاهرُها؟!

قالوا: ولو ترَكَ العبدُ واجبًا مِن واجباتها عمدًا لأبطلها تَرْكُه، وغايته: أن يكون بعضًا من أبعاضها بمنزلة فوات عضوٍ من أعضاء العبد المُعتَق في الكفَّارة، فكيف إذا عَدِمتْ رُوحَها، ولُبَّها ومَقصودَها، وصارتْ بمنزلة العبد الميِّت؟! فإذا لم يُعتدَّ بالعبد المقطوع اليد، يُعتِقه تَقرُّبًا إلى الله تعالى في كفَّارة واجبة، فكيف يُعتدُّ بالعبد الميِّت؟!

ولهذا قال بعض السَّلَف: الصلاةُ كجارية تُهدى إلى مِلِكٍ من الملوك، فما الظنُّ بمَن يُهدي إليه جاريةً شلَّاءَ، أو عوراءَ، أو عمياءَ، أو مقطوعةَ اليد والرجل، أو مريضةً، أو زَمِنةً، أو قبيحةً، حتى يُهدي جاريةً ميتة بلا رُوحٍ أو جارية قبيحة، فهكذا الصلاةُ التي يُهديها العبدُ، ويَتقرَّب بها إلى ربِّه تعالى!

والله طيِّبٌ لا يَقبُل إلا طيبًا، وليس من العمل الطيب صلاةٌ لا رُوحَ فيها، كما أنه ليس من العِتق الطيِّب عِتْقُ عبدٍ لا رُوحَ فيه.

قالوا: وتعطيل القلب عن عبودية الحضور والخشوع تعطيلٌ لمَلِكِ الأعضاء عن عبوديته، وعَزْلٌ له عنها، فماذا تُغْني طاعةُ الرَّعية وعبوديَّتُها، وقد عُزِلَ مَلِكُها وتَعطَّل؟

قالوا: والأعضاء تابعةٌ للقلب، تَصلُح بصلاحه، وتَفسُد بفساده، فإذا لم

يكن قائمًا بعبوديته، فالأعضاء أَوْلى ألا يُعتدَّ بعبوديَّتها، وإذا فَسدتْ عبوديتُه بالغفلة والوسواس فأنَّى تَصِحُّ عبوديةُ رعيَّتِه وجُندِه ومادَّتُهم منه، وعن أمره يَصدُرون، وبه يأتمرون؟!

فبالجملة: مصلحة الإخلاص والحضور، وجمعيةِ القلب على الله في الصلاة، أرجحُ في نظر الشارع من مصلحة سائِر واجباتها؛ فكيف يُظَنُّ به أنه يُبطلها بترك تكبيرة واحدة، أو اعتدال في رُكن، أو ترْكِ حَرْفٍ، أو شَدَّةٍ من القراءة الواجبة، أو ترْكِ تسبيحة، أو قول: سمِع الله لِمَن حمِدَه، أو قول: ربَّنا ولك الحمدُ، أو ذِكرِ رسولِه بالصلاة عليه، ثم يُصحِّحها مع فوات لُبِّها، ومقصودِها الأعظم، ورُوحها وسِرِّها؟!

فهذا ما احتجَّت به هذه الطائفةُ، وهي حُجَجٌ كما تراها قوَّة وظهورًا.

[وقال أصحاب القول الآخر]: شرائعُ الإسلامِ على الأفعال الظاهرة، وأما حقائقُ الإيمان الباطنةُ فتلك عليها شرائعُ الثواب والعقاب، فلله تعالى حُكْمانِ: حُكمٌ في الدنيا على الشرائع الظاهرة وأعمال الجوارح، وحُكْمُ الآخرة على الحقائق والبواطن.

نعم لا يَحصُل مقصودُ هذه الصلاة من ثواب الله عاجلًا ولا آجِلًا، فإن للصلاة مزيدًا عاجلًا في القلب من قوة إيمانه، واستنارتِه، وانشراحه وانفساحه ووجْدِ حلاوةِ العبادة، والفرح والسرور، واللَّذَّةِ التي تحصُل لمَن اجتمع قلبه وهمُّه على الله، وحضَرَ قلبُه بين يديه، كما يحصُل لمن قرَّبه السلطان منه، وخصَّه بمناجاته والإقبالِ عليه، والله أعلى وأجلُّ.

وكذلك ما يَحصُل لهذا من الدِّرجات العُلى في الآخرة، ومُرافَقة المقرَّبين؛ كُلُّ هذا يَفوتُه بفواتِ الحضور والخشوع، وإنّ الرجُلَين ليكونُ مَقامُهما في الصفِّ واحدًا، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض! وليس كلامُنا في هذا كلِّه.

فإن أردتُم وجوبَ الإعادة لتَحصُل هذه الثمراتُ والفوائدُ فذاك إليه، إن شاء أن يُحصِّلها وإن شاء أن يُفوِّتها على نفْسِه، وإن أردتم بوجوب الإعادة أنَّا نُلزِمه بها ونُعاقِبه على ترْكِها، ونُرتِّبَ عليه أحكامَ تاركِ الصَّلاةِ فلا.

وهذا القول الثَّاني أرجحُ القَولين، والله أعلم.

منزلــــة الإخبــات

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤]، ثم كشف عن معناهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٥]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هود: ٢٣].

الخَبْتُ في أصل اللُّغة: المكان المنخفضُ من الأرض، وبه فَسَّر ابنُ عبَّاس ﵄ وقَتادةُ ﵀ لفظ المُخبِتين، وقالا: هُم المتواضعون.

قال مجاهد ﵀: «المخبِت: المطمئِنُّ إلى الله ﷿».

لَمَّا كان الإخباتُ أوَّلَ مَقامٍ يتخلَّص فيه السالك من التردُّد، والسالك مسافر إلى ربه، سائر إليه على مدى أنفاسه، لا ينتهي سَيرُه إليه ما دام نفَسُه يصحبه؛ شَبَّه حصول الإخبات له بالماء العذب الذي يَرِدُه المسافر على ظمأٍ وحاجة في أول مَناهِله، فيَرويه مورِدُه، ويُزيل عنه خواطرَ تردُّده في إتمام سفره، أو رجوعه إلى وطنه لمشقة السفر، فإذا ورد ذلك الماءَ زال عنه التَّردُّدُ وخاطرُ الرجوع.

كذلك السَّالكُ إذا ورد مورد الإخبات تخلَّص من التردُّد والرُّجوع، ونزَل أوَّلَ منازل الطُّمأنينة لسفره، وجَدَّ في السير.

[و] اعلم أنَّه متى استقرَّتْ قَدَمُ العبد في منزلة الإخبات وتمكَّن فيها،

ارتفعت هِمَّتُه، وعلَتْ نفسُه عن خطَفات المدح والذَّمِّ، فلا يفرح بمدح النَّاس، ولا يحزن لذمِّهم، هذا وصْفُ مَن خرَج عن حظِّ نفسه، وتأهَّل للفناء في عبودية ربه، وصار قلبه مُطَّرِحًا لأشعة أنوار الأسماء والصفات، وباشَرَ حلاوةَ الإيمان واليقين قلْبُه.

والوقوف عند مدح النَّاس وذمِّهِم علامة انقطاع القلب، وخُلُوِّه من الله، وأنَّه لم تباشِرْه رُوحُ محبَّتِه ومعرفته، ولم يَذُقْ حلاوة التَّعلُّق به والطُّمأنينة إليه.

[فـ] صاحب هذا المنزل لا يرضى عن نفسه، وهو مُبغِضٌ لها، مُتَمَنٍّ لمفارقتها.

والمراد بالنَّفْس عند القوم: ما كان معلولًا من أوصاف العبد، مذمومًا من أخلاقه وأفعاله، سواء كان ذلك كَسْبيًّا له أو خَلْقيًّا، فهو شديد اللائمة لها، وهذا أحد التأويلين في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، قال سعيد بن جُبَير وعِكْرِمةُ: «تَلوم على الخير والشر، ولا تصبر على السراء، ولا على الضراء».

فإنَّه من قواعدِ القوم المُجمَع عليها بينهم، التي اتفقت كلمة أولِهم وآخِرِهم، ومُحِقِّهم ومُبطِلِهم عليها: أنَّ النَّفْسَ حجابٌ بين العبد وبين الله تعالى، وأنه لا يصل إلى الله حتى يقطع هذا الحجاب، كما قال أبو يَزيدَ: «رأيت ربَّ العزة في المنام، فقلت: ربي، كيف الطريق إليك؟ فقال: خَلِّ نفسَك وتَعالَ».

فالنَّفس جبلٌ عظيم شاقٌّ في طريق السَّير إلى الله، وكلُّ سائر فلا طريق

له إلا على ذلك الجبل، فلابد أن ينتهيَ إليه، ولكن منهم مَن هو شاقٌّ عليه، ومنهم من هو سهْلٌ عليه، وإنه لَيَسيرٌ على مَن يسَّره الله عليه.

وفي ذلك الجبلِ أوديةٌ وشعوب، وعَقَبات ووُهود، وشَوكٌ وعَوْسَج، وعُلّيق وشِبْرق ولصوصٌ يقتطعون الطريق على السائرين، ولا سيَّما أهلِ الليل المُدلجِين، فإذا لم يكُن معهم عُدَدُ الإيمان، ومصابيحُ اليقين تتَّقِد بزيت الإخبات، وإلا تعلَّقتْ بهم تلك الموانع، وتشبَّثت بهم تلك القواطعُ، وحالتْ بينهم وبين السير.

وأكثر السَّائرينَ منه رجَعوا على أعقابهم لَمَّا عجزوا عن قطعه واقتحامِ عقبته، والشَّيطانُ على قُلَّة ذلك الجبل يحذِّر النَّاسَ من صعوده وارتقائه، ويخوِّفهم منه، فيتَّفِق مشقَّةُ ذلك الجبل، وقعودُ ذلك المخوف على قُلَّتِه، وضعفُ عزيمة السائر ونيته، فيتولد من ذلك الانقطاعُ والرجوع، والمعصوم مَن عصمه الله.

وكلَّما رقيَ السائر في ذلك الجبل اشتدَّ به صياحُ القاطع، وتحذيرُه وتخويفه، فإذا قطعه وبلغ قُلَّته: فإذا المخاوف كلُّهُنَّ أمان، وحينئذ يسهُل السَّير، وتزول عنه عوارض الطَّريق، ومشقةُ عقباتها، ويرى طريقًا واسعًا آمِنًا، به المنازل والمناهلُ، وعليه الأعلام، وفيه الإقامات، قد أُعِدَّتْ لركب الرحمن.

فبيْن العبد وبين السَّعادة والفلاح: قوةُ عزيمة، وصبرُ ساعة، وشجاعةُ نفْس، وثبات قلب، والفضل بيد الله يؤتيه مَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

منزلة الزهد

قال الله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

والقرآن مملوءٌ من التَّزهيد في الدنيا، والإخبارِ بخِسَّتها، وقِلَّتِها وانقطاعها، وسرعةِ فنائها، والتَّرغيبِ في الآخرة، والإخبارِ بشرفها ودوامها وسرعةِ إقبالها، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا أقام في قلبه شاهدًا يعايِن به حقيقة الدنيا والآخرة، ويؤْثِر منهما ما هو أولى بالإيثار.

[و]سمِعت شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ - قدَّس اللهُ رُوحَه - يقول: «الزُّهد: ترْكُ ما لا ينفع في الآخرة، والورع: ترْك ما تَخاف ضررَه في الآخرة».

وهذه العبارة مِن أحسَنِ ما قيل في الزُّهد والورع وأجمعِها.

قال سفيانُ الثَّوريُّ: «الزُّهد في الدُّنيا قِصَرُ الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا لبس العباء».

وقال الإمام أحمد رحمه الله: «عدمُ فرحِه بإقبالها، ولا حزنه على إدبارها»، فإنَّه سُئِل عن الرجُل يكون معه ألفُ دينار، هل يكون زاهدًا؟ فقال: «نعم، على

شريطة أن لا يفرح إذا زادت، ولا يحزن إذا نقصت».

وقال أبو سليمانَ الدَّارانيُّ رحمه الله: «ترْك ما يشغل عن الله».

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «الزُّهد على ثلاثة أوجُه:

الأوَّل: ترْكُ الحرام، وهو زهد العوامِّ.

والثاني: تركُ الفضول من الحلال، وهو زهد الخواصِّ.

والثالث: تركُ ما يشغل عن الله، وهو زهد العارفين».

والَّذي أجمَعَ عليه العارفون أنَّ الزُّهد سفَرُ القلب من وطن الدُّنيا، وأخْذُه في منازلِ الآخرة.

ومُتَعَلَّقُه ستَّةُ أشياءَ، لا يستحقُّ العبدُ اسمَ الزهد حتى يزهد فيها، وهي: المال، والصُّوَر، والرِّياسة، والنَّاس، والنَّفْس، وكلُّ ما دون الله.

وليس المراد رفْضَها من الملك، فقد كان سليمانُ وداودُ عليهما السلام مِنْ أَزْهَدِ أَهْلِ زمانهما، ولهما من المال والنِّساءِ والملك ما لهما، وكان نبيُّنا ﷺ أزهد البشر على الإطلاق، وله تسع نسوة.

وكان عليُّ بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف، والزُّبير، وعثمانُ رضي الله عنهم من الزهَّاد، مع ما لهم من الأموال، وكان الحَسن بن عليٍّ رضي الله عنهما من الزُّهَّاد، مع أنَّه كان من أكثرِ الأُمَّة محبَّةً للنساء ونكاحًا لهن وأغناهم، وكان عبد الله بن

المبارك من الأئمَّة الزُّهَّاد، مع مال كثير، وكذلك اللَّيث بن سعد وسفيانُ من أئمَّة الزُّهَّاد، وكان له رأسُ مال يقول: «لولا هو لتَمَنْدَلَ بنا هؤلاء».

ومِن أحسَنِ ما قيل في الزُّهد، كلامُ الحَسن أو غيرِه: «ليس الزُّهدُ في الدُّنيا بِتَحريمِ الحَلالِ، ولا إضاعةِ المالِ؛ ولكنْ أن تكونَ بما في يدِ الله أوثَقَ مِنكَ بما في يدِكَ، وأن تكونَ في ثَوابِ المُصيبةِ - إذا أُصِبتَ بها - أرغَبَ مِنكَ فيها لو لم تُصِبْكَ»؛ فهذا مِن أجمَعِ كلامٍ في الزهد وأحسَنِه.

منزلــــة الـــورع

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤].

قال أُبَيُّ بن كعب ﷺ: «لا تلبسها على غدر، ولا ظُلْمٍ ولا إثم، البَسْها وأنت بَرٌّ طاهر».

ولا ريب أنَّ تطهيرها من النَّجاسات، وتقصيرهَا من جملة التَّطهير المأمورِ به، إذْ به تمامُ إصلاح الأعمال والأخلاق؛ لأنَّ نجاسة الظَّاهرِ تورِثُ نجاسة الباطن؛ ولذلك أُمر القائمُ بيْن يدي الله بإزالتها والبُعدِ عنها.

والمقصود: أنَّ الورع يطهِّر دنَسَ القلبِ ونجاستَه، كما يطهِّر الماءُ دنسَ الثَّوب ونجاستَه، وبيْن الثياب والقلوب مناسبةٌ ظاهرة وباطنة، ولذلك تدلُّ ثيابُ المرء في المنام على قلبه وحاله، ويؤثِّر كلٌّ منهما في الآخر.

ولهذا نُهِيَ عن لِباسِ الحَريرِ والذَّهَبِ، وجُلُودِ السِّباع؛ لِمَا تؤثِّر في القلب من الهيئة المنافية للعبوديَّةِ والخشوع، وتأثير القلب والنَّفسِ في الثِّياب أمرٌ خفيٌّ يعرفه أهل البصائر من نظافتها ودنسها ورائحتها، وبهجتها وكسفتها، حتى إنَّ ثوب البَرِّ ليُعرَف من ثوب الفاجر، وليسا عليهما.

وقد جمَع النبي ﷺ الورعَ كلَّه في كلمة واحدة؛ فقال: «**مِن حُسْنِ إسلامِ المَرءِ تَرْكُه ما لا يَعْنِيه**»[1]، فهذا يَعُمُّ التَّرْكَ لِما لا يعني من الكلام، والنَّظرِ، والاستماع، والبطش، والمَشي، والفِكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافيةٌ شافية في الورع.

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: «الورع ترْكُ كلِّ شبهة، وترْكُ ما لا يَعنِيك هو ترْكُ الفضلات».

وقال إسحاق بن خلَف رحمه الله: «الورع في المنطق أشدُّ منه في الذَّهب والفضَّة، والزُّهدُ في الرِّياسة أشدُّ منه في الذَّهب والفضَّة؛ لأنَّهما يُبذَلان في طلب الرِّياسة».

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله: «الورع على وجهين؛ ورع في الظاهر: أن لا يتحرَّك إلا لله، وورَع في الباطن: هو أن لا يدخل قلبَك سِواه، وقال: مَن لم ينظر في الدَّقيق من الورع لم يَصِلْ إلى الجليل من العطاء».

وقال بعض السلف: «لا يبلغ العبدُ حقيقةَ التقوى حتى يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس».

وقال بعض الصَّحابة رضي الله عنهم: «كنا نَدَعُ سبعين بابًا من الحلال مخافةَ أن نقع في باب من الحرام».

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٤٨٤٠).

فوائد التورع بتجنب القبائح:

إحداها: صَوْنُ النفس؛ وهو حِفْظُها وحمايتها عمَّا يَشينها، ويَعيبها ويُزري بها عند الله وملائكته، وعبادِه المؤمنين، وسائر خلقه، فإنَّ من كرمتْ عليه نفْسُه وكبُرت عنده: صانها وحماها، وزكَّاها وعلّاها، ووضعها في أعلى المحالِّ، وزاحم بها أهلَ العزائم والكمالات، ومَن هانت عليه نفْسُه وصغُرتْ عنده ألقاها في الرَّذائل، وأطلق شِناقها، وحلَّ زِمامها وأرخاه، ودَسَّاها ولم يَصُنْها عن قبيح.

[والثانية] توفيرُ الحسنات مِن وجهين:

أحدهما: توفير زمانِه على اكتِساب الحسنات، فإذا اشتغل بالقبائح نقصتْ عليه الحسناتُ الَّتي كان مستعِدًّا لتحصيلها.

والثاني: توفير الحسنات المفعولةِ عن نقصانها بموازنة السَّيِّئاتِ أو حبوطِها، كما تقدَّمَ في منزلة التَّوبةِ أنَّ السيئاتِ قد تُحبِط الحسناتِ، وقد تَستغرِقُها بالكلِّيَّةِ أو تنقصها، فلا بدَّ أن تُضعِفَها قطعًا، فتجنُّبها يوفر ديوانَ الحسنات، وذلك بمنزلة مَن له مال حاصل، واستدان عليه، فإمَّا أن يستغرِقه الدَّينُ أو أكثره أو ينقصه، فهكذا الحسنات والسَّيِّئات.

[والثالثة] صيانةُ الإيمان: لأنَّ الإيمان عند جميع أهلِ السُّنَّة يَزيدُ بالطاعة، وينقص بالمعصية، وإضعاف المعاصي للإيمان أمرٌ معلوم بالذَّوقِ والوجود، فإنَّ العبد-كما جاء في الحديث- «**إذا أذنَبَ نُكِتَ في قَلبِه نُكْتةٌ سَوْداءُ، فإنْ**

تابَ واستَغفرَ صُقِلَ قَلْبُه، وإن عادَ فأذنَبَ نُكِتَ فيهِ نُكْتةٌ أُخرَى، حتَّى تَعلُوَ قَلْبَه، وذلكَ الرَّانُ الَّذي قال اللهُ تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]»[1].

فالقبائح تُسَوِّد القلب، وتُطفئ نورَه، والإيمانُ هو نور في القلب، والقبائح تَذهَب به أو تقلِّله قطعًا.

[و] الحسنات تَزيد نورَ القلب، والسَّيِّئاتُ تُطفئ نورَ القلب، وقد أخبر تعالى أنَّ كَسْبَ القلوب سببٌ للرَّان الَّذي يعلوها، وأخبر أنَّه أركَسَ المنافقينَ في نفاقهم بكسْبِهم، فقال: ﴿ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ [النساء: ٨٨].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٤٢٤٤).

منزلـــة الرجـــاء

قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فابتغاء الوسيلةِ إليه: طلبُ القُرب منه بالعبوديَّة والمحبَّة، فذَكَر مقامات الإيمانِ الثلاثةَ الَّتي عليها بناؤه: الحب، والخوف، والرَّجاء.

وفي صحيح مسلم عن جابر ﵁ قال: سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول - قبل موته بثلاث -: «لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُم إلَّا وهو يُحْسِنُ الظَّنَّ بربِّه»[1]، وفي الصحيح عنه ﷺ «يَقولُ اللهُ ﷻ: أنا عِندَ ظَنِّ عَبْدي بي، فَلْيَظُنَّ بي ما شاءَ»[2].

«الرجاء» حادٍ يَحدو القلوب إلى بلاد المحبوب، وهو اللهُ والدار الآخرة، ويطيِّب لها السَّيرَ.

والفرق بينه وبين التمني أنَّ التَّمنِّي يكون مع الكسل، ولا يسلُك بصاحبه طريقَ الجِدِّ والاجتهاد، و«الرجاء» يكون مع بَذْلِ الجُهدِ وحُسنِ التوكل.

فالأول: كحال مَن يتمنَّى أن يكون له أرضٌ يبذرها ويأخذُ زرعَها.

والثاني: كحال مَن يَشقُّ أرضه ويفلِحُها ويَبذُرُها، ويرجو طلوعَ الزرع.

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٠١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣١٦).

ولهذا أجمع العارفون على أنَّ الرَّجاء لا يَصِحُّ إلَّا مع العمل.

والرَّجاءُ ثلاثة أنواع: نوعان محمودان، ونوع غرور مذموم.

فالأوَّلان رجاءُ رجُلٍ عمِلَ بطاعة الله على نور من الله، فهو راجٍ لثوابه، ورجُلٍ أذنب ذنبًا ثم تاب منه إلى الله تعالى، فهو راجٍ لمغفرته.

والثالث: رجل مُتَمادٍ في التفريط والخطايا، يرجو رحمةَ الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمنِّي والرجاء الكاذب.

وللسالك نظَران: نظرٌ إلى نفسه وعيوبه وآفاتِ عمله، يفتح عليه بابَ الخوف، ونظرٌ إلى سَعة فضل ربِّه وكرمِه وبِرِّه، يفتح عليه باب الرجاء.

قال أبو عليٍّ الرُّوذباريُّ ؒ: «الخوف والرجاء كجناحَيِ الطائر؛ إذا استويا استوى الطَّيرُ وتَمَّ طيرانُه، وإذا نقَص أحدُهما وقَع فيه النَّقصُ، وإذا ذهَبَا صار الطائرُ في حدِّ الموت».

قال يحيى بن معاذ ؒ: «يكاد رجائي لك مع الذُّنوب يغلب على رجائي لك مع الأعمال؛ لأنِّي أجدُني أعتمِدُ في الأعمال على الإخلاص، وكيف أحرزها وأنا بالآفات معروف؟ وأجدني في الذُّنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجُود موصوف؟».

[و] الرجاء مِن أجَلِّ منازلهم، وأعلاها وأشرفِها، وعليه وعلى الحب

والخوف مدارُ السير إلى الله، وقد مدَح الله أهله، وأثنى عليهم، فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي الحديث الصحيح الإلهيِّ عن النبي ﷺ - فيما يروي عن ربه ﷻ - «يا ابنَ آدمَ، إنَّكَ ما دَعَوْتَني ورَجَوْتَني غَفَرْتُ لَكَ على ما كانَ مِنكَ ولا أُبالي»(١).

وقد روى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ قال: «يَقولُ اللهُ ﷻ: أنا عِندَ ظَنِّ عَبْدي بي، وأنا معه إذا ذَكَرَني، فإنْ ذَكَرَني في نَفْسِه ذَكَرْتُه في نَفْسي، وإنْ ذَكَرَني في مَلإٍ ذَكَرْتُه في مَلإٍ خَيرٍ منهُم، وإنِ اقتَرَبَ إلَيَّ شِبرًا، اقتَرَبْتُ إليهِ ذِراعًا، وإنِ اقتَرَبَ إلَيَّ ذِراعًا، اقتَرَبْتُ إليهِ باعًا، وإنْ أتاني يَمْشي، أتَيْتُه هَرْوَلَةً»(٢).

فقوَّةُ الرَّجاءِ على حسَب قوَّةِ المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وغلبة رحمته غضبه، ولولا رَوحُ الرجاء لعُطِّلَتْ عبوديةُ القلب والجوارح، وهُدِّمَتْ صوامعُ، وبِيَعٌ، وصلواتٌ، ومساجدُ يُذكَر فيها اسمُ الله كثيرًا؛ بل لولا رَوح الرجاء لَما تحرَّكت الجوارح بالطاعة، ولولا ريحُه الطيبةُ لَما جرت سُفُن الأعمال في بحر الإرادات، وعلى حسَب المحبَّةِ وقوَّتِها يكون الرجاء، وكلُّ محبٍّ راجٍ خائفٌ بالضَّرورة، فهو أرجى ما يكون لحبيبه، أحَبَّ ما كان إليه، وكذلك

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

خوفه، فإنه يخاف سقوطَه من عينيه، وطرْدَ محبوبه له وإبعادَه، واحتجابه عنه، فخوفه أشدُّ خوف، ورجاؤه لمحبوبه ذاتيٌّ للمحبة، فإنَّه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه، فإذا لقيَه ووصل إليه اشتدَّ الرَّجاءُ له، لِما يحصل به من حياة رُوحه، ونعيم قلبه من ألطاف محبوبه، وبِرِّه وإقباله عليه، ونظره إليه بعين الرضا، وتأهيلِه لمحبَّتِه، وغير ذلك ممَّا لا حياة للمحِبِّ ولا نعيمَ ولا فوز إلا بوصوله إليه من محبوبه، فرجاؤه أعظم رجاء، وأجَلُّه وأتمُّه.

فتأمَّلْ هذا الموضعَ حقَّ التَّأمُّل يُطلِعْك على أسرارٍ عظيمة من أسرار العبوديَّةِ والمحبَّة.

فكلُّ محبَّةٍ مصحوبة بالخوف والرجاء، وعلى قدْر تمكُّنها من قلب المحبِّ يشتدُّ خوفُه ورجاؤه، لكن خوف المحِبِّ لا يَصحَبُه وحشةٌ، بخلاف خوف المسيء، ورجاء المحِبِّ لا يصحبه عِلَّة، بخلاف رجاء الأجير، فأين رجاءُ المحِبِّ من رجاء الأجير وبيْنهما كما بيْن حالَيْهما؟!

وبالجملة: فالرَّجاءُ ضروريٌّ للمريد السالك، والعارف لو فارقه لحظةً لتلف أو كاد، فإنَّه دائر بين ذنب يرجو غفرانَه، وعيبٍ يرجو صلاحه، وعمَلٍ صالحٍ يرجو قَبوله، واستقامةٍ يرجو حصولها أو دوامَها، وقُرْبٍ من الله ومنزلة عنده يرجو وصولَه إليها، ولا ينفكُّ أحد من السالكينَ عن هذه الأمور أو عن بعضها.

والرَّبُّ تعالى ليس له ثأرٌ عند عبده فيدركه بعقوبته، ولا يتشفى بعقابه،

ولا يزيد ذلك في مُلْكه مثقال ذرة، ولا ينقص مغفرته، لو غفر لأهل الأرض كلِّهم؛ لَمَا نقص مثقال ذرة من ملكه، كيف، والرَّحمةُ أوسع من العقوبة وأسبَقُ من الغضب وأغلب له وهو قد كتب على نفْسِه الرَّحمةَ؟

ومن ثمار الرجاء:

١- إظهار العبوديَّةِ والفاقة، والْحَاجَةِ إلى ما يرجوه من ربه، ويستشرِفه من إحسانه، وأنَّه لا يستغني عن فضله وإحسانِه طَرفةَ عين.

٢- أنَّه سبحانه يحِبُّ من عباده أن يؤمِّلوه ويَرْجوه، ويسألوه من فضْلِه؛ لأنَّه الملِك الحقُّ الجوَاد، أجْوَد مَن سُئل، وأوسعُ مَن أعطى، وأحَبُّ ما إلى الجوَاد أن يُرجَى ويُؤمَّل ويُسأل، وفي الحديث «مَنْ لمْ يَسألِ الله يَغضَبْ عليهِ»(١)، والسائلُ راجٍ وطالبٌ؛ فمَن لم يرجُ الله يغضبْ عليه.

٣- أنَّ الرَّجاء حادٍ يحْدو به في سَيره إلى الله، ويطيِّب له المَسير، ويَحُثُّه عليه، ويبعثه على ملازمته، فلولا الرَّجاء لَمَا سَرى أحد، فإنَّ الخوف وحدَه لا يحرِّكُ العبد، وإنَّما يحرِّكه الحبُّ، ويُزعجه الخوف، ويَحدوه الرَّجاء.

٤- أنَّ الرَّجاء يطرحه على عتبة المحبَّة، ويلقيه في دِهليزها، فإنَّه كلَّما اشتدَّ رجاؤه وحصَل له ما يرجوه ازداد حبًّا لله تعالى، وشكرًا له، ورضًا عنه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤١٨).

٥- أنَّه يبعثه على أعلى المقامات، وهو مقام الشُّكر، الَّذي هو خلاصة العبوديَّة، فإنَّه إذا حصل له مَرْجوُّه كان ذلك أدعى لشكره.

٦- أنَّه يُوجب له المزيدَ من معرفته بأسمائه ومعانيها، والتعلُّق بها، فإنَّ الرجاء تعلُّق بأسماء الإحسان، وتعبُّدٌ بها، ودعاءٌ بها، وقد قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

٧- أنَّ المحبَّة لا تنفكُّ عن الرَّجاء - كما تقدَّم - فكلُّ واحد منهما يَمُدُّ الآخَرَ ويقوِّيه.

٨- أنَّ الخوف مستلزِمٌ للرَّجاء، والرَّجاءُ مستلزِمٌ للخوف، فكلُّ راجٍ خائفٌ، وكلُّ خائفٍ راجٍ، ولأجل هذا حسُن وقوعُ الرَّجاءِ في موضع يحسن فيه وقوع الخوف، قال الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣]، قال كثير من المفسرين: المعنى: ما لكم لا تخافون لله عَظَمَةً؟ قالوا: والرَّجاء بمعنى الخوف. والتَّحقيق أنَّه ملازِم له.

٩- أنَّ العبد إذا تعلَّق قلبُه برجاء ربه، فأعطاه ما رجاه، كان ذلك ألطفَ موقعًا، وأحلى عند العبد، وأبلغَ من حصول ما لم يَرْجُه.

١٠- أنَّ الله ﷻ يريد من عباده تكميلَ مراتبِ عبوديَّته من الذُّلِّ والانكسار، والتَّوكُّلِ والاستعانة، والخوفِ والرجاء، والصَّبرِ والشكر، والرِّضا والإنابة وغيرِها، ولهذا قدَّر عليه الذَّنبَ وابتلاه به، لتكميل مراتبِ

عبوديَّتِه بالتوبة التي هي من أحبِّ عبودياتِ عبدِه إليه، فكذلك تكميلها بالرَّجاء والخوف.

١١- أنَّ في الرَّجاء -من الانتظار والتَّرقُّبِ والتَّوقُّعِ لفضل الله- ما يوجب تعلُّقَ القلب بذِكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته، وتنقُّل القلب في رياضها الأنيقة، وأخْذه بنصيبه من كلِّ اسم وصفة.

منزلة المراقبة

قال الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].

وفي حديث جبريلَ ﵇: أنه سَأَلَ النَّبيَّ ﷺ عنِ الإحسانِ؟ فقال له: «**أنْ تَعبُدَ الله كأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لمْ تَكُنْ تَراهُ فإنَّهُ يَراكَ**»[1].

المراقبة: دوام عِلم العبد، وتيقُّنِه باطِّلاع الحقِّ ﷻ على ظاهره وباطنِه، فاستدامتُه لهذا العلم واليقينِ هي المراقبة، وهي ثمرة عِلمه بأنَّ الله سبحانه رقيب عليه، ناظرٌ إليه، سامعٌ لقوله، وهو مطَّلِع على عمله كلَّ وقت وكلَّ لحظة، وكلَّ نفَس وكلَّ طَرفةِ عين، والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات، فكيف بحال المريدين؟ فكيف بحال العارفين؟

وقال ذو النُّون ﵀: «علامة المراقبة: إيثارُ ما أنزل الله، وتعظيمُ ما عظَّم اللهُ، وتصغيرُ ما صغَّر اللهُ».

وقال أبو حفص لأبي عثمانَ النَّيسابوريِّ -رحمهما الله-: «إذا جلسْتَ للنَّاسِ فكن واعظًا لقلبك ونفسِك، ولا يَغُرَّنَّك اجتماعُهم عليك، فإنَّهم يراقبون ظاهرَك، والله يراقب باطنك».

وأرباب الطَّريقِ مُجمِعون على أنَّ مراقبة الله في الخواطر: سببٌ لحفظه في

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

حركات الظَّواهر، فمَن راقب الله في سرِّه: حفظه الله في حركاته في سرِّه وعلانيته.

والمراقبة: هي التَّعبُّد باسمه (الرَّقيب)، (الحفيظ)، (العليم)، (السميع)، (البصير)، فمَن عَقَل هذه الأسماء، وتعبَّدَ بمقتضاها: حصلَتْ له المراقبة.

منزلة الإخلاص

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]. وقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ٢].

قال الفُضَيل بن عِيَاض رحمه الله: «هو أخلصُه وأصوبه، قالوا: يا أبا عليٍّ، ما أخلصُه وأصوبُه؟ فقال: إنَّ العمل إذا كان خالصًا، ولم يكنْ صوابًا؛ لمْ يُقبَل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا: لم يُقبل؛ حتى يكونَ خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصَّواب أن يكون على السُّنَّة، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف: ١١٠]».

وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ [النساء: ١٢٥]، فإسلام الوجهِ لله تعالى: إخلاصُ القصدِ والعمل له، والإحسانُ فيه: متابعةُ رسوله ﷺ وسُنَّتِه.

وقال النبيُّ ﷺ لسعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه: **«إنَّكَ لن تُخلَّفَ فتعملَ عَملًا تبتَغي بِهِ وَجْهَ الله تعالى إلَّا ازددْتَ بهِ خيرًا، ودَرَجةً ورِفْعةً»**[1].

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٥)، ومسلم (١٦٢٨).

وأخبَرَ عن أوَّلِ ثلاثةٍ تُسَعَّرُ بهمُ النَّارُ: قارِئُ القُرآنِ، والمُجاهِدُ، والمُتَصَدِّقُ بمالِه، الَّذِينَ فَعَلُوا ذلكَ لِيُقالَ: فُلانٌ قارِئٌ، فُلانٌ شُجاعٌ، فُلانٌ مُتصَدِّقٌ، ولمْ تكنْ أعمالُهُم خالِصةً لله[1].

وفي الحديث الصَّحيح الإلهيِّ يقول الله تعالى: «أنا أغْنى الشُّركاءِ عنِ الشِّرْكِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أشرَكَ فيهِ غَيْرِي فهو لِلَّذي أشرَكَ بهِ، وأنا مِنهُ بَريءٌ»[2]، وفي الصَّحيح عنه ﷺ: «إنَّ الله لا يَنظُرُ إلى أجسامِكُم، ولا إلى صُوَرِكُم، ولكِنْ يَنظُرُ إلى قُلُوبِكُم»[3].

وقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

وقد تنوَّعت عبارتهم في الإخلاص، والقصدُ واحد.

فقيل: هو إفراد الحقِّ سبحانه بالقصد في الطاعة.

وقيل: التوقِّي من ملاحظة الخَلْق حتى عن نفْسك، والصِّدقُ: التَّنقِّي من مطالعة النَّفْس، فالمخلص لا رياءَ له، والصَّادقُ لا إعجاب له، ولا يتمُّ الإخلاصُ إلَّا بالصِّدق، ولا الصِّدقُ إلَّا بالإخلاص، ولا يَتِمَّانِ إلَّا بالصَّبر.

وقيل: الإخلاص: نِسيانُ رُؤية الخَلْق بدوام النظر إلى الخالق، ومَن تَزيَّنَ للناس بما ليس فيه سقَطَ من عَينِ الله.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) بنحوه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

ومن كلام الفُضَيل رحمه الله: «ترْكُ العمل مِن أجْلِ الناس رياء، والعمل مِن أجْلِ الناس شِرْك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما».

آفات تعرض للعبد في عمله:

يعرض للعامل في عمله ثلاثُ آفات: رؤيته وملاحظتُه، وطلب العِوض عليه، ورضاه به وسكونُه إليه.

فالذي يُخلِّصه من رؤية عملِه: مشاهدتُه لِمنَّة الله عليه، وفضْلِه وتوفيقه له، وأنَّه بالله لا بنفسه، وأنَّه إنَّما أوجب عملَه مشيئةُ الله لا مشيئتُه هو، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وأنَّه لو خُلِّي ونفْسَه لم يكن مِن فعلِه الصَّالحِ شيءٌ البتَّة، فإنَّ النَّفْس جاهلةٌ ظالمة، طبعُها الكسل، وإيثارُ الشهوات والبطالة، وهي منبع كلِّ شرٍّ، ومأوى كلِّ سوء، وما كان هكذا لم يَصدُرْ منه خير، ولا هو من شأنه.

فالخير الَّذي يَصدُرُ منها إنَّما هو من الله تعالى وبه، لا من العبد، ولا به، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١]، وقال أهل الجنَّة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فكلُّ خير في العبد فهو مجرَّد فضلِ الله ومِنَّتِه، وإحسانِه ونعمته، وهو المحمود عليه.

فرؤية العبد لأعماله في الحقيقة، كرؤيته لصفاته الخلْقيَّة مِن سمعِه وبصرِه،

وإدراكه وقوَّتِه، بل من صحَّتِه، وسلامةِ أعضائه، ونحوِ ذلك، فالكُلُّ مجرَّدُ عطاء الله ونعمتِه وفضله.

فالذي يُخلِّص العبدَ من هذه الآفةِ: معرفةُ ربِّه، ومعرفةُ نفْسِه.

والذي يخلِّصُه مِن طلبِ العِوَض على العمل: عِلْمُه بأنَّه عبدٌ محض، والعبد لا يستحِقُّ على خدمته لسيِّده عِوضًا ولا أجرة؛ إذ هو يخدمُه بمقتضى عبوديَّتِه، فما يناله من سيِّده من الأجر والثَّوابِ تفضُّلٌ منه، وإحسان إليه، وإنعامٌ عليه، لا معاوضة؛ إذِ الأجرة إنما يستحقُّها الحُرُّ، أو عبدُ الغير، فأمَّا عبده نفْسهِ فلا.

والذي يخلِّصه من رضاه بعمله وسكونِه إليه أمْران: أحدهما: مطالعة عيوبه وآفاته، وتقصيرِه فيه، وما فيه من حظِّ النَّفْس، ونصيبِ الشيطان، فقَلَّ عملٌ من الأعمال إلَّا وللشيطان فيه نصيب، وإن قلَّ، وللنفس فيه حظٌّ.

سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عنِ التِفاتِ الرَّجُلِ في صَلاتِه؟ فقال: «**هو اختِلاسٌ يَختَلِسُه الشَّيطانُ مِن صَلاةِ العَبد**»[1].

فإذا كان هذا التفاتُ طَرْفِه أو لَحْظِه؛ فكيف التفاتُ قلبه إلى ما سوى الله؟ هذا أعظم نصيبِ الشيطان من العبودية.

الثاني: عِلمُه بما يستحقُّه الربُّ ﷻ من حقوق العبوديَّة، وآدابِها الظاهرة

(١) أخرجه البخاري (٧٥١).

والباطنة، وشروطها، وأن العبد أضعفُ وأعجز وأقلُّ من أن يوفِّيَها حقَّها، وأن يرضى بها لربه، فالعارف لا يرضى بشيء من عمله لربِّه، ولا يرضى نفْسَه لله تعالى طرفةَ عين، ويستحيي من مقابلة الله بعمله.

فسوء ظنِّه بنفسه وعملِه، وبُغضُه لها، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله: يحول بينه وبين الرِّضا بعمله، والرِّضا عن نفسه.

منزلة الاستقامة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

سُئِل صِدِّيق الأمَّة وأعظمُها استقامةً أبو بكر الصديقُ ﷺ عن الاستقامة؟ فقال: «أن لا تشركَ بالله شيئًا» يريد: الاستقامةَ على محض التَّوحيد.

وقال عُمر بنِ الخطَّاب ﷺ: «الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنَّهي، ولا تَروغَ رَوَغانَ الثَّعالب».

وسمعتُ شيخ الإسلام ابنَ تَيميَّة ﷺ يقول: «استقاموا على محبَّته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يَمْنةً ولا يَسْرةً».

وفي صحيح مسلم عن سفيانَ بنِ عبد الله قال: قلت: يا رسولَ الله، قُلْ لي في الإسلامِ قَولًا لا أسألُ عنه أحَدًا غيرَكَ، قال: «**قُلْ: آمَنْتُ بالله، ثُمَّ استَقِمْ**»(١).

وعن ثَوبانَ عن النبي ﷺ قال: «**استَقِيمُوا ولن تُحْصُوا، واعلَمُوا أنَّ خيرَ أعمالِكُمُ الصَّلاةُ، ولا يُحافِظُ على الوُضُوءِ إلَّا مؤْمِنٌ**»(٢).

والمطلوب من العبد الاستقامة، وهي السَّداد، فإن لم يَقْدِر عليها فالمقارَبة، فإنْ نزل عنها فالتَّفريطُ والإضاعة، كما في حديث أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ:

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٧٧)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١١٥).

«سَدِّدُوا وقارِبُوا، واعلَمُوا أنَّه لن يَنجُوَ أحَدٌ مِنكُم بعَمَلِه»، قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟ قال: «ولا أنا، إلَّا أن يَتغَمَّدَني الله برَحمةٍ مِنهُ وفَضْلٍ»[1].

فجمَع في هذا الحديث مقاماتِ الدِّين كلَّها، فأمر بالاستقامة، وهي السَّداد والإصابة في النيَّات والأقوالِ والأعمال.

وأخبر في حديث ثَوبانَ أنهم لا يُطيقونها، فنقَلَهم إلى المقاربة، وهي: أن يقربوا من الاستقامة بحسَب طاقتهم، كالذي يَرمي إلى الغرض، فإنْ لم يُصِبْه يقارِبه، ومع هذا فأخبرهم: أنَّ الاستقامة والمقاربةَ لا تُنجي يوم القيامة، فلا يَركنْ أحدٌ إلى عمله، ولا يعجب به، ولا يرى أنَّ نجاته به، بل إنَّما نجاتُه برحمة الله وعفوِه وفضله.

فالاستقامة كلمة جامعة، آخِذةٌ بمجامعِ الدِّين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصِّدق، والوفاء بالعهد.

والاستقامة تتعلَّق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيَّات، فالاستقامة فيها: وقوعُها لله، وبالله، وعلى أمر الله.

قال بعض العارفين: «كن صاحبَ الاستقامة، لا طالبَ الكرامة، فإنَّ نفْسَك متحرِّكةٌ في طلب الكرامة، وربُّك يطالِبُك بالاستقامة».

وسمِعتُ شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ رحمه الله يقول: «أعظَمُ الكرامة: لزوم الاستقامة».

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) واللفظ له.

أصلان للاستقامة:

والسَّلف يَذْكرون [أصلين للاستقامة] وهما: الاقتصاد في الأعمال، والاعتصامُ بالسُّنَّة، فإنَّ الشيطان يَشمُّ قلبَ العبد ويختبرُه، فإن رأى فيه داعيةً للبدعة، وإعراضًا عن كمال الانقياد للسُّنة: أخرجه عن الاعتصام بها.

وإنْ رأى فيه حِرصًا عليها، وشِدَّة طلبٍ لها: لم يظفرْ به من باب اقتطاعه عنها، فأمره بالاجتهاد، والجور على النَّفْس، ومجاوزة حدِّ الاقتصاد فيها، قائلًا له: إنَّ هذا خير وطاعة، والزيادة والاجتهاد فيها أولى، فلا تفتر مع أهل الفتور، ولا تَنَمْ مع أهل النوم، فلا يزال يَحُثُّه ويُحرِّضه، حتى يُخرجَه عن الاقتصاد فيها.

قال بعض السلف: «ما أمَر الله بأمرٍ إلَّا وللشيطان فيه نزعتان، إمَّا إلى تفريط، وإمَّا إلى مجاوزة -وهي الإفراط- ولا يبالي بأيِّهما ظفر».

وقال رسولُ الله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «يا عَبْدَ الله بنَ عَمرٍو، إنَّ لكُلِّ عاملٍ شِرَّةً، ولكُلِّ شِرَّةٍ فترةً، فمَنْ كانَتْ فترتُه إلى سُنَّتِي أفلَحَ، ومَن كانَتْ فَتْرَتُه إلى بِدْعةٍ خابَ وخَسِرَ»[1]، قال له ذلك حين أمره بالاقتصاد في العمل.

فكلُّ الخير في اجتهادٍ باقتصاد، وإخلاصٍ مقرونٍ بالاتِّباع.

---

(١) أخرجه أحمد (٦٧٦٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٢١٥٢).

منزلة التوكل

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال عن أصحاب نبيه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وفي الصَّحيحين -في حديث السَّبعينَ ألْفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب-: «هُمُ الَّذِينَ لا يَستَرقُونَ، ولا يَتطيَّرُونَ، ولا يَكْتَوُونَ، وعلى رَبِّهِم يَتوكَّلُونَ»(١).

وفي الصَّحيحين: أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهمَّ لكَ أسلَمْتُ، وبكَ آمَنْتُ، وعليكَ توكَّلْتُ، وإليكَ أَنبْتُ، وبكَ خاصَمْتُ، اللهمَّ إنِّي أعُوذُ بعِزَّتِكَ، لا إلهَ إلَّا أنتَ: أن تُضِلَّني، أنتَ الحَيُّ الَّذي لا يَمُوتُ، والجِنُّ والإنسُ يَمُوتُونَ»(٢).

وفي التِّرمذي عن عُمرَ رضي الله عنه مرفوعًا: «لو أنَّكُم تتوكَّلُونَ على الله حَقَّ توكُّلِه، لَرَزَقكُم كما يَرزُقُ الطَّيرَ، تَغْدُو خِماصًا وتَرُوحُ بِطانًا»(٣).

وفي السُّنن عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قال -يعني إذا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥) واللفظ له، ومسلم (٢٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٨٣،٧٣٨٥)، ومسلم (٢٧١٧) واللفظ له.

(٣)أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣١٠).

خَرَجَ مِن بَيتِه- بِاسمِ الله، تَوكَّلْتُ على الله، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله؛ يُقالُ لهُ: هُدِيتَ وكُفِيتَ وَوُقِيتَ، فيَقولُ الشَّيطانُ لِشيطانٍ آخَرَ: كيفَ لكَ بِرَجُلٍ قد هُدِيَ وكُفِيَ ووُقِيَ؟»[1].

التَّوكُّل نِصفُ الدِّين، ونِصفُه الثاني الإنابة؛ فإنَّ الدِّين استعانةٌ وعبادة، فالتَّوكُّلُ هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة.

ومنزلته أوسع المنازل وأجمعُها، ولا تزال معمورةً بالنازلين، لسَعة متعلَّقِ التَّوكُّل، وكثرةِ حوائج العالَمين، وعمومِ التَّوكُّلِ، ووقوعِه من المؤمنينَ والكفَّار، والأبرار والفجَّار، والطَّيرِ والوحش والبهائم، فأهلُ السموات والأرض -المكلَّفون وغيرهم- في مَقام التَّوكُّل، وإنْ تبايَنَ متعلقُ توكُّلِهم.

فأولياؤه وخاصَّتُه متوكِّلونَ عليه في حصول ما يرضيه منهم، وفي إقامته في الخلْق، فيتوكَّلون عليه في الإيمان، ونُصرةِ دينه، وإعلاءِ كلماته، وجهاد أعدائه، وفي محابِّه وتنفيذِ أوامره.

ودون هؤلاء مَن يتوكَّل عليه في استقامته في نفْسِه، وحِفْظِ حالِه مع الله، فارغًا من الناس.

ودون هؤلاء مَن يتوكَّلُ عليه في معلوم ينالُه منه، مِن رزق، أو عافية، أو نصرٍ على عدوٍّ، أو زوجةٍ أو ولد، ونحو ذلك.

ودون هؤلاء مَن يتوكَّل عليه في حصول ما لا يحبُّه ويرضاه من الظُّلم

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩٠)، والترمذي (٣٤٢٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٩٩).

والعُدوانِ وحصولِ الإثم والفواحش، فإنَّ أصحاب هذه المطالبِ لا ينالونها غالبًا إلَّا باستعانتهم بالله، وتوكُّلِهم عليه، بل قد يكون توكُّلُهم أقوى من توكُّل كثيرٍ من أصحاب الطاعات، ولهذا يُلقون أنفسهم في المتالف والمهالك، معتمدين على الله أن يسَلِّمهم، ويُظَفِّرَهم بمطالبهم.

فأفضل التَّوكُّل: التوكُّل في الواجب أعني: واجبَ الحقِّ، وواجبَ الخلْق، وواجبَ النَّفْس، وأوسعه وأنفعُه التَّوكُّلُ في التأثير في الخارج في مصلحةٍ دينيَّة، أو في دفع مفسدةٍ دينيَّة، وهو توكُّل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكُّل ورثتِهم، ثم النَّاسُ بعدُ في التوكُّل على حسَب هِمَمِهم ومقاصدهم، فمِن متوكِّلٍ على الله في حصول الملك، ومِن متوكِّلٍ في حصول رغيف.

ومَن صَدَق توكُّلُه على الله في حصول شيءٍ ناله، فإنْ كان محبوبًا له مَرْضيًّا كانت له فيه العاقبةُ المحمودة، وإن كان مسخوطًا مبغوضًا كان ما حصل له بتوكُّله مضرَّةً عليه، وإن كان مباحًا حصلتْ له مصلحةُ التَّوكُّلِ دون مصلحةِ ما توكَّل فيه، إن لم يَستعِنْ به على طاعاته.

قال الإمام أحمد رحمه الله: «التوكُّل عمَلُ القلب»، وسُئل يحيى بنُ معاذ رحمه الله: «متى يكون الرَّجلُ متوكِّلًا؟ فقال: إذا رضيَ بالله وكيلًا».

ومنهم مَن يفسِّره بالثِّقة بالله، والطُّمأنينةِ إليه، والسُّكونِ إليه.

قال ذو النُّون رحمه الله: «هو تركُ تدبير النَّفس، والانخلاعُ من الحول والقوَّةِ».

وأجمع القوم على أنَّ التوكُّل لا ينافي القيامَ بالأسباب، بل لا يصحُّ إلَّا مع القيام بها، وإلَّا فهو بطالة وتوكُّلٌ فاسد.

وحقيقة الأمر: أن التوكُّل حالٌ مركَّبة من مجموع أمور، لا تَتِمُّ حقيقةُ التوكل إلا بها.

درجات التوكل:

فأوَّلُ ذلك: معرفةٌ بالرَّبِّ وصفاتِه من قُدرته، وكفايته، وقَيُّومِيَّتِه، وانتهاء الأمور إلى عِلمه، وصدورِها عن مشيئته وقدرته، وهذه المعرفة أوَّلُ درجة يضع بها العبدُ قدمَه في مقام التوكل.

الدَّرجةُ الثَّانيةُ: إثبات الأسباب والمسبَّبات فالتوكل من أعظمِ الأسبابِ التي يحصُلُ بها المطلوب، ويندفع بها المكروه، فمَن أنكر الأسبابَ لم يستقم منه التوكلُ، ولكن من تمام التوكلِ عدمُ الرُّكونِ إلى الأسباب، وقطع عَلاقةِ القلب بها؛ فيكون حالُ قلبِه قيامَه بالله لا بها، وحالُ بدنِه قيامَه بها.

الدَّرَجةُ الثَّالِثةُ: رُسُوخُ القَلبِ في مَقامِ تَوحيدِ التَّوكُّلِ؛ فإنَّه لا يستقيم توكُّلُ العبدِ حتى يصحَّ له توحيدُه؛ بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامتْ فيه علائقُ الشِّرك، فتوكُّلُه معلولٌ مدخول، وعلى قدر تجريدِ التوحيد تكون صحَّةُ التوكُّل، فإنَّ العبد متى التفتَ إلى غير الله أخذ ذلك الالتفاتُ شُعبةً مِن شُعَب قلبه، فنقص مِن توكُّله على الله بقدر ذهابِ تلك الشُّعبة، ومن هاهنا ظَنَّ مَن ظَنَّ أنَّ التوكُّلَ لا يصحُّ إلَّا برفض الأسباب، وهذا حقٌّ،

لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح، فالتوكلُ لا يَتِمُّ إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلُّقِ الجوارح بها، فيكون منقطعًا منها متَّصِلًا بها.

الدَّرَجةُ الرَّابِعةُ: اعتِمادُ القَلبِ على اللهِ، واستِنادُه إليهِ، وسُكُونُه إليهِ بحيث لا يبقى فيه اضطرابٌ من تشويش الأسباب، ولا سكونٌ إليها، بل يخلع السُّكونَ إليها من قلبه، ويُلبِسُه السُّكونَ إلى مسبِّبها.

وعلامة هذا أنَّه لا يبالي بإقبالها وإدبارِها، ولا يضطرِبُ قلبُه ويَخفِق عند إدبار ما يُحبُّ منها، وإقبالِ ما يَكره؛ لأنَّ اعتماده على الله، وسكونَه إليه، واستنادَه إليه، قد حصَّنه مِن خوفها ورجائِها، فحالُه حالُ مَن خرج عليه عدوٌّ عظيم لا طاقةَ له به، فرأى حِصنًا مفتوحًا، فأدخله ربُّه إليه، وأغلق عليه بابَ الحِصن، فهو يشاهد عدوَّه خارجَ الحِصن، فاضطراب قلبِه وخوفُه منهم في هذه الحال لا معنى له.

وكذلك مَن أعطاه ملِكٌ درهمًا، فسُرِق منه، فقال له الملِك: عندي أضعافُه، لا تَهتَمَّ، متى جئتَ إليَّ أعطيتُك مِن خزائني أضعافَه، فإذا علِم صحَّةَ قولِ الملِك، ووثِق به، واطمأنَّ إليه، وعَلِمَ أنَّ خزائنَه مليئةٌ بذلك؛ لم يحزنه فوتُه.

الدَّرَجةُ الخامِسةُ: حُسْنُ الظَّنِّ باللهِ تعالى، فعلى قدْر حُسنِ ظنِّك به ورجائِك له، يكون توكُّلُك عليه؛ ولذلك فسَّر بعضُهم التوكُّلَ بحُسن الظَّنِّ، فقال: التوكل: حُسنُ الظنِّ بالله.

والتَّحقيق: أنَّ حُسنَ الظَّنِّ به يدعوه إلى التَّوكُّل عليه، إذْ لا يُتصوَّرُ

التَّوكُّلُ على مَن تُسيء ظنَّك به، ولا التَّوكُّلُ على مَن لا ترجوه.

الدَّرجةُ السَّادسةُ: استِسلامُ القلبِ لهُ، وانجِذابُ دَواعِيهِ كلِّها إليهِ، وقَطْعُ مُنازَعاتِه.

وهذا معنى قولِ بعضهم: التوكلُ إسقاطُ التدبير، يعني: الاستسلامَ لتدبيرِ الرَّبِّ لك، وهذا في غير باب الأمرِ والنَّهيِ، بل فيما يفعله بك، لا فيما أمَرَك بفعله.

الدَّرجةُ السَّابعةُ: التَّفويضُ، وهو رُوح التوكُّلِ ولُبُّه وحقيقته، وهو إلقاء أمورِه كلِّها إلى الله، وإنزالُها به طلبًا واختيارًا، لا كُرهًا واضطرارًا، بل كتفويض الابنِ العاجز الضَّعيفِ المغلوب أمورَه إلى أبيه، العالمِ بشفقته عليه ورحمتِه، وتمام كفايته، وحُسنِ ولايتِه له، وتدبيرِه له، فهو يرَى أنَّ تدبيرَه له خيرٌ من تَدبيره لنفسِه، وقيامَه بمصالحه وتولِّيَه لها خيرٌ من قيامه هو بمصالحِ نفْسِه وتولِّيه لها، فلا يَجِدُ له أصلَحَ ولا أرفقَ من تفويضه أمورَه كلَّها إلى أبيه، وراحتِه من حمل كلفتها وثقل حملها، مع عجزه عنها، وجهْلِه بوجوه المصالح فيها، وعِلمه بكمال عِلم مَن فوَّض إليه، وقدرتِه وشفقته.

الدرجة الثامنة: فإذا وَضعَ قَدَمَه في هذهِ الدَّرجةِ، انتَقَلَ منها إلى دَرَجةِ الرِّضا وهي ثمرة التَّوكُّل.

وكان شيخُنا رحمه الله يقول: «المقدور يَكتنِفُه أمْران: التوكُّلُ قبلَه، والرضا بعده، فمَن توكَّل على الله قبلَ الفعل، ورضيَ بالمَقضِيِّ له بعد الفعل؛ فقد قام بالعبوديَّة».

قلت: وهذا معنى قولِ النَّبيِّ ﷺ في دعاء الاستِخارة: «**اللهمَّ إنِّي أستَخيرُكَ بعِلْمِكَ، وأستَقدِرُكَ بقُدرَتِكَ، وأسألُكَ مِن فَضلِكَ العَظيم**»، فهذا توكُّل وتفويض، ثم قال: «**فإنَّكَ تَعْلَمُ ولا أعلَمُ، وتَقدِرُ ولا أقدِرُ، وأنتَ عَلَّامُ الغُيوبِ**»، فهذا تبرُّؤٌ إلى الله من العِلم والحَولِ والقوَّة، وتوسُّلٌ إليه سبحانه بصفاته التي هي أحبُّ ما توَسَّل إليه بها المتوسِّلون، ثم سأل ربَّه أن يقضيَ له ذلك الأمرَ إن كان فيه مصلحتُه، عاجلًا أو آجلًا، وأن يَصرِفَه عنه إن كان فيه مضرَّتُه، عاجلًا أو آجلًا، فهذا هو حاجتُه التي سألها، فلم يبقَ عليه إلَّا الرِّضا بما يقضيه له، فقال: «**واقْدُرْ لِيَ الخَيرَ حيثُ كان، ثُمَّ رَضِّني بهِ**»[1].

فقد اشتمل هذا الدُّعاءُ على هذه المعارفِ الإلهيَّة، والحقائقِ الإيمانيَّة، التي مِن جملتها التوكُّلُ والتفويضُ قبل وقوع المقدور، والرِّضا بعدَه، وهو ثمرة التوكُّل والتفويضِ، وعلامةُ صحَّتِه، فإن لم يرضَ بما قُضيَ له؛ فتفويضُه معلولٌ فاسد.

فباستكمال هذه الدَّرجاتِ الثمانِ يَستكمِلُ العبدُ مقامَ التوكل، وتثبُتُ قَدَمُه فيه.

والتوكلُ من أعمِّ المقامات تعلُّقًا بالأسماء الحسنى؛ فإنَّ له تعلُّقًا خاصًّا بعامَّة أسماء الأفعال، وأسماءِ الصفات، فله تعلُّقٌ باسم (الغفَّار)، و(التَّوَّاب)، و(العفو)، و(الرَّحيم)، وتعلُّقًا باسم (الفتاح)، و(الوهاب)، و(الرزاق)،

(١) أخرجه البخاري (٦٣٨٢).

و(المعطي)، و(المحسن)، وتعلقًا باسم (المعز)، (المذل)، (الخافض)، (الرافع)، (المانع)، من جهة توكُّلِه عليه في إذلال أعداءِ دينه، وخَفْضِهم ومَنْعِهِم أسبابَ النصرة، وتعلُّقًا بأسماء القدرةِ والإرادة، وله تعلُّقٌ عامٌّ بجميع الأسماء الحسنى؛ ولهذا فسَّره مَن فسَّره مِن الأئمَّة بأنَّه المعرفة بالله.

وإنَّما أراد أنَّه بحسَب معرفةِ العبد يصحُّ له مقامُ التوكل، وكلَّما كان بالله أعرفَ؛ كان توكُّله عليه أقوى.

[ومن التوكل: إسقاطُ الطَّلَبِ] مِن الخلْق لا من الحق، فلا يطلب من أحد شيئًا، فإنَّ الطلب مِن الخلْق في الأصل محظور، وغايته: أن يباح للضرورة، كإباحة الميتة للمضطر، ونصَّ أحمدُ ﵀ على أنَّه لا يجب، وكذلك كان شيخُنا يشير إلى أنَّه لا يجب الطلب والسؤال.

وسمِعتُه يقول في السؤال: «ظُلْمٌ في حقِّ الرُّبوبيَّة، وظُلْمٌ في حقِّ الخلْق، وظلمٌ في حقِّ النفْس».

أمَّا في حق الربوبية، فلِما فيه من الذُّلِّ لغير الله، وإراقةِ ماء الوجه لغير خالقه، والتعوُّض عن سؤاله بسؤال المخلوقين.

وأما في حقِّ النَّاسِ، فبمنازعتهم ما في أيديهم بالسؤال، واستخراجه منهم، وأبغض ما إليهم مَن يسألهم، وأحَبُّ ما إليهم مَن لا يسألهم، فإنَّ أموالهم محبوباتُهم، ومَن سألك محبوبك فقد تعرَّض لَمقتك وبُغضِك.

وأمَّا ظُلْمُ السائلِ نفْسه حيث امتهنها، وأقامها في مقام ذُلِّ السؤال، ورضيَ لها بذُلِّ الطلب ممَّن هو مِثْلُه، أو لعلَّ السائلَ خيرٌ منه وأعلى قدرًا.

فسؤال المخلوق للمخلوق سؤالُ الفقير للفقير، والرَّبُّ تعالى كلَّما سألْتَه كَرُمْتَ عليه، ورضيَ عنك، وأحبَّك، والمخلوقُ كلما سألتَه هُنْتَ عليه وأبغضك وقَلاك، كما قيل:

اللهُ يَغضَبُ إنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ
وبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسألُ يَغضَبُ

وقبيح بالعبد المريد أن يتعرَّض لسؤال العبيد وهو يجد عند مولاه كلَّ ما يريد.

وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجَعيِّ رضي الله عنه قال: كُنَّا عِندَ رسولِ الله ﷺ تِسعةٌ أو ثَمانيةٌ، أو سَبعةٌ فقال: «**ألا تُبايِعُونَ رَسُولَ الله؟**»، وكُنَّا حَدِيثي عَهدٍ بِبَيْعةٍ، فقُلْنا: قد بايَعْناكَ يا رسولَ الله، ثُمَّ قال: «**ألا تُبايِعُونَ رَسُولَ الله؟**» فَبَسَطْنا أيدِيَنا وقُلْنا: قد بايَعْناكَ يا رسولَ الله، فعَلَامَ نُبايِعُكَ؟ فقال: «**أنْ تَعبُدُوا الله، ولا تُشرِكُوا بِهِ شَيْئًا، والصَّلَواتِ الخَمْسِ - وأسَرَّ كَلِمةً خَفِيَّةً - ولا تَسأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا**»، قال: ولقد رأيْتُ بعضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أحدِهِم فما يَسألُ أحَدًا أن يُناوِلَه إيَّاهُ[1].

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٤٣).

منزلة الصبر

قال الإمام أحمد رحمه الله: «ذكر اللهُ الصَّبرَ في القرآن في نحو تسعينَ موضعًا».

وهو واجبٌ بإجماع الأمَّة، وهو نصف الإيمان، فإنَّ الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

وهو في القرآن على ستَّةَ عشَرَ نوعًا:

الأول: الأمر به، نحو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

الثاني: النَّهيُ عن ضدِّه كقوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥].

الثالث: الثَّناءُ على أهله، كقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

الرابع: إيجابُه سبحانه محبَّتَه لهم، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

الخامس: إيجابُ مَعيَّتَه لهم، وهي معيَّةٌ خاصَّةٌ، تتضمَّنُ حِفْظَهم، ونصْرَهم، وتأييدَهم، ليست معيَّةً عامَّةً، وهي معيَّةُ العِلم والإحاطة، كقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

السادس: إخبارُه بأنَّ الصَّبر خيرٌ لأصحابه، كقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

السابع: إيجابُ الجزاءِ لهم بأحسنِ أعمالِهم، كقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

الثامن: إيجابُه الجزاءَ لهم بغير حساب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

التاسع: إطلاق البُشرى لأهل الصَّبر، كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

العاشر: ضمان النَّصرِ والمددِ لهم، كقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، ومنه قولُ النبيِّ ﷺ: «واعْلَمْ أنَّ النَّصرَ مع الصَّبرِ»[1].

الحادي عشر: الإخبار أنَّ أهل الصَّبرِ هم أهلُ العزائم، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

الثاني عشر: الإخبار أنَّه ما يُلَقَّى الأعمالَ الصَّالحةَ وجزاءَها والحظوظَ العظيمةَ إلَّا أهلُ الصَّبرِ، كقوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٥].

الثالثَ عشرَ: الإخبار أنَّه إنَّما يَنتفعُ بالآيات والعِبَرِ أهلُ الصَّبرِ، كقوله تعالى:

(١) أخرجه أحمد (٢٣٠٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٨٢).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم: ٥].

الرَّابعَ عشرَ: الإخبار بأنَّ الفوزَ بالمطلوب، والنَّجاةَ من المرهوب، ودخولَ الجنَّة، إنَّما نالُوه بالصَّبر، كقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤].

الخامسَ عشرَ: أنَّه يورِثُ صاحبَه درجة الإمامةَ، سمِعتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ - قدَّس اللهُ رُوحَه - يقول: بالصَّبرِ واليقين، تُنالُ الإمامةُ في الدِّين، ثم تلا قولَه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

السادسَ عشرَ: اقترانُه بمقامات الإسلام والإيمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان، وبالتقوى والتوكُّل، والشكرِ، والعملِ الصَّالحِ والمَرْحَمة.

ولهذا كان الصَّبرُ من الإيمان بمنزلة الرَّأسِ من الجسد، ولا إيمانَ لَمن لا صبرَ له، كما أنَّه لا جسد لَمن لا رأس له، قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: «خيرُ عيشٍ أدركْناه بالصَّبر»، وأخبر النَّبيُّ ﷺ في الحديث الصَّحيحِ: «أَنَّهُ ضِياءٌ»[1]، وقال: «مَن يَتَصبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله»[2].

وفي الحديث الصَّحيحِ: «عَجَبًا لِأمرِ المؤْمِنِ! إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لهُ خيرٌ، وليسَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

ذلكَ لِأحدٍ إلَّا لِلمؤمنِ، إنْ أصابَتْهُ سرَّاءُ شكَرَ، فكانَ خيرًا لهُ، وإنْ أصابَتْهُ ضرَّاءُ صبَرَ، فكانَ خيرًا لهُ»[1].

وقال للمرأة السَّوداءِ التي كانت تُصرَعُ فسألته أن يدعوَ لها: «إنْ شئْتِ صَبرْتِ ولكِ الجنَّةُ، وإنْ شئْتِ دعَوْتُ اللهَ أنْ يُعافيَكِ»، فقالتْ: إنِّي أتكشَّفُ، فادْعُ الله أن لا أتكشَّفَ، فدعَا لها[2].

وأمرَ الأنصارَ ﷺ بأن يَصبِرُوا على الأثَرةِ الَّتي يَلْقَوْنَها بَعدَه، حتَّى يَلْقَوْهُ على الحوضِ.

وأمرَ عندَ مُلاقاةِ العدُوِّ بالصَّبرِ، وأمرَ بالصَّبرِ عندَ المُصيبةِ، وأخبرَ أنَّه إنَّما يكُونُ عندَ الصَّدمةِ الأولى.

وأمرَ المُصابَ بأنفعِ الأمُورِ لهُ، وهو الصَّبرُ والاحتسابُ؛ فإنَّ ذلك يخفِّفُ مصيبتَه، ويوفِّرُ أجرَه، والجزَعُ والتسخُّطُ والتشكِّي يَزيدُ في المصيبة، ويُذهِبُ الأجرَ.

وأخبر ﷺ أنَّ الصَّبرَ خيرٌ كلُّه، فقال: «ما أُعطِيَ أحَدٌ عَطاءً خَيرًا لهُ وأوْسَعَ مِنَ الصَّبرِ»[3].

وهو ثلاثة أنواع: صبرٌ على طاعة الله، وصبرٌ عن معصية الله، وصبر على امتحان الله.

---

(1) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

(2) أخرجه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).

(3) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

فالأوّلان: صبرٌ على ما يتعلَّقُ بالكسب، والثالث: صبرٌ على ما لا كسْبَ للعبد فيه.

وسمِعتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ -قدَّسَ اللهُ رُوحَه- يقول: «كان صبرُ يوسفَ عن مطاوعة امرأةِ العزيز عن شأنها: أكملَ مِن صبرِه على إلقاء إخوتِه له في الجُبِّ، وبيعِه وتفريقِهم بينه وبيْن أبيه؛ فإنَّ هذه أمورٌ جرتْ عليه بغير اختياره، لا كسْبَ له فيها، ليس للعبد فيها حيلةٌ غير الصبر، وأمَّا صبرُه عن المعصية: فصبر اختيار ورضا ومحاربةٍ للنَّفْس، ولا سيَّما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي المواقعة، فإنَّه كان شابًّا، وداعيةُ الشباب إليها قويَّة، وعزَبًا ليس له ما يعوِّضه ويبرد شهوتَه، وغريبًا، والغريبُ لا يستحي في بلد غربتِه ممَّا يستحي منه بين أصحابه ومعارفِه وأهله، ومملوكًا، والمملوك أيضًا ليس وازعُه كوازع الحرِّ، والمرأة جميلة، وذاتُ منصب، وهي سيِّدته، وقد غاب الرَّقيبُ، وهي الداعيةُ له إلى نفْسها، والحريصةُ على ذلك أشدَّ الحرص، ومع ذلك توعَّدَتْه إنْ لم يفعلْ بالسجن والصَّغار، ومع هذه الدواعي كلِّها صبرَ اختيارًا، وإيثارًا لِما عند الله، وأين هذا مِن صبره في الجُبِّ على ما ليس من كسبِه؟!».

وكان يقول: «الصبرُ على أداء الطاعات أكملُ من الصبر على اجتناب المحرَّماتِ وأفضل؛ فإنَّ مصلحة فِعلِ الطاعةِ أحَبُّ إلى الشارع من مصلحةِ تركِ المعصية، ومفسدة عدمِ الطاعة أبغضُ إليه وأكرَهُ مِن مفسدة وجودِ المعصية».

وثمة تقسيم آخر للصبر:

صبرٌ بالله، وصبر لله، وصبر مع الله.

فالأول: صبر الاستعانةِ به، ورؤيته أنَّه هو المُصَبِّر، وأن صَبر العبد بربِّهِ لا بنفْسه، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] يعني: إنْ لم يُصبِّرْك هو لم تصبر.

والثاني: الصبر لله، وهو أن يكون الباعثُ على الصبر محبَّةَ الله، وإرادةَ وجهِه، والتقرَّبَ إليه، لا لإظهاره قوَّةِ النفْس، والاستحمادِ إلى الخلْق، وغير ذلك من الأغراض.

والثالث: الصبر مع الله، وهو دوران العبد مع مراد الله الدِّينيِّ منه، ومع أحكامه الدِّينيَّة، صابرًا نفْسَه معها، سائرًا بسَيرها، مقيمًا بإقامتها، يتوجَّهُ معها أين توجَّهَتْ ركائبُها، وينزل معها أين استقلَّت مضاربُها.

فهذا معنى كونِه صابرًا مع الله؛ أي قد جعل نفْسَه وَقفًا على أوامره ومحابِّه، وهو أشدُّ أنواع الصبرِ وأصعبُها، وهو صبرُ الصِّدِّيقين.

وفي كتاب الأدب للبخاريِّ: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عنِ الإيمانِ؟ فقال: «**الصَّبرُ، والسَّماحةُ**»(١).

وهذا مِن أجمَعِ الكلام وأعظمِه برهانًا، وأوعَبِه لمقامات الإيمان من أوَّلِها إلى آخرِها.

---

(١) لم نقف عليه في «الأدب المفرد» وأخرجه أحمد (١٩٤٣٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥٥١).

فإنَّ النَّفْسَ يُراد منها شيئان:

١- بَذْلُ ما أُمرتْ به وإعطاؤُه. فالحامل عليه السماحة.

٢- ترك ما نهيت عنه، والبُعدُ منه؛ فالحامل عليه: الصبرُ.

وقد أمر الله سبحانه في كتابه بالصَّبر الجميل، والصَّفحِ الجميل، والهجر الجميل.

فسمِعتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ -قدَّس اللهُ رُوحَه- يقول: «الصبر الجميلُ هو الذي لا شكوى فيه ولا معه، والصفحُ الجميل هو الذي لا عتابَ معه، والهجرُ الجميل الذي لا أذى معه».

وقال ابنُ عُيَيْنَةَ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] قال: «أخذوا برأس الأمرِ فجعلهم رؤساءَ».

والشَّكوى إلى الله ﷻ لا تنافي الصبر، فإنَّ يعقوب ﵇ وَعَد بالصَّبر الجميل، والنَّبيُّ إذا وعَد لا يُخلِفُ، ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

وكذلك أيُّوبُ ﵇ أخبَر اللهُ عنه أنَّه وجَده صابرًا مع قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وإذا عَرَتْـكَ بَلِيَّـةٌ فاصبِرْ لهـــا
صَبْرَ الكَريـمِ فإنَّـهُ بـكَ أعْلَـمُ

وإذا شَكَوْتَ إلى ابنِ آدَمَ إنَّما
تَشْكُو الرَّحيمَ إلى الَّذي لا يَرْحَمُ

[وبالجملة] **الصبر مِن آكَدِ المنازل في طريق المحبَّة**، وألزَمِها للمحبين، وهم أحوجُ إلى منزلته من كلِّ منزلة، وهو مِن أعرفِ المنازلِ في طريق التَّوحيد وأبيَنِها، وحاجةُ المحِبِّ إليه ضروريَّة.

وقد أمر الله تعالى أحبَّ الخلْقِ إليه بالصبر لحُكمه، وأخبر أنَّ صبره به، وأثنى على الصابرينَ أحسَنَ الثَّناء، وضَمِنَ لهم أعظمَ الجزاء، وجعَل أجرَ غيرِهم محسوبًا، وأجرَهم بغير حساب.

منزلة الرضا

قد أجمع العلماءُ على أنَّه مستحبٌّ، مؤكَّدٌ استحبابُه، واختلفوا في وجوبه على قولين.

ومِن أعظم أسبابِ حصولِ الرِّضا: أن يَلزَمَ ما جعل الله رِضاهُ فيه؛ فإنَّه يوصله إلى مقام الرِّضا ولا بُدَّ.

قيل ليحيى بن مُعاذ ﷺ: «متى يَبلُغُ العبدُ إلى مقام الرِّضا؟ فقال: إذا أقام نفْسَه على أربعة أصولٍ فيما يعامل به ربَّه، فيقول: إنْ أعطيْتَني قَبِلتُ، وإنْ منعْتَني رَضِيتُ، وإنْ تركْتَني عَبَدْتُ، وإنْ دعوْتَني أجَبْتُ».

وليس من شرط الرِّضا ألَّا يُحِسَّ بالألم والمَكارِه؛ بل ألَّا يَعترِضَ على الحُكم ولا يَتسخَّطه، ووجود التألُّمِ وكراهةُ النَّفْسِ له لا ينافي الرِّضا، كرضا المريض بشُرب الدَّواءِ الكَريه، ورضا الصائم في اليوم الشديدِ الحرِّ بما ينالُه من ألم الجوع والظَّمأ، ورضا المجاهد بما يحصُلُ له في سبيل الله من ألم الجراح، وغيرها.

وطريق الرضا طريقٌ مختصرة، قريبة جدًّا، موصلةٌ إلى أجَلِّ غاية، ولكن فيها مشقة، ومع هذا فليست مشقَّتُها بأصعبَ مِن مشقَّةِ طريق الجهاد، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها، وإنَّما عقبتها همَّةٌ عالية، ونفسٌ زكية، وتوطين النَّفْسِ على كلِّ ما يَرِدُ عليها من الله.

ويُسهِّلُ ذلك على العبد: عِلْمُه بضعفِه وعجزِه، ورحمةِ ربِّه، وشفقتِه عليه، وبرِّه به، فإذا شَهِدَ هذا وهذا، ولم يطرح نَفْسَه بين يديه، ويرض به وعنه، وتنجذب دواعي حبِّه ورضاهُ كلِّها إليه: فنفْسُه نفسٌ مطرودةٌ عن الله، بعيدة عنه، ليست مؤهَّلةً لِقُربِه وموالاته، أو نفْسٌ ممتحنةٌ مبتلاة بأصناف البلايا والمِحَن.

فطريق الرضا والمحبَّةِ تُسيِّر العبدَ وهو مُستلقٍ على فراشه، فيصبح أمامَ الرَّكبِ بمراحلَ.

[و] ثمرةُ الرِّضا: الفرحُ والسُّرورُ بالرَّبِّ تبارك وتعالى.

ورأيتُ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ قدَّس اللهُ رُوحَه في المنام، وكأنِّي ذكرتُ له شيئًا من أعمال القلب، وأخذتُ في تعظيمه ومنفعتِه لا أذكره الآنَ فقال: «أمَّا أنا فطريقتي: الفرحُ بالله، والسُّرورُ به»، أو نحو هذا من العبارة.

وهكذا كانت حالُه في الحياة، يبدو ذلك على ظاهره، وينادي به عليه حالُه.

وقال ذو النُّون ﷺ: «ثلاثة من أعلام الرِّضا: ترْكُ الاختيار قبل القضاء، وفقدانُ المرارةِ بعد القضاء، وهيَجانُ الحبِّ في حَشْوِ البلاء».

وقيل للحُسينِ بنِ عليٍّ ﷺ: «إنَّ أبا ذرٍّ يقول: الفقر أحَبُّ إليَّ من الغنى، والسقمُ أحبُّ إليَّ من الصِّحَّة، فقال: رحِمَ اللهُ أبا ذرٍّ، أمَّا أنا فأقول: مَنِ اتَّكلَ على حُسنِ اختيارِ الله له لم يَتمنَّ غيرَ ما اختار الله له».

وقال الفُضَيل بن عِياض لِبشْرِ الحافي: «الرِّضا أفضلُ مِنَ الزُّهد في الدُّنيا؛ لأنَّ الراضي لا يتمنَّى فوقَ منزلته».

مدار مقامات الدين على الرضا:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

قال ابن عبَّاس ﵄: «سيِّدًا وإلهًا، يعني: فكيف أطلُبُ ربًّا غيرَه، وهو ربُّ كلِّ شيء؟!» وقال في أوَّلِ السُّورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]: يعني: معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأً، وهو من الموالاة التي تتضمَّنُ الحُبَّ والطاعة، وقال في وسَطها: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤] أي: أفغيرَ اللهِ أبتغي مَن يَحكُمُ بيني وبيْنكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفْنا فيه؟ وهذا كتابُه سيِّدُ الحكَّام، فكيف نتحاكَمُ إلى غير كتابِه؟ وقد أنزله مفصَّلًا مبيَّنًا، كافيًا شافيًا.

وأنت إذا تأمَّلْتَ هذه الآياتِ الثلاثَ حقَّ التأمُّلِ، رأيْتَها هي نفْسُ الرضا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، ورأيتَ الحديثَ مترجمًا عنها، ومشتقًّا منها، فكثير من الناس يرضى به ربًّا، ولا يبغي ربًّا سِواه، لكنه لا يرضى به وحْدَه وليًّا، بل يوالي مِنْ دونه أولياء، ظنًّا منه أنَّهم يُقرِّبونه إلى الله، وأنَّ موالاتهم كموالاة خواصِّ الملِك، وهذا عين الشِّرك؛ بل التوحيدُ: أن لا يتَّخذ من دونه أولياء.

وكثير من الناس يبتغي غيرَه حَكَمًا، يحاكم إليه، ويُخاصِم إليه، ويَرضى بحُكمه.

وهذه المقامات الثلاثةُ هي أركان التوحيد: أن لا يتَّخِذ سِواه ربًّا، ولا إلهًا، ولا غيرَه حَكَمًا.

من علامات صحة الرضا استواء النعمة والبلية:

تستوي النِّعمةُ والبليَّةُ [عند العبد] في الرضا لوجوه:

١- أنَّه عبدٌ محضٌ، والعبد المحضُ لا يَسخط جرَيانَ أحكامِ سيِّده المُشفِقِ البارِّ النَّاصحِ المحسن.

٢- أنَّه جاهلٌ بعواقب الأمور، وسيِّدُه أعلمُ بمصلحته وما ينفعه.

٣- عِلمُه بأنَّه إذا رضيَ به انقلب في حقِّه نعمةً ومنحة، وخفَّ عليه حملُه، وأُعِينَ عليه، وإذا سخِطه تضاعف عليه ثقلُه وكَلُّه، ولم يَزدَدْ إلَّا شدَّةً.

٤- أن يعلم أنَّ رِضاه عن ربِّه ﷻ في جميع الحالات يُثمِرُ رضا ربِّه عنه.

٥- أنَّ الرِّضا يَفتحُ له بابَ السَّلامة، فيجعلُ قلبَه سليمًا نقيًّا من الغشِّ والدَّغَلِ والغِلِّ، ولا ينجو من عذاب الله إلَّا مَن أتى اللهَ بقلب سليم.

٦- أنَّ الرِّضا يُوجِبُ له أنْ لا يأسى على ما فاته، ولا يفرحَ بما آتاه، وذلك مِن أفضلِ خِصالِ الإيمان.

٧- أن الرضا من أعمال القلوب، نظيرُ الجهاد من أعمال الجوارح، فإنَّ كلَّ واحدٍ منهما ذِروةُ سنامِ الإيمان.

٨- أنَّ الراضي واقفٌ مع اختيار الله له، معرِضٌ عن اختياره لنفْسه، وهذا من قوَّةِ معرفته بربِّه، ومعرفتِه بنفْسِه.

وقد اجتمع وُهَيْبُ بن الوَرْد، وسفيانُ الثَّوريُّ، ويوسفُ بن أَسْباط،

فقال الثَّوريُّ رحمه الله: «قد كنت أكرَهُ موتَ الفُجاءة قبل اليوم، فأمَّا اليوم: فودِدْتُ أنِّي ميت، فقال له يوسف بن أسباط: ولمَ؟ فقال: لِما أتخوَّفُ من الفتنة، فقال يوسف: لكنِّي لا أكرَهُ طولَ البقاء، فقال الثَّوريُّ: ولمَ تكرَهُ الموتَ؟ قال: لعلِّي أصادفُ يومًا أتوبُ فيه وأعملُ عملًا صالحًا، فقيل لوُهَيب: أيُّ شيءٍ تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئًا، أحبُّ ذلك إليَّ أحبُّه إلى الله، فقَبَّل الثَّوريُّ بين عينيه، وقال: رُوحانيَّةٌ وربِّ الكعبة».

فهذا حال عبدٍ قد استوتْ عنده حالةُ البقاء والموت، وقف مع اختيار الله له منهما.

٩- أنَّ رضا الله عن العبد أكبرُ من الجنَّة وما فيها، قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

١٠- أن الرضا يفتح بابَ حُسنِ الخُلُق مع الله ومع الناس؛ فإنَّ حسن الخُلقِ من الرضا، وسوء الخلق من السخط، وحسن الخلق يبلُغ بصاحبه درجةَ الصائم القائم، وسوء الخلق يأكل الحسناتِ كما تأكُلُ النارُ الحطب.

١١- أنَّ الرضا بالقدر يخلِّصُ العبدَ مِن أن يُرضي الناسَ بسخط الله، وأن يذُمَّهم على ما لم يؤته الله، وأن يَحمَدَهم على ما هو محضُ فضلِ الله.

١٢- أنَّ المحبَّةَ والإخلاص والإنابة لا تقوم إلا على ساق الرضا، فالمحِبُّ راضٍ عن حبيبه في كلِّ حالة، وقد كان عِمرانُ بنُ حُصَينٍ رضي الله عنه

استسقى بطنُه، فبقيَ ملقًى على ظهره مدةً طويلة، لا يقوم ولا يقعد، وقد نُقب له في سريره موضعٌ لحاجته، فدخل عليه مُطَرِّف بن عبد الله بنِ الشِّخِّير، فجعل يبكي لِمَا رأى من حاله، فقال له عِمْران: «لِمَ تبكي؟ فقال: لأنِّي أراك على هذه الحالِ العظيمة، فقال: لا تَبْكِ، فإنَّ أحبَّه إليَّ أحبُّه إليه، وقال: أُخبِرُك بشيء، لعلَّ الله أن ينفعَك به، واكتُمْ عليَّ حتى أموت، إنَّ الملائكة تزورني فآنَسُ بها، وتُسلِّمُ عليَّ فأسمَعُ تسليمَها».

١٣- أنَّ أعمالَ الجوارحِ تُضاعَفُ إلى حدٍّ معلوم محسوب، وأمَّا أعمالُ القلوب فلا ينتهي تضعيفُها.

منزلة الشكر

وهي من أعلى المنازل، وهي فوقَ منزلة الرضا وزيادة؛ فالرضا مُندرجٌ في الشكر؛ إذ يَستحيلُ وجودُ الشكر بدونه، وهو نصفُ الإيمان - كما تقدَّم - والإيمان نصفان: نصف شُكْر، ونصف صَبْر، وقد أمَر الله به، ونهى عن ضدِّه، وأثنى على أهله، ووصفَ به خواصَّ خَلْقه، وجعله غايةَ خَلقِه وأمْرِه، ووعَد أهلَه بأحسَنِ جزائه، وجعله سببًا للمزيد من فضله، وحارسًا وحافظًا لِنعمته، وأخبرَ أنَّ أهله هُمُ المُنتفِعون بآياته، واشتَقَّ لهم اسمًا من أسمائه؛ فإنه سبحانه هو الشَّكور، وهو مُوصِل الشاكر إلى مشكوره، بل يُعيد الشاكرَ مشكورًا، وهو غاية رضا الرَّبِّ من عبده.

قال الله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

وفي الصَّحيحين عن النبيِّ ﷺ: «**أنَّه قامَ حتَّى تورَّمَتْ قَدَماه، فقيل له: تَفعَلُ هذا وقد غَفر الله لكَ ما تَقدَّمَ مِن ذَنْبكَ وما تَأخَّرَ؟ قال: أفلا أكُونُ عَبْدًا شَكورًا؟**»(١). وقال لمُعاذ: «**واللهِ يا مُعاذُ، إنِّي لأُحِبُّكَ؛ فلا تَنْسَ أنْ تَقولَ في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ: اللهمَّ أعِنِّي على ذِكْرِكَ، وشُكْرِكَ، وحُسْنِ عِبادَتِكَ**»(٢).

وأصل الشُّكر في وضع اللِّسان: ظهورُ أثرِ الغِذاء في أبدان الحيوان ظُهورًا بيِّنًا، كذلك حقيقتُه في العبودية، وهو ظهورُ أثرِ نعمةِ الله على لسان عبدِه:

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨١٩).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٣)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٥٢٢).

ثناءً واعترافًا، وعلى قلبه شهودًا ومحبَّةً، وعلى جوارحِه انقيادًا وطاعةً.

والشُّكْر مَبنيٌّ على خمسِ قواعدَ: خضوع الشاكر للمشكور، وحبُّه له، واعترافُه بنعمته، والثناءُ عليه بها، وألَّا يستعملها فيما يَكْرَه.

فهذه الخمسة هي أساس الشكر، وبِناؤه عليها، فمتى عُدِمَ منها واحدة: اختلَّ مِن قواعد الشكر قاعدةٌ.

وكل مَن تكلَّم في الشُّكْر وحدِّه، فكلامه إليها يرجع، وعليها يدور.

فقيل: حدُّه أنه الاعترافُ بنِعمة المُنعِم على وجه الخضوع.

وقيل: هو عُكوفُ القلب على محبَّة المُنعِم، والجوارح على طاعته، وجَريان اللِّسان بذِكْره، والثناء عليه.

وقال داودُ عليه السلام: يا ربِّ، كيف أشكُرك؟ وشُكْري نِعمةٌ عليَّ من عندك تَستوجِب بها شُكْرًا؟! فقال: الآن شَكَرْتَني يا داودُ.

وقال الجُنَيد رحمه الله وقد سأله سَرِيٌّ عن الشكر، وهو صَبيٌّ بَعدُ: «الشُّكْرُ: أن لا يُستعانَ بشيء من نِعم الله على معاصيه، فقال: مِن أين لك هذا؟ قال: مِن مُجالستِك».

منزلــة الحيــاء

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١] وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وفي الصحيحِ من حديث ابن عُمرَ رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ الله ﷺ مَرَّ برَجُلٍ - وهو يَعِظُ أخاهُ في الحياءِ - فقال: «**دَعْهُ؛ فإنَّ الحياءَ مِن الإيمانِ**»[1].

وفيهما عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه: «كان رَسولُ الله ﷺ أشَدَّ حَياءً مِنَ العَذْراءِ في خِدْرِها، فإذا رأى شَيئًا يَكْرَهُه عَرَفْناهُ في وَجْهِه»[2].

والحياء من الحياة، وعلى حَسَب حياة القلب يكون فيه قوَّة خُلُقِ الحياء، وقِلَّة الحياء من موت القلب والرُّوح، فكلما كان القلبُ أحيى، كان الحياءُ أتمَّ.

قال الجُنَيد رحمه الله: «الحياءُ رؤية الآلاء، ورؤية التقصير، فيتولَّد بينهما حالةٌ تُسمَّى الحياءَ، وحقيقتُه؛ خُلُقٌ يَبعَثُ على تَرْكِ القبائح، ويَمنَع التَّفريطَ في حقِّ صاحب الحقِّ».

وقال الفُضَيل بن عِياض رحمه الله: «خَمسٌ من علامات الشَّقْوةِ: القسوةُ في القلب، وجُمودُ العين، وقِلَّةُ الحياء، والرغبةُ في الدنيا، وطولُ الأمل».

وقال يَحيى بنُ مُعاذ رحمه الله: «مَنِ استحيا مِن الله مُطيعًا: استحيا منه وهو مُذنِبٌ».

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤)، ومسلم (٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٢)، ومسلم (٢٣٢٠).

وهذا الكلام يحتاج إلى شرح؛ ومعناه: أنَّ مَن غَلَب عليه خُلُقُ الحياء من الله حتى في حال طاعتِه، فقلبه مُطرِقٌ بين يديه إطراق مُستحٍ خَجِلٍ؛ فإنه إذا واقَع ذنبًا استحيا الله ﷻ مِن نظره إليه في تلك الحال لكرامته عليه، فيستحيي أن يرى مِن وليِّه ومَن يَكرُم عليه ما يَشينُه عنده، وفي الشاهد شاهدٌ بذلك؛ فإنَّ الرجُلَ إذا اطَّلع على أخصِّ الناس به، وأحبِّهم إليه، وأقربِهم منه من صاحب، أو ولد، أو مَن يحبُّه وهو يخونه، فإنه يَلحَقه من ذلك الاطلاعِ عليه حياءٌ عجيبٌ، حتى كأنه هو الجاني، وهذا غايةُ الكرم.

وأما حياء الربِّ من عبده: فذاك نوع آخَرُ، لا تُدرِكه الأفهامُ، ولا تُكيِّفه العقولُ؛ فإنه حياءُ كرم وبِرٍّ وجود وجلال؛ فإنه حييٌّ كريمٌ يَستحيي من عبده إذا رفَع إليه يديْه أن يُردَّهما صِفرًا، ويستحيي أن يُعذِّبَ ذا شَيْبةٍ شابتْ في الإسلام.

أوجه الحياء:

وقد قسم الحياء على عشرةِ أوْجه: حياء جِناية، وحياء تقصير، وحياء جَلالٍ، وحياء كَرَم، وحياء حِشْمةٍ، وحياء استِصغار للنَّفس واحتِقار لها، وحياء محبَّة، وحياءُ عبوديَّة، وحياء شرف وعِزَّة، وحياء المُستحيي من نَفْسه.

فأمَّا حياء الجناية: فمنه حياء آدم ﵇، لَمَّا فرَّ هاربًا في الجنة.

وحياء التقصير كحياء الملائكة الذين يُسبِّحون الليل والنهار لا يَفتُرون، فإذا كان يومُ القيامة قالوا: «سُبْحانَك! ما عبدناك حقَّ عبادتِك».

وحياء **الإجلال** هو حياء معرفة، وعلى حَسَب معرفة العبد بربِّه يكون حياؤه منه.

وحياء **الكرم** كحياء النبيِّ ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وَليمةِ زَينبَ، وطَوَّلوا عنده، فقام واستحيا أن يقول لهم: انصرفوا[1].

وحياء **الحشمة** كحياء عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن يسأل رسول الله ﷺ عن المَذْيِ؛ لمكان ابنتِه مِنه[2].

وحياء **الاستِحقار واستِصغار النَّفْس** كحياء العبدِ من ربِّه عز وجل حين يسأله حوائجه، احتِقارًا لشأن نَفْسِه، واستِصغارًا لها.

وأما حياء المحبَّة: فهو حياء المحبِّ من محبوبه، حتى إنَّه إذا خَطَر على قلبه في حال غَيْبتِه هاج الحياءُ من قلبه، وأحسَّ به في وجْهه، ولا يدري ما سببه، وكذلك يَعرِض للمحبِّ عند ملاقاتِه محبوبه ومفاجأته له روعةٌ شديدةٌ.

وأمَّا حياءُ العبودية: فهو حياء مُمتزِج بين محبَّةٍ وخوف، ومشاهدةِ عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قَدْرَه أعلى وأجلُّ منها، فعبوديَّته له تُوجِب استحياءَه منه لا محالة.

وأمَّا حياءُ الشرف والعزَّة: فحياءُ النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدْرها من بذل عطاء أو إحسان، فإنه يستحيي مع بَذْلِه حياءَ شَرفِ نَفْسٍ وعِزَّة، وهذا له سببان:

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٩٣)، ومسلم (١٤٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (١٧٨، ٢٦٩)، ومسلم (٣٠٣).

أحدهما هذا، والثاني: استحياؤه من الآخِذ، حتى إنَّ بعض أهل الكرم لا تُطاوِعه نَفْسُه بمواجهته لمن يُعطيه حياءً منه، وهذا يَدخُل في حياء التكرُّم؛ لأنه يستحيي من خَجْلةِ الآخِذ.

وأمَّا حياءُ المرءِ من نفْسِه؛ فهو حياء النُّفوسِ الشريفة العزيزة مِن رِضاها لنفْسها بالنقص، وبَيعِها بالدُّونِ وهذا أكملُ ما يكون من الحياء؛ فالعبدُ إذا استحيا من نفْسه؛ فهو بأن يستحيي من غيره أجْدرُ.

[و] العبد متى عَلِم أن الربَّ تعالى ناظرٌ إليه أورثه هذا العلمُ حياءً منه، يجذِبه إلى احتمال أعباء الطاعة، مثل العبد إذا عَمِل الشغل بين يدي سيِّده، فإنه يكون نشيطًا فيه، مُحتمِلًا لأعبائه، ولا سيَّما مع الإحسان من سيِّده إليه، ومحبَّتِه لسيِّده، بخلاف ما إذا كان غائبًا عن سيِّده، والربُّ تعالى لا يَغيبُ نظرُه عن عبده، ولكن يغيب نظرُ القلب والتفاتُه إلى نظره سبحانه إلى العبد، فإن القلب إذا غاب نَظرُه، وقلَّ التفاتُه إلى نَظرِ الله تبارك وتعالى إليه: تولَّد من ذلك قِلَّةُ الحياء.

وكذلك يحمله على استقباح جِنايته، وهذا الاستقباح الحاصل بالحياء قَدْرٌ زائدٌ على استقباح ملاحظة الوعيد، وهو فوقه.

وأرفع درجة منه: الاستقباحُ الحاصلُ عن المحبَّة، فاستقباح المحبِّ أتمُّ من استقباح الخائف؛ ولذلك فإن هذا الحياء يَكفُّ العبدَ أن يشتكي لغير الله، فيكون قد شكا الله إلى خلْقه، ولا يَمنَعُ الشكوى إليه سبحانه، فإن الشكوى إليه سبحانه فقرٌ، وذِلَّةٌ، وفاقة، وعبودية، فالحياءُ منه لا يُنافيها.

منزلـــة الصـــدق

هي منزل القوم الأعظمُ، الذي منه تنشأ جميعُ منازل السَّالكين، والطريقُ الأقوم الذي مَن لم يَسِرْ عليه فهو من المُنقطِعين الهالكين، وبه تميَّز أهلُ النفاق من أهل الإيمان، وسُكَّان الجِنانِ من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضِع على شيء إلا قَطَعه، ولا واجَه باطلًا إلا أرداه وصَرَعه، مَن صال به لم تُرَدَّ صولته، ومَن نَطَق به عَلَتْ على الخصوم كَلِمتُه، فهو رُوح الأعمال، ومَحَكُّ الأحوال، والحاملُ على اقتِحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حَضرةِ ذي الجَلال، وهو أساس بِناء الدِّين، وعمود فُسطاط اليقين، ودرجته تالية لدرجة النُّبوَّة التي هي أرفعُ درجات العالمين، ومن مساكنهم في الجِنانِ تجري العيونُ والأنهارُ إلى مساكن الصِّدِّيقين، كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مَدَدٌ متَّصل ومُعين.

وقد أمر الله سبحانه أهلَ الإيمان أن يكونوا مع الصادقين، وخصَّ المُنعَمَ عليهم بالنَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحين؛ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

وقَسَّم اللهُ سبحانه الناسَ إلى صادقٍ ومنافقٍ؛ فقال: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

والإيمان أساسُه الصدقُ، والنفاقُ أساسُه الكذبُ؛ فلا يجتمع كذِب وإيمان إلا وأحدهما مُحارِبٌ للآخر.

وقال: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزُّمَر:٣٣-٣٤] فالذي جاء بالصدق هو من شأنه الصدقُ في قوله وعملِه وحاله، فالصدق في هذه الثلاثة.

فالصِّدق في الأقوال: استِواء اللِّسان على الأقوال، كاستواء السُّنْبلةِ على ساقها، **والصِّدق في الأعمال**: استواءُ الأفعال على الأمر والمتابعة، كاستواء الرأس على الجسد، **والصِّدق في الأحوال**: استواء القلب والجوارح على الإخلاص، واستِفراغ الوُسع، وبذلُ الطَّاقة، فبذلك يكون العبدُ من الذين جاؤوا بالصِّدق، وبحَسَب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به: تكون صدِّيقيَّته؛ ولذلك كان لأبي بكر الصِّدِّيقِ ﷺ وأرضاه: ذُروةُ سَنام الصِّديقيَّة، حتى سُمِّي «الصديقَ» على الإطلاق، والصديق أبلغ من الصدوق والصدوق أبلغ من الصادق، فأعلى مراتب الصدق: مرتبة الصديقيَّة، وهي كمال الانقيادِ للرَّسول ﷺ، مع كمال الإخلاص للمُرسِل.

وقد أمَر اللهُ سبحانه رسولَه أن يسأله أن يجعل مُدخَله ومُخرَجه على الصِّدق؛ فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٠] وأخبَر عن خليله إبراهيمَ ﷺ، أنَّه سأله أن يَهبَ له لسانَ صِدقٍ في الناس، فقال: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء:٨٤].

وبشَّر عبادَه بأن لهم عنده قَدَمَ صِدقٍ، ومَقْعدَ صِدقٍ؛ فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس:٢]، وقال: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر:٥٤-٥٥].

فهذه خمسة أشياء: مُدخَل الصدق، ومُخرَج الصدق، ولسانُ الصدق، وقَدَمُ الصدق، ومَقْعَدُ الصدق.

وحقيقة الصِّدقِ في هذه الأشياء: هو الحقُّ الثابت، المُتَّصِل بالله، الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال، وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

فمُدخَل الصدق، ومُخرَج الصدق: أن يكون دخولُه وخروجُه حقًّا ثابتًا بالله، وفي مرضاتِه، مُتَّصلًا بالظَّفَر بالبُغيةِ، وحصول المطلوب، ضد مُخرَج الكذِب ومُدخَله الذي لا غاية له يُوصِل إليها، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها، كمُخرَج أعدائه يوم بدر، ومُخرَج الصدق كمُخرَجه هو وأصحابه في تلك الغزوة.

وكذلك مُدخَله المدينة كان مُدخَل صدق بالله، ولله، وابتغاء مرضاة الله، فاتَّصل به التأييدُ والظَّفَرُ والنَّصرُ، وإدراكُ ما طلَبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مُدخَل الكَذِب الذي رام أعداؤه أن يَدْخُلوا به المدينةَ يوم الأحزاب، فإنه لم يكن بالله، ولا لله، بل مُحادَّة لله ورسوله، فلم يتَّصِل به إلا الخِذلانُ والبَوارُ.

وأمَّا لسان الصِّدق: فهو الثناءُ الحسنُ عليه ﷺ من سائر الأمم بالصدق، ليس ثناءً بالكَذِب؛ كما قال عن إبراهيم وذريَّته من الأنبياء والرسل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠] والمرادُ باللِّسان هاهنا: الثناءُ الحَسَنُ.

وأمَّا قَدمُ الصِّدقِ: ففُسِّر بالجنَّة، وفُسِّر بمحمد ﷺ، وفُسِّر بالأعمال الصالحة.

وحقيقة القدم ما قدَّموه ويُقدِمون عليه يوم القيامة، وهم قدَّموا الأعمالَ والإيمانَ بمحمد ﷺ، ويُقدِمون على الجنَّة التي هي جزاء ذلك.

وأمَّا مَقعَدُ الصدق: فهو الجنة عند الربِّ تبارك وتعالى.

ووصْف ذلك كلِّه بالصدق مُستلزِمٌ ثبوتَهَ واستقرارَهُ، وأنه حقٌّ، ودوامَهُ ونَفعَهُ، وكمال عائدته، فإنه مُتَّصِلٌ بالحق سبحانه، كائن به وله.

قال عبد الواحد بن زيد: «الصدق: الوفاء لله بالعمل».

وقيل: مُوافَقة السِّرِّ النُّطقَ.

وقيل: استواء السرِّ والعلانية، يعني أن الكاذب علانيتُه خيرٌ من سريرته، كالمنافق الذي ظاهرُه خير من باطنه.

إن الصادقَ مطلوبُه رضا ربِّه، وتنفيذُ أوامره، وتتبُّع محابِّه، فهو مُتقلِّب فيها يسير معها أين توجَّهت ركائبُها، ويَستقلُّ معها أين استقلَّت مضاربُها، فَبَيْنَا هُوَ فِي صَلَاةٍ إِذْ رأيتَه فِي ذِكْرٍ ثُمَّ فِي غَزْوٍ، ثم في حَجٍّ، ثم في إحسان للخَلق بالتعليم وغيره، من أنواع النفع، ثم في أمرٍ بمعروف، أو نَهي عن مُنكر، أو في قيام بسبب فيه عمارة للدِّين والدنيا، ثم في عيادة مريض، أو تشييع جنازة، أو نصر مظلوم -إن أمكن- إلى غير ذلك من أنواع القرب والمنافع.

لا يَملِكه رسمٌ ولا عادة ولا وَضْعٌ، ولا يتقيَّد بقيد ولا إشارة، ولا بمكان معيَّن لا يصلِّي إلَّا فيه، وزيٍّ مُعيَّن لا يَلبَس سواه، وعبادة مُعيَّنة لا يَلتفِت إلى غيرها، مع فضلِها عليها في الدرجة، وبُعْدِ ما بينهما كبُعْد ما بين السماء

والأرض؛ فإن البلاءَ والآفاتِ والرياءَ والتصنُّع، وعبادةَ النَّفسِ، وإيثارَ مُرادِها، والإشارةَ إليها: كلها في هذه الأوضاع، والرسوم والقيود، التي حَبَستْ أربابَها عن السير إلى قلوبهم، فضلًا عن السير من قلوبهم إلى الله تعالى، فإذا خرج أحدُهم عن رسمِه ووضعِه وزيِّه وقيدِه وإشارته - ولو إلى أفضل منه - استَهجَن ذلك، ورآه نقصًا، وسقوطًا من أعين الناس، وانحطاطًا لرُتبته عندهم، وهو قد انحطَّ وسَقَط من عين الله.

وأيضًا فحَمل الصدق كحَمل الجبال الرَّواسي، لا يُطيقُه إلَّا أصحابُ العزائم، فهم يتقلَّبون تحته تقلُّب الحمَّال بحمله الثقيل، والرياء والكذب خفيف كالريشة، لا يجد له صاحبه ثِقَلًا البتَّة، فهو حاملٌ له في أي موضع اتَّفَق، بلا تعب ولا مشقَّة ولا كُلْفة، ولا يتقلَّب تحت حِمله ولا يجد ثِقَله.

منزلــة الإيثــار

قال الله تعالى في مدح أهله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]؛ فالإيثار ضدّ الشُّح؛ فإنَّ المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه.

قال عبد الله بن المبارك ﵀: «سخاء النَّفْسِ عمَّا في أيدي الناسِ أفضلُ مِن سخاء النَّفسِ بالبَذل».

وهذا المنزل: هو منزل الجودِ والسخاء والإحسان.

وسمِّي بمنزل «الإيثار»؛ لأنه أعلى مراتبِه؛ فإنَّ المراتب ثلاثٌ:

أحدها: أن لا ينقصه البذْل، ولا يصعُبُ عليه، فهو منزلة «السخاء».

الثانية: أن يعطي الأكثر، ويُبقِيَ له شيئًا، أو يبقيَ مثلَ ما أعطى، فهو «الجُود».

الثالثة: أن يؤثر غيرَه بالشيء مع حاجته إليه، فهي مرتبة **«الإيثار»**، وعكسُها **«الأثَرة»** وهو استِئْثارُه عن أخيه بما هو محتاج إليه، وهي المرتبة التي قال فيها رسولُ الله ﷺ للأنصار ﵃: **«إنَّكُم ستَلْقَوْنَ بَعْدي أثَرةً، فاصبِرُوا حتَّى تَلْقَوْني على الحَوْض»**[١]. وكان قَيسُ بن سعد بن عُبادةَ ﵁ من الأجواد المعروفين، حتى إنَّه مرِض مرَّةً فاستبطأ إخوانَه في العيادة، فسأل عنهم، فقالوا: «إنهم يستحيون ممَّا لك عليهم من الدَّين، فقال: أخزى الله مالًا يَمنع الإخوانَ من الزيارة، ثم أمَرَ مناديًا يُنادي: مَن كان لقَيسٍ عليه مالٌ فهو منه في حِلٍّ، فما أمسى حتى كُسِرَتْ عتبةُ بابه؛ لكَثرة مَن عادَه».

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩٣) واللفظ له، ومسلم (١٠٥٩).

فتأمَّل سرَّ التقدير، حيث قدَّر الحكيمُ الخبير -سبحانه- استئثارَ الناس على الأنصار بالدنيا -وهم أهل الإيثار-؛ ليجازيَهم على إيثارهم في الدنيا على نفوسهم بالمنازل العالية في جنَّات عدْنٍ على الناس، فيظهر حينئذ فضيلةُ إيثارِهم ودرجتُه ويَغبِطُهم مَنِ استأثر عليهم بالدنيا أعظمَ غِبطةٍ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فإذا رأيتَ الناس يستأثرون عليك -مع كونك من أهل الإيثار-؛ فاعلم أنَّه الخير يراد بك.

مراتب الجود:

والجُود عَشرُ مراتبَ:

إحداها: **الجود بالنفْس**، وهو أعلى مراتبِه، كما قال الشاعر:

يَجُودُ بالنَّفسِ، إذْ ضَنَّ البَخيلُ بها
والجُودُ بالنَّفْسِ أقْصَى غايةِ الجُودِ

الثانية: **الجود بالرياسة**، وهو ثاني مراتبِ الجود، فيحمل الجوادَ جُودُه على امتهان رياسته، والجُودِ بها، والإيثار في قضاء حاجات الملتمِس.

الثالثة: **الجود براحتِه ورَفاهيته، وإجمام نفْسِه**، فيجود بها تعبًا وكدًّا في مصلحة غيرِه، ومن هذا جودُ الإنسانِ بنَومِه ولذَّتِه لمُسامِره، كما قيل:

مُتَيَّمٌ بالنَّـدَى لـو قـال سائِلُـهُ
هَبْ لي جَميعَ كَرَى عَيْنَيْكَ، لمْ يَنَمِ

الرابعة: الجود بالعِلم وبَذْلِه.

ومن الجود به: أن تَبذُلَه لمَن لم يسألُك عنه؛ بل تَطرَحَه عليه طرْحًا.

ومن الجود به: أن السائل إذا سألك عن مسألة؛ استقصيتَ له جوابَها جوابًا شافيًا، لا يكون جوابُك له بقدْر ما تَدفَعُ به الضَّرورة، كما كان بعضُهم يكتُبُ في جواب الفتيا: «نعم»، أو: «لا». مقتصِرًا عليها.

وقد شاهدتُ من شيخ الإسلام ابنِ تيميَّةَ في ذلك أمرًا عجيبًا؛ كان إذا سُئل عن مسألة حُكميَّةٍ، ذكر في جوابها مذاهبَ الأئمَّةِ الأربعة -إذا قَدِرَ عليه-، ومأخذَ الخلاف، وترجيحَ القولِ الراجح، وذكرَ متعلقات المسألةِ التي ربما تكون أنفعَ للسائل من مسألته، فيكون فرحُه بتلك المتعلقات واللَّوازمِ أعظمَ من فرحِه بمسألته.

الخامسة: الجود بالنَّفع بالجاه، كالشَّفاعةِ والمشيِ مع الرَّجل إلى ذي سلطان ونحوه.

السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعِه، كما قال النَّبيُّ ﷺ: **«يُصبِحُ على كُلِّ سُلَامى مِن أَحَدِكُم صَدَقةٌ، كُلَّ يَوم تَطلُعُ فيه الشَّمسُ، يَعْدِلُ بيْنَ اثنَيْنِ صَدَقةٌ، وتُعينُ الرَّجُلَ في دابَّتِه، فتَحْمِلُه عليها، أو يَرفَعُ له علَيها مَتاعَهُ صَدَقةٌ، والكَلِمةُ الطَّيِّبةُ صَدَقةٌ، وبكُلِّ خُطْوةٍ يَمْشيها الرَّجُلُ إلى الصَّلاةِ صَدَقةٌ، ويُمِيطُ الأذى عنِ الطَّريقِ صَدَقةٌ»**[1].

(١) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩).

السابعة: الجود بالعِرض، كجُود أبي ضَمْضَم من الصَّحابة ﷺ، كان إذا أصبَحَ قال: اللَّهمَّ إنَّه لا مالَ لي فأتَصدقُ بِه على النَّاسِ، وقد تَصدَّقْتُ عليهم بعِرضي، فمَن شتَمَني، أو قذَفَني: فهو في حِلٍّ.

وفي هذا الجود من سلامة الصدر، وراحةِ القلب، والتخلُّصِ من معاداة الخلْق ما فيه.

الثامنة: الجود بالصبر، والاحتمال، والإغضاءِ، وهذه مرتبة شريفةٌ مِن مراتبه، وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال.

فمَن صعُبَ عليه الجودُ بماله فعليه بهذا الجودِ؛ فإنَّه يجتني ثمرةَ عواقبِه الحميدةِ في الدُّنيا قبل الآخرة، وهذا جود الفُتوَّة.

التاسعة: الجود بالخُلق والبِشر والبَسطة، وهو فوقَ الجود بالصبر، والاحتمال والعفو، وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم.

والعبد لا يمكنه أن يسَعَ الناسَ بماله ويمكنُه أن يسَعَهم بخُلُقه واحتماله.

العاشرة: الجود بتركه ما في أيدي الناسِ عليهم، فلا يلتفت إليه، ولا يَستشرِف له بقلبه، ولا يتعرَّض له بحاله، ولا لسانِه، وهذا هو الذي قال عبد الله بن المبارك: إنَّه من جود البذْل.

ولكلِّ مرتبةٍ من مراتب الجود مزيد وتأثيرٌ خاصٌّ في القلب والحال، والله سبحانه قد ضمِن المزيدَ للجواد، والإتلافَ للمُمْسِك، والله المستعان.

منزلة الخلق

قال الله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

والمعنى: إنَّك لَعلى الخُلُق الذي آثرَك الله به في القرآن.

وقد جمَع الله له مكارمَ الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

قال أنسٌ ﷺ: «ما مَسِسْتُ دِيباجًا ولا حَريرًا ألْيَنَ مِن كَفِّ رَسولِ الله ﷺ، ولا شَمِمْتُ رائحةً قَطُّ أطْيَبَ مِن رائحةِ رَسولِ الله ﷺ. ولقَدْ خَدَمْتُ رَسولَ الله ﷺ عَشْرَ سِنينَ، فما قال لي قَطُّ: أُفٍّ، ولا قال لِشَيْءٍ فَعَلْتُه: لِمَ فَعَلْتَه؟ ولا لشَيءٍ لَمْ أفْعَلْهُ: ألا فَعَلْتَ كذا؟» متفق عليه[1].

الدِّين كله خُلق، فمَن زادَ عليك في الخُلق، زادَ عليك في الدِّين.

وقد قيل: إنَّ حسن الخُلق: بذلُ الندى، وكفُّ الأذى، واحتمالُ الأذى.

وحُسن الخُلق يقومُ على أربعة أركان لا يُتصوَّر قيامُ ساقه إلا عليها: **الصبر، والعِفَّة، والشجاعة، والعدل.**

فالصبر يَحمِلُه على الاحتمال وكظْمِ الغيظ، وكفِّ الأذى، والحِلمِ والأناةِ والرِّفق، وعدمِ الطَّيش والعجلة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٧٣)، ومسلم (٢٣٣٠).

والعفَّة تحمله على اجتناب الرَّذائلِ والقبائحِ من القول والفعل، وتَحمِله على الحياء، وهو رأس كلِّ خير، وتمنعه من الفحش، والبخلِ والكذب، والغِيبة والنميمة.

والشجاعة تَحمِلُه على عزَّةِ النَّفْس، وإيثارِ معالي الأخلاق والشِّيَم، وعلى البَذْل والنَّدى، الذي هو شجاعةُ النَّفْس وقوَّتُها على إخراج المحبوب ومفارقته.

والعدل يَحمِلُه على اعتدال أخلاقه، وتوسُّطِه فيها بين طرفَيِ الإفراطِ والتفريط؛ فيَحمِلُه على خُلُق الجود والسَّخاء الذي هو توسُّطٌ بيْن الإمساك والإسرافِ والتبذير، وعلى خُلُق الحياء الذي هو توسُّطٌ بين الذُّلِّ والقِحَة، وعلى خُلُق الشجاعةِ الذي هو توسُّطٌ بين الجُبن والتَّهوُّر، وعلى خُلُق الحِلم الذي هو توسُّطٌ بين الغضب والمهانةِ وسقوطِ النفْس.

ومنشأ جميعِ الأخلاق الفاضلةِ من هذه الأربعة.

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة، وبناؤها على أربعة أركان: **الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب.**

فالجهل يُريه الحسنَ في صورة القبيح، والقبيحَ في صورة الحسن، والكمالَ نقصًا، والنَّقصَ كمالًا.

والظُّلْم يَحمِلُه على وضع الشَّيءِ في غير موضعِه، فيَغضَبُ في موضع الرِّضا، ويَعجَلُ في موضع الأناة، ويَبخَلُ في موضع البذْل، ويحجم في موضع الإقدام، ويُقدِمُ في موضع الإحجام، ويَلِينُ في موضع الشِّدَّة، ويشتدُّ

في موضع اللِّين، ويتواضع في موضع العِزَّة، ويتكبَّر في موضع التَّواضع.

والشهوة تَحمِلُه على الحِرص والشُّحّ والبخل، وعدم العفَّة، والنَّهمة والجشع، والذُّلّ والدَّناءاتِ كلِّها.

والغضب يَحمِلُه على الكبر، والحقد، والحسد، والعدوان، والسَّفه.

ويتركَّبُ مِن بين كلِّ خُلُقينِ مِن هذه الأخلاق أخلاقٌ مذمومة.

ومِلاك هذه الأربعةِ أصلان: إفراطُ النَّفْس في الضَّعف، وإفراطُها في القوَّة.

يتولَّدُ من إفراطها في الضعف: المهانةُ والبخل، والخِسَّةُ واللؤم، والذُّلُّ، والحِرص، والشحُّ، وسَفساف الأمور، والأخلاق.

ويتولَّدُ من إفراطها في القوَّة: الظلمُ والغضب والحِدَّة، والفُحشُ والبطش. ويتولَّد مِن تزوُّج أحد الخُلُقينِ بالآخَرِ أولادُ غيَّة كثيرون؛ فإنَّ النفْس قد تجمع قوَّةً وضعفًا، فيكون صاحبُها أجبرَ الناس إذا قدر، وأذلَّهم إذا قُهِر، ظالِم عسوفٌ جبَّار، فإذا قُهر صار أذلَّ مِن امرأة جبان عن القوي، جريء على الضعيف.

فالأخلاق الذميمة: يولِّد بعضُها بعضًا، كما أن الأخلاق الحميدة: يولِّد بعضُها بعضًا.

وكلُّ خُلُقٍ محمودٍ مكتنَفٌ بخُلُقينِ ذَميمَينِ، وهو وسَطٌ بينهما، وطرَفاه خُلُقان ذميمان، كالجود: الذي يكتنفه خُلُقَا البخل والتَّبذير، والتواضع الذي

يكتنفه خُلُقَا الذلّ والمهانة، والكبر والعلو.

فإن النَّفْس متى انحرفتْ عن التوسُّطِ انحرفت إلى أحد الخُلُقين الذميمين ولا بد.

فإذا انحرفت عن خلُق التواضعِ انحرفت: إمَّا إلى كِبْرٍ وعلوٍّ، وإمَّا إلى ذلٍّ ومَهانةٍ وحقارة.

وإذا انحرفتْ عن خُلُق الحِلم انحرفت: إما إلى الطَّيش والنزَق والحِدَّةِ والخفة، وإمَّا إلى الذلِّ والمهانة والحقارة، ففرْقٌ بيْن مَن حِلْمُه حِلْمُ ذلٍّ ومهانةٍ وحقارة وعجز، وبيْن مَن حِلْمُه حِلْمُ اقتدارٍ وعزَّةٍ وشرف.

وإذا انحرفت عن خُلُق الأناةِ والرِّفق انحرفت: إمَّا إلى عجلةٍ وطَيش وعُنف، وإمَّا إلى تفريط وإضاعة، والرِّفقُ والأناة بينهما.

وإذا انحرفت عن خُلُق الشجاعة انحرفت: إمَّا إلى تهوُّرٍ وإقدامٍ غيرِ محمود، وإمَّا إلى جبن وتأخُّرٍ مذمومٍ.

وصاحب الخلُق الوَسَط: مَهيبٌ محبوب، عزيزٌ جانبُه، حبيبٌ لقاؤه.

سبل تهذيب الأخلاق

[هذا] فصل نافع جداً عظيم النفع للسالك، يوصله عن قريب، ويسيِّره بأخلاقه التي لا يمكنه إزالتُها؛ فإنَّ أصعب ما على الطبيعة الإنسانيَّةِ تغييرُ الأخلاق التي طُبعتْ عليها، وأصحابُ الرِّياضات الصعبةِ والمجاهدات الشاقة إنَّما عمِلوا عليها، ولم يَظفَرْ أكثرُهم بتبديلها، لكن النفوس اشتغلت بتلك الرِّياضات عن ظهور سلطانها، فإذا جاء سلطانُ تلك الأخلاق وبرز كسَر جيوشَ الرياضة وشتَّتها، واستولى على مملكة الطبع.

وهذا فصلٌ يصلُ به السالك مع تلك الأخلاق، ولا يحتاج إلى علاجها وإزالتِها، ويكون سَيْرُه أقوى وأجَلَّ وأسرعَ من سَير العامل على إزالتها.

ونقدِّمُ قبل هذا مثلًا نضرِبُه، مطابقًا لِما نُريده، وهو: نهرٌ جارٍ في صببه ومنحدرِه، ومُنتهٍ إلى تغريق أرضٍ وعمران ودورٍ، وأصحابُها يعلمون أنَّه لا ينتهي حتى يخرِّب دورَهم، ويُتلِفَ أراضيَهم وأموالَهم، **فانقسموا ثلاثَ فِرَقٍ**:

فرقة صرفتْ قواها وقوى أعمالها إلى سَكْره وحبسِه وإيقافه، فلا تصنع هذه الفرقةُ كبيرَ أمرٍ؛ فإنَّه يوشك أن يجتمعَ ثم يحمل على السَّكْرِ، فيكون إفسادُه وتخريبُه أعظمَ.

وفرقةٌ رأت هذه الحالة، وعلِمتْ أنَّه لا يُغني عنها شيئًا، فقالت: لا خلاص من محذوره إلا بقطعِه من أصل اليَنبوع، فرامتْ قطعَه من أصله، فتعذَّر عليها

ذلك غايةَ التَّعذُّر، وأبَتِ الطبيعةُ النَّهريةُ عليهم ذلك أشدَّ الإباء، فهم دائمًا في قطع اليَنبوع، وكلَّما سدُّوه مِن موضع نَبَعَ مِن موضع، فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النَّهر عن الزراعات والعمارات وغرسِ الأشجار.

فجاءت فرقةٌ ثالثة خالفتْ رأي الفرقتين، وعلِموا أنَّهم قد ضاعت عليهم كثيرٌ من مصالحهم، فأخذوا في صرفِ ذلك النهرِ عن مَجراه المنتهي إلى خراب العمران، وصرفوه إلى موضعٍ ينتفعون بوصوله إليه، ولا يتضرَّرون به، فصرفوه إلى أرضٍ قابلة للنبات، وسقَوها به، فأنبتتْ أنواعَ العُشب والكلأِ والثمار المختلفة الأصناف، فكانت هذه الفرقةُ هي أصوبَ الفِرَقِ في شأن هذا النهر.

فإذا تبيَّن هذا المثَل، فالله سبحانه اقتضتْ حكمتُه أن ركَّب الإنسانَ -بل سائرَ الحيوانِ- على طبيعة محمولةٍ على قوَّتين: غضبيَّة، وشهوانية وهي الإرادية. وهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاق النفْسِ وصفاتِها، وهما مركوزتان في جِبلَّة كلِّ حيوان، فبقوَّة الشهوةِ والإرادة يَجذبُ المنافعَ إلى نفْسِه، وبقوَّةِ الغضب يدفع المضارَّ عنها.

فإذا تبيَّن هذا فالنهر مثالُ هاتين القوَّتين، وهو منصبٌّ في جدول الطبيعة ومَجراها إلى دُور القلب وعمرانه وحواصلِه، يُذهِبُها ويُتلِفُها ولا بد، **فالنُّفوسُ الجاهلةُ الظَّالمةُ** تركتْه ومجراه، فخرَّب ديارَ الإيمان، وقلَع آثارَه، وهدَم عمرانَه، وأنبتَ موضعَها كلَّ شجرةٍ خبيثة، مِن حنظل وضَريعٍ وشَوك وزَقُّوم، وهو الذي يأكلُه أهلُ النار يومَ المعاد.

وأمَّا النُّفوسُ الزَّكيَّةُ الفاضلة: فإنَّها رأتْ ما يؤول إليه أمرُ هذا النهر، فافترقوا ثلاثَ فِرَق:

فأصحاب الرياضات والمجاهدات، والخلواتِ والتمرينات رامُوا قطْعَه من يَنبوعه، فأبَتْ ذلك حكمةُ الله تعالى، وما طبَع عليه الجِبِلَّةَ البشرية، ولم تَنقَدْ له الطبيعة، فاشتدَّ القتال، ودام الحرب، وحميَ الوَطيسُ، وصارت الحرب دُوَلًا وسِجالًا، وهؤلاء صرفوا قُواهم إلى مجاهدة النَّفْسِ على إزالة تلك الصفات.

وفرقةٌ أعرَضوا عنها، وشَغلوا نفوسَهم بالأعمال، ولم يُجيبوا دواعي تلك الصِّفاتِ مع تخليتهم إيَّاها على مجراها، لكن لم يمكِّنوا نهرَها من إفساد عمرانهم، بل اشتغلوا بتحصين العمران، وإحكامِ بنائه وأساسِه، ورأوْا أن ذلك النَّهرَ لا بدَّ أن يصل إليه، فإذا وصل وصل إلى بناءٍ محُكَمٍ لم يهدِمْه، بل يأخُذُ عنه يمينًا وشمالًا، فهؤلاء صرَفوا قوَّةَ عزيمتهم وإرادتهم في العمارة، وإحكامِ البناء، وأولئك صرَفوها في قطع المادَّةِ الفاسدةِ من أصلها، خوفًا من هدم البناء.

وسألتُ يومًا شيخَ الإسلام ابنَ تيميَّةَ رحمه الله عن هذه المسألة، وقطعِ الآفات، والاشتغالِ بتنقية الطَّريقِ وتنظيفها؟

فقال لي في جملة كلامه: «النَّفْسُ مثل الباطُوس -وهو جُبُّ القَذَر- كلَّما نبشتَه ظهَر وخرج، ولكن إنْ أمكنك أن تَسقُفَ عليه، وتَعْبُرَه وتجوزه فافعَلْ، ولا تشتغِلْ بنبشه؛ فإنَّك لن تصل إلى قراره، وكلما نبشْتَ شيئًا ظهرَ غيرُه».

فقلتُ: سألتُ عن هذه المسألةِ بعضَ الشُّيوخِ فقال لي: «مثالُ آفاتِ النَّفْسِ مثالُ الحيَّاتِ والعقاربِ التي في طريق المسافر، فإنْ أقبل على تفتيش الطريق عنها، والاشتغالِ بقتْلِها انقطع، ولم يُمكِنْه السفرُ قطُّ، ولكن لتكُنْ همَّتُك المَسيرَ، والإعراضَ عنها، وعدمَ الالتفات إليها، فإذا عرَض لك فيها ما يَعوقك عن المَسيرِ فاقتُلْه، ثمَّ امضِ على سَيرك»؛ فاستحسَنَ شيخُ الإسلام ذلك جدًّا، وأثنى على قائله.

إذا تبين هذا، فهذه الفرقةُ الثالثة: رأتْ أنَّ هذه الصِّفاتِ ما خُلقَتْ سُدًى ولا عبثًا، وأنَّها بمنزلة ماءٍ يُسقى به الورد، والشوك، والثِّمارُ، والحطب، وأنَّها صوان وأصدافٌ لجواهرَ منطويةٍ عليها، وأنَّ ما خافَ منه أولئك هو نفسُ سببِ الفلاح والظَّفَر، فرأوْا أنَّ الكِبْرَ نهرٌ يسقى به العلوُّ والفخر، والبَطَرُ والظُّلْمُ والعدوان، ويسقَى به علوُّ الهمَّة، والأنفة، والحَمِيَّة، والمراغمةُ لأعداء الله، وقهرُهم والعلوُّ عليهم، وهذه درَّةٌ في صدَفته، فصرَفوا مجراه إلى هذا الغِراس، واستخرجوا هذه الدرَّة من صدفته، وأبقوه على حاله في نفوسهم، لكنِ استعملوه حيث يكون استعمالُه أنفعَ، وقد رأى النَّبيُّ ﷺ أبا دُجانةَ يَتبخْتَرُ بيْنَ الصَّفَّيْنِ، فقال: «**إنَّها لَمِشْيةٌ يُبْغِضُها الله، إلَّا في مِثْلِ هذا المَوضِعِ**»[1].

فانظر كيف خلَّى مجرى هذه الصِّفةِ وهذا الخُلقِ يجري في أحسَنِ مواضعه، [و] كيف صارتِ الصِّفةُ المذمومةُ عبوديَّةً وكيف استحالَ القاطعُ موصلًا.

(١) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٣/ ١٥٤).

فصاحِبُ الرّياضات، والعاملُ على قطْع أصولِ هذه الصِّفات مجتهدٌ على قطع مادَّةِ الخيلاء والكِبر، وهذا قد أقرَّها في موضعها وأعَدَّها لأقرانها، وهو مصرِّفٌ لها في مَصرف يُعينه على مطلبه ويُوصله إليه.

وكذلك خُلق الحسد؛ فإنَّه لا يُذمُّ، وهو كالصدفة لدرة الغِبطة والمنافسة، كما قال النبي ﷺ: «**لا حَسَدَ إلّا في اثنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتاهُ اللهُ مالًا، فسَلَّطَه على هَلَكَتِه في الحَقِّ، ورَجُلٍ آتاهُ اللهُ القُرآنَ، فهو يَقُومُ به آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ**»[1].

فالحسد يُوصل إلى المنافسة التي يحبُّها الله ويأمر بها في قوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]؛ فلا تعمل على إعدام هذا الخُلق من نفْسك، بل احرفه إلى الحسد المحمودِ الحامل على المنافسة في الرُّتَب العالية، وتزاحم أهلها بالركب، لا تتمنَّ زوال نعمة الله عن عبده فتزول عنك ويبقيها عليه.

وكذلك خُلق الحِرص؛ فإنَّه من أنفع الأخلاق وأوصلِها إلى كلِّ خير، وشدةُ الطلب بحسَب قوَّة الحرص، فلا تَعملْ على قطْعها ولكن علقها بما ينفع النفسَ في معادها، ويكملها ويزكِّيها، كما قال ﷺ: «**احرِصْ على ما يَنفَعُكَ، واستَعِنْ باللهِ ولا تَعجِزْ**»[2].

فقوة الحرص لا تُذَمُّ، وإنما يُذم صَرفُها إلى ما يضرُّ الحرصُ عليه أو لا ينفع، وغيرُه أنفعُ للعبد منه.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

وكذلك قوَّة الشهوة مِن أنفع القُوَى للعبد وأوصلِها إلى كماله وسعادتِه؛ فإنها تُثمر المحبَّةَ، وبحسَب شهوة العبد للكمال يكون طلبُه له، وبحسَب قوَّةِ شهوته لِلَذَّةِ العيش ووصالِ الأحبَّةِ وقرَّةِ العين يكون طلبُه لذلك في الجنة، وإنْ كان مؤمنًا بها موقنًا مصدِّقًا؛ فصِدقُ الشهوة وقوَّتُها يَحمِلُه على بيع مشتهى أعلى منه وأجلّ وأرفع.

وهذه قاعدة مطَّردةٌ في جميع الصِّفات والأخلاق، فالرُّسُل صلوات الله وسلامُه عليهم جاؤوا بصرْفها عن مجاريها المذمومةِ إلى مجارٍ محمودة، وجاؤوا بصرفِ قوَّةِ الشَّهوةِ إلى النِّكاح والتَّسري، حتى كان لسُليمانَ ﵇ مائةُ امرأة، ولداودَ ﵇ تسعٌ وتسعون، وجمَع الرسولُ ﷺ بين تسع، وأباح للأمَّةِ أربعًا ممَّا طاب من النساء، ومِن السراري بلا حصر؛ صرْفًا لقوَّةِ هذه الشَّهوةِ عن مجرى الحرام إلى مجرى الحلال الذي يحبُّه الله، وهو أحبُّ إليه مِن نَفْلِ العبادة عند أكثرِ الفقهاء.

ولذلك جاؤوا بصرف قوة الغضبيَّة إلى جهاد أعداء الله، والغِلظةِ عليهم والانتقام منهم.

وكذلك شهوة استماعِ الأصواتِ المطربة اللَّذيذةِ لا يُذَمُّ بل يُحمَد، وقد وقف النبيُّ ﷺ على أبي موسى الأشعريِّ واستمع إلى قراءته، وقال: «لقد أُوتِيَ مِزْمارًا مِن مَزامِيرِ آلِ داوُدَ»[1]، وكان عُمرُ بن الخطَّاب ﵁ يأمُرُه إذا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣).

حضر عِندَه مع الصحابة أن يُسمِعَهم قراءتَه، فيقرأ وهُم يسمعون، هذا كان سماعَ القوم، فمَن حرَّم هذا السَّماعَ أو من كرِهَه؟ وهل هذا إلَّا سَماعُ خواصِّ الأولياء؟ فأين هذا من سماع المُكاءِ والتَّصديةِ وقرآن الشيطان، وآلاتِ المعازف بنغمات الناشد؟

فلا بدَّ للرُّوح من سماعٍ طيبٍ تتغذَّى به، ولكن لا يستوي مَن غذاؤه العسلُ والحلوى والطيِّبات، ومَن غذاؤه الرجيع والمَيتةُ والدَّمُ ولحم الخنزير وما أُهِلَّ به لغير الله، ويا عجبًا! إنْ كان أهْلُ هذا لا يرون آثاره على شفاههم ووجوههم، أفلا يَستَحون من معاينة أربابِ البصائر ذلك عليهم؟!

والمقصود: أنَّ رسوم الطبيعة وقُواها لا يمكن تعطيلُها في دار الابتلاء والامتحان، فالبصير العارفُ يَستعمِلُها في مواضعها النافعةِ له، التي لا تحرم عليه دينًا، ولا تقطع عليه طريقًا، ولا تُفسِد عليه حاله مع الله، ولا تُسقِطه من عينه.

فإن قلت: هل يمكن أن يكون الخُلُقُ كسبيًّا، أو هو أمرٌ خارج عن الكسب؟

قلت: يمكن أن يقع كسبيًّا بالتَّخلُّق والتَّكلُّف؛ حتى يصيرَ له سَجيَّةً وملَكةً، وقد قال النبيُّ ﷺ لأشَجِّ عبدِ القَيس ﵁: «**إنَّ فيكَ لَخُلُقَيْنِ يُحِبُّهما الله: الحِلْمُ، والأناةُ**»، فقال: أخُلُقَيْنِ تَخلَّقْتُ بهما، أمْ جَبَلَني الله علَيهما؟ فقال: «**بلْ جَبَلَكَ الله علَيهما**». فقال: الحَمدُ لله الَّذي جَبَلَني على خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُما الله ورَسولُه[1].

---

(١) أخرجه مسلم (١٧)، إلى قوله: «الحِلم والأناة»، وأخرج باقيه أبو داود (٥٢٢٥).

فدلَّ على أن من الخُلق: ما هو طبيعة وجِبِلَّة، وما هو مكتسَب، وكان النبيُّ ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: «**اللَّهمَّ اهْدِني لأحْسَنِ الأخلاقِ، لا يَهْدي لأحْسَنِها إلَّا أنتَ، واصْرِفْ عنِّي سَيِّئَها، لا يَصْرِفُ عنِّي سَيِّئَها إلَّا أنتَ**»[1]، فذكر الكسب والقَدَر.

مشاهد العبد فيما يصيبه من أذى الخلق:

وهاهنا للعبد أحدَ عشَرَ مشهدًا فيما يُصيبه من أذى الخَلْق وجناياتِهم عليه:

أحدها: مشهد القدَر، وأنَّ ما جرى عليه بمشيئة الله وقضائِه وقدَره، يراه كالتَّأذِّي بالحرِّ والبرد، والمرضِ والألم.

المشهد الثاني: مشهد الصَّبرِ، فيَشهَدُه ويشهدُ وجوبَه، وحُسنَ عاقبتِه، وجزاءَ أهله، وما يترتَّبُ عليه من الغِبطة والسرور.

المشهد الثالث: مشهد العفو والصفحِ والحِلم، فإنَّه متى شهِد ذلك وفضْلَه وحلاوته وعِزَّته: لم يَعدِلْ عنه إلا لغبَشٍ في بصيرته.

المشهد الرابع: مشهد الرضا، وهو فوقَ مشهد العفوِ والصَّفحِ، وهذا لا يكون إلَّا للنفوس المطمئنة، سيَّما إن كان ما أُصيبتْ به سببه القيام لله، فإن كان ما أُصيب به في الله، وفي مرضاتِه ومحبَّتِه؛ رَضِيَتْ بما نالها في الله.

المشهد الخامس: مشهد الإحسان، وهو أرفعُ ممَّا قبله، وهو أن يقابل إساءةَ

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).

المسيءِ إليه بالإحسان، فيُحسِنَ إليه كلَّما أساء هو إليه.

المشهد السادس: مشهد السلامة وبردِ القلب، وهذا مشهدٌ شريف جدًّا لمنَ عرَفه، وذاق حلاوتَه، وهو أن لا يَشغَل قلبَه وسِرَّه بما ناله من الأذى، وطلبِ الوصول إلى درك ثأرِه، وشفاء نفْسه، بل يُفرِّغُ قلبه من ذلك، ويرى أنَّ سلامته وبردَه وخلوَّه منه أنفعُ له، وألَذُّ وأطيب، وأعونُ على مصالحه.

المشهد السابع: مشهدُ الأمن، فإنَّه إذا ترك المقابلةَ والانتقام؛ أمِنَ ما هو شرٌّ من ذلك، وإذا انتقمَ واقعَه الخوفُ ولا بدَّ.

المشهد الثامن: مشهد الجهاد، وهو أن يشهد تولُّدَ أذى الناسِ له من جهاده في سبيل الله، وأمرِهِم بالمعروف، ونَهيِهِم عن المنكر، وإقامةِ دين الله، وإعلاء كلماتِه.

وصاحبُ هذا المقام: قد اشترى اللهُ منه نفْسَه وماله وعِرضَه بأعظَمِ الثمن.

المشهد التاسع: مشهد النِّعمة، وذلك من وجوه:

أحدها: أن يشهد نعمةَ الله عليه في أن جعَلَه مظلومًا يترقَّبُ النَّصرَ، ولم يجعلْه ظالِمًا يترقَّبُ المَقتَ والأخذَ.

ومنها: أن يشهد نعمةَ الله في التَّكفير بذلك من خطاياه؛ فإنَّه ما أصاب المؤمنَ هَمٌّ ولا غَمٌّ ولا أذًى إلَّا كفَّر اللهُ به من خطاياه.

ومنها: أن يشهد كَونَ تلك البليَّةِ أهونَ وأسهلَ من غيرها؛ فإنَّه ما مِن محنةٍ إلَّا وفوقَها ما هو أقوى منها وأمَرُّ، فإنْ لم يكن فوقَها محنةٌ في البدن

والمالِ فلينظرْ إلى سلامة دينه وإسلامِه وتوحيده، وأنَّ كلَّ مصيبةٍ دون مصيبةِ الدِّينِ جلَلٌ.

ومنها: توفيةُ أجْرِها وثوابها يومَ الفقر والفاقة.

المشهد العاشر: مشهد الأُسوة، وهو مشهدٌ لطيفٌ شريف جدًّا.

فإنَّ العاقل اللَّبيبَ يرضى أن يكون له أُسوةٌ برُسُلِ الله، وأنبيائه وأوليائِه، وخاصَّتِه مِن خلْقِه؛ فإنَّهم أشدُّ الخلْقِ امتحانًا بالناس، وأذى الناس إليهم أسرعُ من السَّيل في الحدور، ويكفي تدبُّرُ قَصصِ الأنبياء عليهم السلام مع أُممِهم، وشأنِ نبيِّنا ﷺ وأذى أعدائه له بما لم يؤْذَ به مَن قَبْلَه؛ وقد قال له ورَقةُ بنُ نَوفَل: لَتُكَذَّبَنَّ ولَتُخرَجَنَّ ولتؤْذَيَنَّ، وقال له: «ما جاء أحدٌ بمِثْلِ ما جِئْتَ به إلَّا عُودِيَ»[1]، وهذا مستمرٌّ في ورثته كما كان في مورثهم ﷺ. أفلا يرضى العبدُ أن يكون له أسوةٌ بخيار خلْق الله، وخواصِّ عباده: الأمثل فالأمثل؟!

المشهد الحادي عشر -وهو أجَلُّ المشاهدِ وأرفعُها-: مشهد التوحيد، فإذا امتلأ قلبُه بمحبَّةِ الله والإخلاصِ له ومعاملتِه وإيثار مرضاتِه والتقرُّبِ إليه، وقرَّتْ عينُه بالله، وابتهج قلبه بحبِّه والأُنسِ به والاطمئنان إليه، وسكن إليه، واشتاق إلى لقائه، واتَّخذه وليًّا دون ما سواه، بحيث فَوَّضَ إليه أمورَه كلَّها، ورضيَ به وبأقضيته؛ فإنه لا يبقى في قلبه متسعٌ لشهود أذىَ الناس له البتة.

***

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

منزلة التواضع

قال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤].

لَمَّا كان الذُّلُّ منهم ذُلَّ رحمة وعطفٍ وشفقة وإخبات عدّاه بأداة «على» تضمينًا لمعاني هذه الأفعال؛ فإنَّه لم يُرِد به ذلَّ الهوان الذي صاحبه ذليل، وإنما هو ذل اللين والانقياد الذي صاحبه ذَلول، فالمؤمن ذَلول.

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَدخُلُ الجنَّةَ مَن كان في قَلْبه مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ»(١).

وكان النَّبيُّ ﷺ يَمُرُّ على الصِّبْيانِ فيُسَلِّمُ عليهم، وكانتِ الأمَةُ تَأخُذُ بيَدِه ﷺ فتَنطَلِقُ به حَيثُ شاءَتْ، وكان ﷺ يَكُونُ في بَيتِه في خِدْمةِ أهْلِه، ولمْ يَكُنْ يَنتَقِمُ لنَفْسِه قَطُّ، وكان ﷺ يَخْصِفُ نَعْلَه، ويَرْقَعُ ثَوْبَه، ويَحلُبُ الشَّاةَ لأهْلِه، ويَعلِفُ البَعِيرَ، ويَأكُلُ مع الخادِمِ ، ويُجالِسُ المَساكِينَ، ويَمْشي مع الأرْمَلةِ واليَتيمِ في حاجَتِهما، ويَبدأُ مَن لَقِيَه بالسَّلامِ، ويُجِيبُ دَعْوةَ مَن دَعاه، ولوْ إلى أيسَرِ شَيءٍ.

(١) أخرجه مسلم (٩١).

وكان ﷺ هَيِّنَ المُؤْنةِ، لَيِّنَ الخُلُقِ، كريمَ الطَّبعِ، جَميلَ المُعاشَرةِ، طَلْقَ الوَجْهِ بَسَّامًا، مُتَواضِعًا مِن غَيرِ ذِلَّةٍ، جَوادًا مِن غَيرِ سَرَفٍ، رَقِيقَ القَلبِ رَحيمًا بكُلِّ مُسْلِمٍ، خافِضَ الجَناحِ لِلمؤْمِنينَ، لَيِّنَ الجانِبِ لهُم.

سُئل الفُضيلُ بنُ عِياض عن التواضُع؟ فقال: «يخضع للحقِّ، وينقاد له، ويَقبَلُه ممَّن قاله».

وقال عُروة بن الزُّبَير ﵁: «رأيتُ عُمرَ بن الخطَّاب ﵁ على عاتقه قِربةُ ماء، قلت: يا أميرَ المؤمنين، لا ينبغي لك هذا، فقال: لَمَّا أتاني الوفودُ سامعين مطيعين، دخلَتْ نفْسي نخوة، فأحببتُ أن أكسِرها».

ويُذكر أنَّ أبا ذر ﵁ عيَّر بلالًا ﵁ بسواده، ثم أنَّه ندِم، فألقى نفْسَه وحلف: لا رفعتُ رأسي حتى يطأ بلالٌ خدِّي بقدمه، فلم يرفع رأسَه حتى فعل بلال.

[و] أوَّلُ ذنب عَصى الله به أبَوا الثقلين: الكِبْرُ والحرص، فكان الكِبْرُ ذنبَ إبليسَ اللعين؛ فآل أمرُه إلى ما آل إليه، وذنب آدمَ على نبيِّنا وعليه السَّلامُ: كان من الحرص والشهوة، فكان عاقبته التوبةَ والهداية، وذنب إبليسَ حمله على الاحتجاج بالقدَر والإصرار، وذنب آدم أوجب له إضافتَه إلى نفْسِه، والاعترافَ به والاستغفار.

فأهل الكبْرِ والإصرار، والاحتِجاجِ بالأقدار: مع شيخهم وقائدِهم إلى النار إبليس، وأهل الشهوة المستغفرون التائبون المعترِفون بالذنوب، الذين لا يحتجون عليها بالقدَر: مع أبيهم آدمَ ﵇ في الجنة.

منزلة المروءة

حقيقتها: اتِّصافُ النفْسِ بصفات الإنسانِ التي فارَق بها الحيوانَ البهيم، والشيطانَ الرَّجيم؛ فإنَّ في النفس ثلاثةَ دواعٍ متجاذبة:

داعٍ يدعوها إلى الاتِّصاف بأخلاق الشيطان: من الكِبْر، والحسد، والعلو، والبغي، والشر، والأذى، والفساد، والغش.

وداعٍ يدعوها إلى أخلاق الحيوان، وهو داعي الشهوة.

وداعٍ يدعوها إلى أخلاق المَلَك، مِن الإحسان، والنُّصح، والبِرِّ، والعلم، والطاعة.

فحقيقة المروءة: بُغض ذينك الدَّاعيَينِ، وإجابةُ الداعي الثالث.

وقلة المروءة وعدمُها: هو الاسترسال مع ذينك الداعيين، والتوجُّهُ لدعوتِهما أين كانت.

قال بعض السلف: «خلَق الله الملائكةَ عقولًا بلا شهوة، وخلَق البهائم شهوةً بلا عقول، وخلق ابنَ آدمَ، وركَّب فيه العقلَ والشهوة؛ فمَن غلب عقلُه شهوتَه الْتَحق بالملائكة، ومَن غَلَبت شهوتُه عقلَه الْتَحق بالبهائم».

ولهذا قيل في حدِّ المروءة: إنها غلبةُ العقل للشهوة.

وحقيقة المروءة تجنُّب الدنايا والرَّذائل، من الأقوال، والأخلاق، والأعمال.

فمروءة اللسان: حلاوته وطيبته ولِينُه، واجتناء الثمار منه بسهولة ويسر.

ومروءة الخُلُق: سَعَتُه وبَسْطُه للحبيب والبغيض.

ومروءة المال: الإصابة ببذله مواقعَه المحمودةَ عقلًا وعُرفًا وشرعًا.

ومروءة الجاه: بَذْلُه للمحتاج إليه.

ومروءة الإحسان: تعجيلُه وتيسيره، وتوفيره، وعدم رؤيته حالَ وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه، فهذه مروءة البَذْل.

وأما مروءة التَّرْك: فكترك الخصام، والمعاتبةِ، والمطالبة والمماراة، والإغضاءِ عن عيب ما يأخذه من حقِّك، وتركِ الاستقصاء في طلبه، والتغافلِ عن عثَرات الناس، وإشعارهم أنَّك لا تعلم لأحد منهم عثرة، والتوقير للكبير، وحِفظ حرمة النظير، ورعاية أدب الصغير.

وهي ثلاثُ دَرجات:

الدَّرجة الأولى: مروءة المَرءِ مع نفْسه، وهي أن يحملها قَسْرًا على مراعاة ما يجمِّل ويزين، وترك ما يدنس ويشين، ليصير لها ملكة في العلانية؛ فمن اعتاد شيئًا في سره وخلوته ملكه في علانيته وجهره.

فلا يفعل خاليًا ما يستحي مِن فعلِه في الملأ، إلَّا ما لا يحظرُه الشرعُ والعقل، ولا يكون إلَّا في الخلوة، كالجماع، والتخلِّي، ونحو ذلك.

الدرجة الثانية: المروءة مع الخلْق، بأن يستعمل معهم شروطَ الأدب

والحياء، والخُلُق الجميل، ولا يظهر لهم ما يكرهه هو مِن غيره لنفسه، وليتخذ الناسَ مرآةً لنفسه، فكلُّ ما كَرِهَه ونفرَ عنه، مِن قول أو فعلٍ أو خلُق، فليتجَنَّبْه، وما أحَبَّه من ذلك واستحسنه فليفعَلْه.

الدرجة الثالثة: المروءة مع الحقِّ سبحانه، بالاستحياء من نظره إليك، واطِّلاعه عليك في كلِّ لحظة ونَفَس، وبإصلاح عيوب نفْسِك جهد الإمكان؛ فإنَّه قد اشتراها منك وأنت ساعٍ في تسليم المبيع، وتقاضي الثمن، وليس من المروءة: تسليمُه على ما فيه من العيوب، وتقاضي الثمن كاملًا.

منزلـــة الأدب

عِلم الأدب: هو علمُ إصلاح اللِّسان والخِطاب، وإصابةِ مواقعه، وتحسين ألفاظه، وصِيَانته عن الخطأ والخَلَل، وهو شُعبةٌ من الأدب العامِّ.

والأدب ثلاثة أنواع: أدبٌ مع الله، وأدب مع رسوله ﷺ وشرعه، وأدب مع خَلْقِه.

الأدب مع الله:

فالأدب مع الله ثلاثة أنواع:

أحدها: صيانةُ معاملته أن يشوبها بنقيصة.

الثاني: صيانة قلبك أن يلتفت إلى غيره.

الثالث: صيانة إرادتك أن تتعلَّق بما يَمقُتُك عليه.

وقال ابنُ المبارك رحمه الله: «نحن إلى قليل من الأدب أحوجُ منَّا إلى كثير من العِلم».

وتأمَّلْ أحوالَ الرُّسُل صلواتُ الله وسلامُه عليهم مع الله، وخطابَهم وسؤالهم، كيف تَجِدُها كلَّها مشحونةً بالأدب، قائمةً به.

قال المسيح عليه السلام: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ ولم يقل: «لم أقُلْه»، وفرْقٌ بين الجوابين في حقيقة الأدب، ثمَّ أحال الأمر على عِلمه سبحانه بالحال وسِرِّه، فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ ثم برَّأ نفْسَه عن عِلمه بغيب ربِّه وما يختص به

سبحانه، فقال: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ ثم أثنى على ربه، ووصفه بتفرُّده بعِلم الغيوب كلِّها، فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وكذلك قولُ إبراهيمَ الخليلِ ﷺ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٠] ولم يقُل: «وإذا أمرضني»؛ حِفظًا للأدب مع الله.

وكذلك قولُ الخَضرِ ﷺ في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، ولم يقُل: «فأراد ربُّك أن أعيبها». وقال في الغُلامَين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢].

وكذلك قول مؤمني الجنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ولم يقولوا: «أراده ربهم».

ثم قالوا: ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ١٠].

وألطفُ من هذا قولُ موسى ﷺ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤] ولم يقُل: «أطعمني».

وقال عبدُ الله بنُ المُبارك رحمه الله: «مَن تهاوَنَ بالأدب عُوقب بحرمان السُّنن، ومَن تهاوَنَ بالسُّنن عوقِب بحرمان الفرائض، ومَن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة».

والأدب هو الدِّين كلُّه، فإنَّ سَتْرَ العورةِ من الأدب، والوُضوءَ وغُسلَ الجنابة والتطهُّرَ من الخبث مِن الأدب، حتى يقف بين يدَيِ الله طاهرًا.

ولهذا كانوا يستحِبُّون أن يتجمَّل الرجُلُ في صلاته للوقوف بين يدي ربِّه.

وكان لبعض السلف حُلَّةٌ بمبلغ عظيم من المال، وكان يَلبَسُها وقتَ الصلاة، ويقول: «ربِّي أحقُّ مَن تجمَّلْتُ له في صَلاتي».

والمقصود: أن الأدب مع الله تبارك وتعالى: هو القيام بدينه، والتأدُّبُ بآدابه ظاهرًا وباطنًا.

ولا يستقيم لأحدٍ قطُّ الأدبُ مع الله إلا بثلاثة أشياءَ: معرفةٌ به بأسمائه وصفاته، ومعرفةٌ بدينه وشرعه وما يُحِبُّ وما يَكرَه، ونفْسٌ مستعدة قابلة ليِّنَةٌ، متهيئة لقَبول الحق عِلمًا وعملًا وحالًا؛ والله المستعان.

الأدب مع الرسول ﷺ:

وأمَّا الأدبُ مع الرسول ﷺ: فالقرآن مملوءٌ به.

فرأسُ الأدب معه: كمالُ التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقِّي خبرِه بالقَبول والتصديق، دون أن يحمّله معارضةَ خيال باطل، يسمِّيه معقولًا، أو يحمّله شبهةً أو شكاً، أو يقدِّم عليه آراءَ الرجال، وزبالات أذهانهم، فيوحِّدُه بالتحكيم والتَّسليم، والانقيادِ والإذعان، كما وحَّد المرسِلَ بالعبادة والخضوعِ والذُّلِّ، والإنابةِ والتوكل.

ومِن الأدب مع الرسول ﷺ: أن لا يتقدَّم بيْن يديه بأمر ولا نهيٍ، ولا إذنٍ ولا تصرُّف، حتى يأمر هو، وينهى ويأذَن، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] وهذا باقٍ إلى يوم القيامة لم يُنسَخ، فالتقدُّمُ بيْن يدي سُنَّتِه بعد وفاته، كالتقدُّم بين يديه في حياته، ولا فرْقَ بينهما عند ذي عقل سليم.

ومِن الأدب معه: أن لا تُرفعَ الأصواتُ فوقَ صوته؛ فإنَّه سببٌ لحبوط الأعمال، فما الظنُّ برفع الآراء، ونتائجِ الأفكار على سُنَّتِه وما جاء به؟ أترى ذلك موجبًا لقَبول الأعمال، ورفع الأصواتِ فوقَ صوته موجبٌ لحبوطها؟!

ومن الأدب معه: أن لا يُستشكَلَ قولُه؛ بل يَستشكل الآراء لقوله، ولا يُعارض نصُّه بقياس؛ بل تُهدَرُ الأقيسةُ وتلغى لنصوصه، ولا يحرَّف كلامُه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابُه معقولًا.

الأدب مع الخلق:

وأمَّا الأدبُ مع الخَلْق؛ فهو معاملتُهم -على اختلاف مراتبهم- بما يليق بهم، ولكلِّ مرتبة أدبٌ، والمراتب فيها أدبٌ خاصٌّ، فمع الوالدَينِ أدبٌ خاصٌّ، وللأبِ منهما أدبٌ هو أخصُّ به، ومع العالمِ أدبٌ آخرُ، ومع السلطان أدبٌ يليق به، وله مع الأقران أدبٌ يليق بهم، ومع الأجانب أدب غيرُ أدبه مع أصحابه وذَوي أنسه، ومع الضيف أدبٌ غير أدبه مع أهل بيته، وأدبُ المَرءِ عنوان سعادتِه وفلاحِه، وقلَّةُ أدبِه عنوان شقاوتِه وبَوارِه.

فما استُجْلِب خيرُ الدنيا والآخرة بمِثل الأدب، ولا استُجلِب حِرمانُهما بمِثل قلَّةِ الأدب.

فانظر إلى الأدب مع الوالدين كيف نَجَّى صاحبَه من حبْس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة؟ والإخلال به مع الأمِّ -تأويلًا وإقبالًا على الصلاة- كيف امتُحن صاحبُه بهدم صومعته وضربِ الناس له، ورَمْيِه بالفاحشة.

منزلــة اليقيــن

وهو من الإيمان بمنزلة الرُّوح من الجسد، وفيه تَفاضَلَ العارفون، وفيه تنافَسَ المتنافسون، وإليه شمَّر العاملون، وعمَلُ القوم إنَّما كان عليه، وإشاراتُهم كلُّها إليه، وإذا تزوَّج الصبرُ باليقين: ولد بينهما حصولُ الإمامةِ في الدِّين، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

فـ«اليقين» رُوح أعمال القلوب التي هي أرواح أعمالِ الجوارح، وهو حقيقة الصدِّيقيَّة، وهو قُطب رَحَى هذا الشأن الذي عليه مدارُه.

واليقين قرين التوكل؛ ولهذا فُسِّر التوكُّل بقوَّة اليقين.

والصواب: أنَّ التوكل ثمرتُه ونتيجته؛ ولهذا حَسُن اقترانُ الهدى به، قال الله تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩] فالحقُّ: هو اليقين، وقالت رُسُلُ الله: ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم: ١٢].

ومتى وصل اليقينُ إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا، وانتفى عنه كلُّ ريب وشكٍّ وسخط، وهمٍّ وغمٍّ، فامتلأ محبَّةً لله، وخوفًا منه ورضًا به، وشكرًا له، وتوكُّلًا عليه، وإنابة إليه، فهو مادة جميع المقامات والحامل لها.

واخْتُلِف فيه: هل هو كَسْبِّي، أو مَوْهبِّي؟

والتحقيق: أنه كسْبيٌّ باعتبار أسبابه، مَوهبيٌّ باعتبار نفْسِه وذاته.

قال الجُنَيد رحمه الله: «اليقين هو استقرار العِلم الذي لا يَنقلب ولا يُحوَّل، ولا يتغيَّر في القلب».

وقال بعضُهم: «رأيتُ الجنةَ والنارَ حقيقةً، قيل له: وكيف؟ قال: رأيْتُهما بعينَيْ رسولِ الله ﷺ، ورؤيتي لهما بعينيه أوثقُ عندي من رؤيتي لهما بعيْنَيَّ؛ فإنَّ بصري قد يخطئ ويَزيغ، بخلاف بصرِه ﷺ».

واليقينُ يَحمل على الأهوال، وركوبِ الأخطار، وهو يأمُر بالتقدُّم دائمًا، فإنْ لم يقارنه العلم؛ حمل على المعاطب.

والعِلم يأمرُ بالتأخُّرِ والإحجام، فإنْ لم يَصحَبْه اليقينُ قعَد بصاحبه عن المكاسب والغنائم.

[و] الفرق بيْن عِلمِ اليقين وعينِ اليقين وحقِّ اليقين كالفرْق بين الخبر الصادق والعِيان، وحقُّ اليقين فوقَ هذا.

وقد مثلت المراتب الثلاث بمَن أخبرك: أن عندَه عسلًا، وأنت لا تشُكُّ في صِدْقه، ثم أراك إياه فازددْتَ يقينًا، ثم ذُقْتَ منه.

فالأول: عِلم اليقين.

والثاني: عين اليقين.

والثالث: حقُّ اليقين.

فعِلْمُنا الآنَ بالجنة والنار: عِلمُ يقين، فإذا أُزلِفَتِ الجنةُ في الموقف وشاهَدَها الخلائق، وبُرِّزَتِ الجحيمُ وعايَنها الخلائق، فذلك عين اليقين، فإذا أُدخل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلُ النارِ النارَ فذلك حينئذ حقُّ اليقين.

منزلــة الذّكــر

الذِّكر منشورُ الولاية الذي من أُعْطِيه اتصل، ومن مُنِعَه عُزِلَ، وهو قُوتُ قلوب القوم، الذي متى فارقها صارت الأجسادُ لها قبورًا، وعمارةُ ديارهم فمتى تعطَّلَتْ عنه صارت بورًا، وهو سلاحُهُمُ الذي يقاتِلون به قطَّاعَ الطريق، وماؤُهم الذي يطفئون به التِهابَ الحريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب.

به يَستدفِعون الآفات، ويستكشفون الكُرُبات، وتَهون عليهم به المصيبات، وعلى كل جارحة من الجوارح عبوديةٌ مؤقَّتة، والذِّكر عبوديةُ القلب واللسان، وهي غيرُ مؤقَّتة، بل هم مأمورون بذِكر معبودِهم ومحبوبهم في كلِّ حال: قيامًا، وقعودًا، وعلى جنوبهم.

فكما أنَّ الجنة قيعانٌ وهو غِراسها، فكذلك القلوب بور وخراب وهو عمارتها وأساسُها.

وهو جِلاء القلوب وصِقالُها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلَّما ازداد الذَّاكرُ في ذِكره استغراقًا، ازداد لمذكوره مَحَبَّةً وإلى لقائه اشتياقًا، وإذا واطأ في ذِكره قلبُه للسانه، نسيَ في جنب ذِكرِه كلَّ شيء، وحفِظَ اللهُ عليه كلَّ شيء، وكان له عِوضًا من كل شيء.

به يزول الوَقْرُ عن الأسماع، والبَكَم عن الألسُن، وتنقشِعُ الظُّلْمةُ عن الأبصار.

زيَّن الله به ألسنةَ الذَّاكرين، كما زيَّن بالنور أبصارَ الناظرين، فاللسان الغافل كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظمُ المفتوحُ بينه وبين عبدِه، ما لم يغلقه العبد بغفلتِه.

قال الحسَن البَصريُّ رحمه الله: «تفقَّدوا الحلاوةَ في ثلاثة أشياء: في الصلاة، والذِّكرِ، وقراءةِ القرآن، فإن وجدْتُم، وإلَّا فاعلموا أنَّ البابَ مغلَقٌ».

وبالذكر يَصرع العبدُ الشيطان، كما يصرع الشيطانُ أهلَ الغفلة والنسيان.

وهو في القرآن على عشَرة أوجُهٍ:

الأول: الأمر به مطْلَقًا ومقيدًا.

الثـاني: النهي عن ضدِّه من الغفلة والنِّسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرتِه.

الرابع: الثناء على أهله والإخبار بما أعدَّ الله لهم من الجنة والمغفرة.

الخامس: الإخبار عن خُسران مَن لَهَا عنه بغيره.

السادس: أنه جعل ذِكرَه سبحانه لهم جزاءً لِذِكرِهم له.

السـابع: الإخبار أنَّه أكبَرُ من كلِّ شيء.

الثامـن: أنه جعله خاتمةَ الأعمال الصالحة كما كان مِفتاحَها.

التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هُم أهلُ الانتفاع بآياته، وأنهم أولو الألباب دون غيرهم.

العاشر: أنه جعله قرينَ جميعِ الأعمال الصالحة ورُوحَها، فمتى عَدِمَتْه كانت كالجسد بلا رُوح.

والذَّاكرون: هم أهل السبق، كما روى مسلم في صحيحه من حديث العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرةَ ﵁ قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ يَسيرُ في طريق مكَّةَ، فمَرَّ على جبلٍ يقال له: جُمْدانُ، فقال: «سِيروا هذا جُمْدانُ، سَبَقَ المُفَرِّدونَ» قالوا: وما المُفَرِّدونَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «الذَّاكِرونَ اللهَ كثيرًا والذَّاكِراتُ»[1]. والمُفَرِّدون: إما الموحِّدون، وإما الآحاد الفُرادى.

وفي المسند مرفوعًا من حديث أبي الدَّرداء ﵁: «ألا أُنبِّئُكُم بخَيرِ أعمالِكُم، وأزْكاها عِندَ مَليكِكُم، وأرْفَعِها في دَرَجاتِكُم، وخَيرٍ لكُم مِن إعطاءِ الذَّهبِ والفِضَّةِ، وأنْ تَلْقَوْا عَدوَّكُم، فتَضرِبوا أعناقَهُم ويَضرِبوا أعناقَكُم؟» قالوا: وما ذاكَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «ذِكْرُ اللهِ ﷻ»[2].

ويكفي في شرف الذِّكر: أنَّ الله يباهي ملائكتَه بأهله، كما في صحيح مسلم عن معاويةَ ﵁: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ: خَرَج على حَلْقةٍ مِن أصحابه، فقال: «ما أجْلَسَكُم؟»، قالوا: جَلَسْنا نَذْكُرُ اللهَ ونَحمَدُه على ما هَدانا للإسلام ومَنَّ به علينا. قال: «آللهِ ما أجلَسَكُم إلَّا ذلكَ؟» قالوا: آللهِ ما أجلَسَنا إلَّا ذلكَ. قال: «أمَا إنِّي لَمْ أستَحْلِفْكُم تُهْمةً لكُم، ولكنْ أتاني جِبريلُ ﵇ فأخبَرَني: أنَّ اللهَ يُباهي بكُمُ المَلائِكَةَ»[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، وصححه الألباني في «تخريج الكلم الطيب» (١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٠١).

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «مَثَلُ الَّذي يَذْكُرُ ربَّهُ والَّذي لا يَذْكُرُه: مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّتِ»[1].

الذكر ثلاثة أنواع:

١- ذِكر الأسماء والصفات ومعانيها، والثناء على الله بها، وتوحيد الله بها.

٢- وذِكر الأمر والنهي، والحلال والحرام.

٣- وذِكر الآلاء والنَّعماء، والإحسان والأيادي.

[و] هو ثلاثة أنواع أيضًا: ذِكرٌ يتواطأ عليه القلبُ واللسان، وهو أعلاها.

وذِكرٌ بالقلب وحدَه، وهو في الدرجة الثانية.

وذِكرٌ باللسان المجرَّد، وهو في الدرجة الثالثة.

وذِكر العبد لربِّه محفوفٌ بذِكرين من ربِّه له: ذِكر قبله به صار العبد ذاكرًا له، وذِكر بعده به صار العبد مذكورًا، كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال فيما يَروي عنه نبيُّه ﷺ: «مَن ذَكَرَني في نفْسِه ذَكَرْتُه في نفْسي، ومَن ذَكَرَني في ملأٍ ذَكَرْتُه في مَلأٍ خَيرٍ منهُم»[2].

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٧) واللفظ له، ومسلم (٧٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

منزلة العلم

وهذه المنزلة إن لم تصحبِ السالكَ مِن أوّل قدَم يضعه في الطريق إلى آخِرِ قدمٍ ينتهي إليه، فسلوكُه على غير طريق، وهو مقطوع عليه طريقُ الوصول، مسدودٌ عليه سُبُلُ الهدى والفلاح، مغلَّقةٌ عنه أبوابها، وهذا إجماع من الشيوخ العارفين، ولم يَنْهَ عن العلم إلا قطّاعُ الطريق منهم، ونوّابُ إبليس وشُرَطُه.

قال الجُنَيد بن محمد رحمه الله: «الطُّرُقُ كلُّها مسدودةٌ على الخلْق إلّا على من اقتفى آثارَ الرسول ﷺ».

وقال: «مَن لم يحفظ القرآن، ويكتُبِ الحديث؛ لا يُقتَدى به في هذا الأمر؛ لأن عِلمنا مقيَّد بالكتاب والسنة».

العلم هادٍ، هو تِركةُ الأنبياء وتراثُهم، وأهلُه عصَبتهم ووُرّاثُهم، وهو حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذَّةُ الأرواح، وأُنسُ المستوحشين، ودليلُ المتحيِّرين، وهو الميزان الذي به توزن الأقوالُ والأعمال والأحوال.

وهو الحاكم المفرِّق بين الشكِّ واليقين، والغَيِّ والرشاد، والهدى والضلال.

به يُعْرَف الله ويُعْبَد، ويُذْكَر ويُوحَّد، ويُحمد ويُمجَّد، وبه اهتدى إليه السالكون، ومن طريقه وصل إليه الواصلون، ومِن بابه دخل عليه القاصدون.

به تُعرَف الشرائعُ والأحكام، ويتميَّزُ الحلال من الحرام، وبه تُوصَل الأرحام،

وبه تُعرَف مراضي الحبيب، وبمعرفتها ومتابعتها يوصل إليه من قريب.

وهو إمامٌ، والعمل مأموم، وهو قائدٌ، والعمل تابع، وهو الصاحب في الغربة، والمحدِّثُ في الخَلوة، والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشُّبهة، والغنى الذي لا فقر على مَن ظفِر بكَنزه، والكَنَفُ الذي لا ضيعةَ على مَن آوى إلى حِرزه.

مذاكرته تسبيح، والبحثُ عنه جهاد، وطلبُه قُربة، وبَذْلُه صدقة، ومدارسته تُعدل بالصيام والقيام، والحاجة إليه أعظمُ منها إلى الشراب والطعام.

قال الإمام أحمد ﵀: «الناس إلى العِلمِ أحوجُ منهم إلى الطعام والشَّراب؛ لأنَّ الرجُل يحتاج إلى الطعام والشرابِ في اليوم مرَّةً أو مرتين، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه».

ورَوِّينا عن الشافعيِّ ﵀ أنه قال: «طلبُ العِلمِ أفضلُ من صلاة النافلة». ونصَّ على ذلك أبو حنيفة ﵀.

وقال ابنُ وَهْب ﵀: «كنت بين يدَيْ مالك ﵀، فوضعتُ ألواحي وقمتُ أصلِّي، فقال: ما الذي قمتَ إليه بأفضلَ ممَّا قمتَ عنه». ذكره ابن عبد البَرِّ وغيرُه.

واستشهد الله ﷻ بأهل العلم على أجَلِّ مشهود به، وهو التوحيد، وقَرَن شهادتَهم بشهادته وشهادةِ ملائكته، وفي ضِمْنِ ذلك تعديلُهم؛ فإنَّه ﷻ لا يَستشهِد بمجروح.

وهو حجَّةُ الله في أرضه، ونورُه بين عباده، وقائدهم ودليلهم إلى جنَّته، ومُدْنِيهم من كرامته.

ويكفي في شرفه: أنَّ فضْلَ أهلِه على العباد كفضل القمرِ ليلةَ البدر على سائر الكواكب، وأنَّ الملائكة لَتَضَعُ لهم أجنحتها، وتُظِلُّهم بها، وأنَّ العالِمَ يستغفر له مَن في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتانُ في البحر، وحتى النملُ في جحرها، وأن الله وملائكته يصلُّون على معلِّمي الناسِ الخيرَ.

ولقد رحل كليمُ الرحمن موسى بنُ عِمرانَ عليه السلام في طلب العلم هو وفتاه، حتى مسَّهما النصَبُ في سفرهما في طلب العلم، حتى ظفِر بثلاث مسائلَ، وهو مِن أكرمِ الخلْقِ على الله وأعلمِهم به.

وأمرَ اللهُ رسولَه أن يسأله المزيدَ منه، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

منزلة السَّكينة

وقد ذَكَر الله سبحانه السَّكينةَ في كتابه في ستَّة مواضعَ:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

الثاني: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦].

الثالث: قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠].

الرابع: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

السادس: قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦].

وكان شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ ﷺ إذا اشتدَّت عليه الأمورُ؛ قرأ آياتِ السَّكينة، وسمِعتُه يقول في واقعة عظيمةٍ جرتْ له في مرضه، تعجِزُ القُوى عن حمْلها- من محاربة أرواحٍ شيطانية، ظهرتْ له إذْ ذاك في حال ضَعْف

القوَّة- قال: «فلمَّا اشتدَّ عليَّ الأمرُ، قلتُ لأقاربي ومَن حولي: اقرؤوا آياتِ السَّكينة، قال: ثم أقلَع عنِّي ذلك الحالُ، وجلستُ وما بي قَلَبَةٌ».

وقد جرَّبتُ أنا أيضًا قراءةَ هذه الآيات عند اضطرابِ القلب ممَّا يَرِدُ عليه؛ فرأيتُ لها تأثيرًا عظيمًا في سكونه وطُمأنينتِه.

وأصل «السكينة»: هي الطُّمأنينةُ والوقار، والسكون الذي يُنزِلُه الله في قلب عبدِه، عند اضطرابِه من شدةِ المخاوف؛ فلا يَنزعِجُ بعد ذلك لِما يَرِدُ عليه، ويوجب له زيادةَ الإيمان، وقوَّةَ اليقين والثبات.

ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضعِ القلق والاضطراب؛ كيومِ الهجرة، إذْ هو وصاحبُه في الغار، والعدوُّ فوقَ رؤوسهم، لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآهما، وكيومِ حُنَيْنٍ، حين ولَّوْا مدبِرينَ من شدة بأس الكفَّار، لا يَلْوي أحدٌ منهم على أحد، وكيومِ الحُديبية حين اضطربت قلوبُهم من تحكُّم الكفار عليهم، ودخولِهم تحت شروطِهِمُ التي لا تحملها النفوس، وحسْبُك بضَعف عُمَرَ عن حملها -وهو عُمرُ- حتى ثبَّتَه الله بالصِّدِّيق، قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «كلُّ سكينة في القرآن فهي طُمأنينة، إلَّا التي في سورة البقرة».

والسكينة إذا نزلت في القلب اطمأنَّ بها، وسكنتْ إليها الجوارحُ وخشعت، واكتسبت الوقار، وأنطقت اللِّسانَ بالصواب والحكمة، وحالت بينه وبين قولِ الخنا والفُحش، واللَّغوِ والهُجْرِ، وكلِّ باطل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كنا نتحدَّث أنَّ السَّكينةَ تنطِقُ على لسان عُمَرَ وقلبِه».

مَنْزِلَـــةُ المَحَبّــةِ

وهي المنزلة التي فيها تنافَسَ المتنافِسون، وإليها شخَص العامِلون، وإلى عَلَمِها شمَّر السابقون، وعليها تفانى المحِبُّون، وبرَوحِ نسيمِها تروَّحَ العابدون؛ فهي قُوتُ القلوب، وغذاءُ الأرواح، وقرَّةُ العيون، وهي الحياة التي من حُرِمَها فهو مِن جملة الأموات، والنورُ الذي مَن فقَدَه ففي بحار الظُّلُمات، والشفاءُ الذي مَن عُدِمه حلَّت بقلبه جميعُ الأسقام، واللذةُ التي مَن لم يَظفَرْ بها فعَيْشُه كلُّه همومٌ وآلام.

وهي رُوح الإيمانِ والأعمال، والمقاماتِ والأحوال التي متى خلتْ منها فهي كالجسد الذي لا رُوحَ فيه.

تَحمِلُ أثقالَ السائرينَ إلى بلاد لم يكونوا إلا بشِقِّ الأنفُسِ بالغيها، وتوصِلُهم إلى منازلَ لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها، وتُبَوِّئُهم من مقاعد الصِّدْقِ مقاماتٍ لم يكونوا لولا هي داخليها، وهي مطايا القوم التي مَسراهم على ظهورِها دائمًا إلى الحبيب، وطريقُهُمُ الأقْومُ الذي يُبَلِّغُهم إلى منازلهم الأُولى من قريب.

تالله لقد ذهب أهلُها بشرف الدنيا والآخرة؛ إذ لهم من مَعيَّةِ محبوبِهم أوفرُ نصيب، وقد قضى الله -يومَ قدَّر مقاديرَ الخلائق بمشيئته وحكمتِه البالغة-: أن المرء مع من أحب، فيا لها من نعمةٍ على المحبِّينَ سابِغة.

تالله لقد سبق القومُ السُّعاةَ وهُم على ظُهور الفُرُشِ نائمون، وقد تقدَّموا الرَّكْبَ بمراحلَ وهُم في سيرهم واقفون.

مَـــنْ لي بمِثْلِ سَيْرِكَ المُدَلَّـــلِ   تَمشِي رُوَيْـدًا وتَجِي في الأوَّلِ

أجابوا مؤذِّنَ الشَّوق إذْ نادى بهم: حيَّ على الفلاح، وبَذَلوا أنفسَهم في طلب الوصول إلى محبوبهم، وكان بَذْلُهم بالرِّضا والسماح، وواصلوا إليه المسيرَ بالإدلاج والغُدُوِّ والرَّواح، تالله لقد حَمِدوا عند الوصول مَسْراهم، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم، وإنما يَحمَدُ القومُ السُّرَى عند الصباح.

أوَّلُ نقده مِن أثمان المحبَّة: بَذْلُ الرُّوح؛ فما للمُفلِسِ الجَبانِ البَخيلِ وسَوْمِها؟

تالله ما هزلتْ فيَستامُها المُفلِسون، ولا كسَدَتْ فيُنفقَها بالنَّسيئةِ المُعسِرون، لقد أُقيمَتْ للعَرض في سوقِ مَنْ يزيد، فلم يُرضَ لها بثمن دُون بَذْلِ النُّفوس، فتأخَّر البطَّالون، وقام المحِبُّون ينظرون، أيُّهم يَصلُحُ أن يكون ثمنًا؟ فدارتِ السِّلعةُ بينهم، ووقعت في يد: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

لما كثُر المدَّعون للمحبة طُولبوا بإقامة البيِّنةِ على صحَّةِ الدعوى؛ فلو يُعطَى الناس بدعواهم لادَّعى الخَلِيُّ حُرقةَ الشَّجيِّ، فتنوَّع المدَّعون في الشهود، فقيل: لا تُقبَلُ هذه الدعوى إلا ببيِّنة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فتأخَّرَ الخلْقُ كلُّهم، وثبتَ أتباعُ الحبيبِ في أفعاله وأقواله وأخلاقِه؛

فطُولِبوا بعدالة البيِّنة بتزكية: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾ [المائدة: ٥٤].

فتأخَّر أكثرُ المحبِّينَ وقام المجاهِدون، فقيل لهم: إنَّ نفوس المحبِّينَ وأموالَهم ليست لهم، فهَلُمُّوا إلى بيعة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فلمَّا عرَفوا عَظَمةَ المُشتري، وفضْلَ الثمن، وجلالةَ مَن جرى على يديه عقدُ التبايع؛ عرَفوا قدْرَ السِّلعة، وأن لها شأنًا، فرأوا من أعظم الغَبنِ أن يبيعوها لغيره بثمن بَخْسٍ، فعقَدوا معه بيعةَ الرِّضوانِ بالتراضي، من غير ثبوت خِيار، وقالوا: واللهِ لا نُقِيلُك ولا نَستَقِيلُك.

فلمَّا تمَّ العقدُ وسلَّموا المَبيع، قيل لهم: مُذْ صارتْ نفوسُكم وأموالُكم لنا رَدَدْناها عليكم أوْفرَ ما كانت، وأضعافَها معًا: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠].

[و] إذا غُرِستْ شجرةُ المحبَّةِ في القلب، وسُقِيَتْ بماء الإخلاص، ومتابعةِ الحبيب؛ أثمرَتْ أنواعَ الثِّمار، وآتتْ أُكُلَها كلَّ حين بإذن ربِّها، أصْلُها ثابتٌ في قرار القلب، وفرْعُها متَّصِلٌ بسِدرة المنتهى.

[و] لا يزالُ سَعْيُ المحِبِّ صاعِدًا إلى حبيبه، لا يحجُبُه دُونَه شيءٌ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

تعريف المحبة:

لا تُحَدُّ المحبةُ بحدٍّ أوضحَ منها؛ فالحدود لا تَزيدُها إلّا خفاءً وجفاء، فحدُّها وجودُها، ولا توصف المحبةُ بوصفٍ أظهَرَ من المحبة.

وإنَّما يتكلَّمُ الناس في أسبابها وواجباتِها، وعلاماتِها وشواهدها، وثمراتِها وأحكامها، فحدودُهم ورسومُهم دارتْ على هذه السِّتَّة، وتنوَّعتْ بهِمُ العِبارات، وكثُرتِ الإشارات، بحسَب إدراكِ الشَّخصِ ومقامِه وحاله، وملكِه للعبارة.

ومِن أجمع ما قيل فيها، [قول] أبي بكر الكتَّانيِّ رحمه الله: «جرَتْ مسألة في المحبَّةِ بمكَّةَ -أعزَّها الله- أيامَ المَوسم، فتكلَّم الشيوخ فيها، وكان الجُنَيدُ أصغرَهم سِنًّا، فقالوا: هاتِ ما عندك يا عراقيُّ، فأطرق رأسه، ودمعتْ عيناه، ثم قال: عبدٌ ذاهبٌ عن نفسِه، متَّصِلٌ بذكر ربِّه، قائم بأداء حقوقه، ناظرٌ إليه بقلبه، أحرق قلبَه أنوارُ هَيبتِه، وصفَا شُربُه من كأس وُدِّه، وانكشف له الجبار مِن أستار غيبه، فإنْ تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرَّك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله.

فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مَزيدٌ، جبرَكَ اللهُ يا تاجَ العارفين».

الأسباب الجالبة للمحبة، والموجبةِ لها عشَرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبُّر والتفهُّم لمعانيه وما أُريد به، كتدبُّر الكتابِ الذي يحفظه العبد [ويشرحه]، ليتفهَّمَ مرادَ صاحبِه منه.

الثاني: التقرُّب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض؛ فإنَّها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكرِه على كلِّ حال؛ باللسان والقلب، والعملِ والحال، فنصيبه من المحبة على قدْرِ نصيبِه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابِّه على محابِّك عند غلبات الهوى، والتَّسَنُّم إلى محابِّه، وإن صعُب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاتِه، ومشاهدتُها ومعرفتها، وتقلُّبُه في رياض هذه المعرفة وميادينها، فمَن عرَف الله بأسمائه وصفاتِه وأفعالِه: أحبَّه لا محالة؛ ولهذا كانت المعطِّلةُ والفِرعونيةُ والجَهميَّةُ قطَّاعَ الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

السادس: مشاهدة بِرِّه وإحسانه وآلائه، ونِعَمِه الباطنة والظاهرة؛ فإنها داعية إلى محبته.

السابع -وهو من أعجبها-: انكسارُ القلب بكلِّيَّتِه بين يديه، وليس في التعبير عن هذا المعنى غيرُ الأسماء والعبارات.

الثامن: الخَلوةُ به وقتَ النزول الإلهيِّ؛ لمناجاته وتلاوةِ كلامه، والوقوف بالقلب والتأدُّب بأدب العبودية بين يديه، ثم خَتْمُ ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبِّينَ الصادقين، والتِقاطُ أطايبَ ثمراتِ كلامِهم كما يَنتقي أطايبَ الثمر، ولا تتكلم إلَّا إذا ترجَّحتْ مصلحةُ الكلام، وعلِمتَ أنَّ فيه مَزيدًا لحالك، ومنفعةً لغيرك.

العاشر: مباعدة كلِّ سببٍ يَحول بين القلب وبين الله ﷻ.

فمِن هذه الأسباب العشَرةِ: وصَلَ المحبُّون إلى منازلِ المحبة، ودخلوا على الحبيب، ومِلاكُ ذلك كلِّه أمْران: استعدادُ الرُّوح لهذا الشأن، وانفتاحُ عينِ البصيرة والله المستعان.

محبة العبد لله ومحبة الله للعبد:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وهذه تسمَّى آيةَ المحبة. قال أبو سليمانَ الدَّاراني ؒ: «لَمَّا ادَّعتِ القلوبُ محبةَ الله؛ أنزل الله لها محنة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]».

وفي الصحيحين، عن أنس ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثَلاثٌ مَن كُنَّ فيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوةَ الإيمانِ: أنْ يَكُونَ اللهُ ورَسُولُه أحَبَّ إليهِ مِمَّا سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّه إلَّا لله، وأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ -بَعْدَ إذْ أنقذَهُ اللهُ مِنهُ- كما يَكرَهُ أنْ يُلْقَى في النارِ**»[1].

وفي صحيح البخاري، عن أبي هريرةَ ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَقولُ اللهُ تعالى: مَن عادَى لي وَلِيًّا فقدْ آذَنْتُه بالحَرْبِ، وما تَقرَّبَ إليَّ عَبدِي بشَيءٍ أَحَبَّ إليَّ مِن أداءِ ما افْتَرَضْتُه عليهِ، ولا يَزالُ عَبدِي يَتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّه؛ فإذا أحبَبْتُه كُنتُ سَمْعَه الَّذي يَسْمَعُ بهِ، وبَصَرَه الَّذي يُبصِرُ بهِ، ويَدَهُ**

(١) أخرجه البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣).

التي يَبطِشُ بها، ورِجْلَه التي يَمشِي بها، ولَئِنْ سألَني لأُعْطِينَّه، ولَئِنْ استَعاذَني لأُعِيذَنَّه»(١).

وفي الصحيحين عنه أيضًا، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إذا أحَبَّ اللهُ العَبدَ دَعَا جِبْرِيلَ، فقال: إنِّي أُحِبُّ فُلانًا، فأحِبَّه؛ فيُحِبُّه جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادي في السَّماءِ، فيَقُولُ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فأحِبُّوهُ، فيُحِبُّه أهْلُ السَّماءِ، ثمَّ يُوضَعُ لهُ القَبُولُ في الأرضِ»(٢).

والقرآن والسُّنَّةُ مملوآن بذكرِ مَن يحِبُّه اللهُ سبحانه من عِبادِه، وذِكرِ ما يحبه مِن أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وكمْ في السُّنة: «أحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ كذا وكذا»، و«إنَّ اللهَ يُحِبُّ كذا وكذا»؛ كقوله: «أحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ: الصَّلاةُ على وَقْتِها، ثُمَّ بِرُّ الوالِدَيْنِ، ثمَّ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ»(٣)، و«أحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ: الإيمانُ باللهِ، ثمَّ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ، ثمَّ حَجٌّ مَبْرُورٌ»(٤)، و«أحَبُّ العَمَلِ إلى اللهِ:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٧، ٥٩٧٠)، ومسلم (٨٥).

(٤) أخرجه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٣).

ما داوَمَ عليهِ صاحِبُه»[1]، وقوله: «**إنَّ اللهَ يُحِبُّ أنْ يُؤْخَذَ بِرُخَصِه**»[2].
وأضعاف ذلك، وفرَحُه العظيم بتوبة عبدِه الذي هو أشدُّ فرَحٍ يَعلَمُه العِباد، وهو مِن محبَّتِه للتوبة وللتائب.

فلو بَطَلَتْ مسألةُ المحبة لبطلَتْ جميعُ مقامات الإيمانِ والإحسان، ولتعطَّلَتْ منازلُ السَّير إلى الله.

فإنها رُوح كلِّ مقام ومنزلةٍ وعملٍ؛ فإذا خلا منها فهو ميت لا رُوح فيه، ونِسبتُها إلى الأعمال كنسبة الإخلاصِ إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفْسُ الإسلام؛ فإنَّه الاستسلام بالذُّلِّ والحبِّ والطاعة لله، فمَن لا محبَّةَ له لا إسلامَ له ألبَتَّةَ؛ بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإنَّ «**الإله**» هو الذي يَألَهُه العِبادُ حبّاً وذُلّاً، وخوفًا، ورجاءً، وتعظيمًا، وطاعةً.

إِله: بمعنى «**مألوه**»، وهو الذي تألَهُه القلوب، أي: تُحبُّه وتَذِلُّ له.

وأصل «**التَّألُّه**»: التعبُّد، و«**التعبُّد**» آخِرُ مراتبِ الحبِّ.

يقال: (عبَّده الحبُّ وتَيَّمَه): إذا ملَكه وذلـله لمَحبوبِه.

فـ «**المحبة**» حقيقةُ العبودية، وهل يُمكِنُ الإنابةُ بدون المحبَّةِ والرضا، والحمدِ والشكر، والخوفِ والرجاء؟ وهل الصبرُ في الحقيقة إلَّا صبرُ المحبِّينَ؟ فإنَّهم إنَّما يتوكَّلون على المحبوب في حصول محابِّه ومراضيه.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣)، ومسلم (٧٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥٨٦٦)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٣/ ٩).

وكذلك «الزهد» في الحقيقة: هو زهدُ المحبِّينَ؛ فإنَّهم يَزهَدون في محبَّةِ ما سِواه لمحبته.

وكذلك «الحياء» في الحقيقة: إنَّما هو حياءُ المحبِّين؛ فإنه يتولَّدُ مِن بين الحبِّ والتعظيم، وأمَّا ما لا يكون عن محبة: فذلك خوفٌ مَحْضٌ.

وكذلك مقامُ «الفقر»؛ فإنَّه في الحقيقة فقرُ الأرواح إلى محبوبها، وهو أعلى أنواعِ الفقر؛ فإنَّه لا فقرَ أتمُّ من فقر القلب إلى مَن يحبُّه، لا سيما إذا وجده في الحب، ولم يَجِدْ منه عِوضًا سواه، وهذه حقيقة الفقر عند العارفين.

وكذلك «الغنى» هو غنى القلبِ بحصول محبوبه، وكذلك الشوق إلى الله تعالى ولقائِه؛ فإنَّه لُبُّ المحبَّةِ وسِرُّها.

منزلة الذوق

في الصحيح عنه ﷺ: «ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ: مَن رَضِيَ باللهِ رَبًّا، وبالإسلامِ دِينًا، وبمُحمَّدٍ ﷺ رَسُولًا»(١)، فأخبر: أنَّ للإيمان طَعمًا، وأنَّ القلب يَذوقُه كما يَذوقُ الفَمُ طعمَ الطعام والشراب.

وقد عبَّر النبيُّ ﷺ عن إدراك حقيقةِ الإيمان، والإحسانِ، وحُصولِه للقلب ومباشرتِه له بالذَّوقِ تارةً، وبالطعام والشَّرابِ تارةً، وبوجود الحلاوةِ تارةً، كما قال: «ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ»، وقال: «ثَلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجَدَ بهِنَّ حَلاوةَ الإيمانِ: مَن كان اللهُ ورسولُه أحَبَّ إليهِ مِمَّا سِواهُما، ومَن كان يُحِبُّ المَرْءَ لا يُحِبُّه إلَّا لله، ومَنْ كان يَكْرَهُ أنْ يَرجِعَ في الكُفرِ -بَعْدَ إذْ أنْقَذَهُ اللهُ مِنهُ- كما يَكرَهُ أنْ يُلْقَى في النَّارِ»(٢).

وهذا الذَّوقُ هو الذي استدَلَّ به هِرَقْلُ على صحَّةِ النُّبوَّةِ؛ حيث قال لأبي سُفيانَ: «فهل يَرتَدُّ أحدٌ منهم سَخْطةً لدِينِه؟ فقال: لا. قال: وكذلك الإيمانُ، إذا خالَطَتْ حَلاوَتُه بَشاشةَ القُلوبِ»(٣).

فاستدَلَّ بما يَحصُلُ لأتْباعِه مِن ذَوقِ الإيمان الذي [إذا] خالطتْ بشاشتُه القلوبَ: لم يَسخَطْه ذلك القلبُ أبدًا على أنَّه دَعوةُ نُبُوَّةٍ ورسالةٍ، لا دَعوى

(١) أخرجه مسلم (٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

مُلكٍ ورياسة.

والمقصود: أنَّ ذَوقَ حلاوةِ الإيمان والإحسانِ أمْرٌ يَجِدُه القلب، تكونُ نِسبتُه إليه كنسبةِ ذَوقِ حلاوة الطَّعام إلى الفَم، وذَوقِ حلاوةِ الجماعِ إلى آلته؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «حتَّى تَذُوقي عُسَيْلَته، ويَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ»[1]، فللإيمان طعمٌ وحلاوةٌ يتعلَّقُ بهما ذَوقٌ ووجْدٌ، ولا تزولُ الشُّبَهُ والشُّكوكُ إلَّا إذا وصل العبدُ إلى هذه الحال، فباشَرَ الإيمانُ قلبَه حقيقةَ المباشرة، فيَذوقُ طعمَه، ويَجِدُ حلاوتَه، والله الموفق.

علامات الذوق النافع:

مِن علامات الذَّوقِ: أن لا يَقطعَ صاحبَه عن طلبِه أمْرُ دُنيا، وطمعٌ في غرض من أغراضها؛ فإنَّ الأملَ والطَّمعَ يَقْطعان طريقَ القلبِ في سَيرِه إلى مطلبه؛ فإنَّه مَن ذاق حلاوةَ معرفةِ الله والقُربِ منه والأُنسِ به؛ لم يكنْ له أملٌ في غَيرِه، وإنْ تعلَّق أمَلُه بسِواه، فهو لإعانتِه على مَرْضاتِه ومَحابِّه، فهو يؤمِّلُه لأجْلِه، ولا يؤمِّلُه معه.

فإنْ قلتَ: فما الَّذي يَقطَعُ به العبدُ هذا الأمَلَ؟

قلتُ: قوَّةُ رغبتِه في المَطلب الأعلى، الذي ليس شيءٌ أعلى منه، ومعرفتُه بخِسَّةِ ما يؤمَّلُ دُونَه، وسرعةِ ذهابه، ووشْكِ انقطاعِه، وأنَّه في الحقيقة كخيالِ طَيفٍ، أو سحابةِ صَيفٍ، فهو ظِلٌّ زائل، ونَجمٌ قد تدلَّى للغروب فهو

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٣٩)، ومسلم (١٤٣٣).

عن قريبٍ آفِل.

قال النبيُّ ﷺ: «ما لي وللدُّنيا؟ إنَّما أنا كَراكِبٍ قال في ظِلِّ شَجَرةٍ ثُمَّ راحَ وتَرَكَها»(١)، وقال: «ما الدُّنيا في الآخِرة إلاَّ كما يُدخِلُ أحَدُكُم إصْبَعَه في اليَمِّ، فلْيَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ؟»(٢)، فشَبَّه الدُّنيا في جنب الآخرة بما يعلق على الإصبع من البلل حين تُغمَس في البحر.

قال عُمرُ بن الخطَّاب ﷺ: «لو أنَّ الدنيا مِن أوَّلها إلى آخِرِها أُوتيها رجُلٌ، ثم جاءه الموتُ، لكان بمنزلة مَن رأى في منامه ما يَسُرُّه، ثم استيقظ فإذا ليس في يده شيءٌ».

وقال مُطرِّفُ بن عبد الله ﷺ -أو غيرُه-: «نعيمُ الدُّنيا بحذافيره في جنب نعيم الآخرة؛ أقلُّ مِن ذَرَّة في جنب جبال الدنيا».

ومَن حَدَّق عينَ بصيرته في الدنيا والآخرة؛ عَلِم أنَّ الأمر كذلك.

فكيف يَليقُ بصحيح العقلِ والمعرفةِ، أن يَقطعَه أملٌ مِن هذا الجزءِ الحقيرِ عن نَعيمٍ لا يَزولُ، ولا يَضمحِلُّ؟ فضْلًا عن أن يَقطَعه عن طلَبِ مَن نِسبةُ هذا النَّعيمِ الدَّائمِ إلى نعيم معرفتِه ومحبَّتِه، والأُنسِ به، والفرحِ بقُربه، كنِسبةِ نعيمِ الدُّنيا إلى نعيمِ الجنَّةِ؟ قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٣٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٥٨).

﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة: ٧٢]، فيسيرٌ مِن رِضوانه -ولا يُقال له يسير- أكبَرُ مِنَ الجنَّات وما فيها.

وفي حديث الرؤية: «**فوالله ما أعْطاهُمُ اللهُ شَيئًا أحَبَّ إليهِم مِنَ النَّظَرِ إلى وَجْهِه**»(١)، فمَن قطَعَه عن هذا أمَلٌ، فقد فاز بالحِرمان، ورضِي لنفْسِه بغايةِ الخُسران، والله المستعان، وعليه التُّكلان، وما شاء الله كان.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨١).

بين همة البداية والفتور بعدها

قال الجُنَيد رحمه الله: «واشَوْقاهُ إلى أوقاتِ البداية».

يعني: لذَّةَ أوقاتِ البداية، وجَمْع الهمَّةِ على الطلب، والسَّير إلى الله؛ فإنَّه كان مجموعَ الهمَّةِ على السَّير والطلَب. فارتاح إلى أوقاتِ البدايات؛ لِما كان فيها مِن لَذَّةِ الإعراضِ عنِ الخَلْقِ، واجتماعِ الهمَّةِ.

ومَرَّ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه على رجُلٍ، وهو يبكي مِن خشية الله، فقال: «هكذا كنَّا حتَّى قسَتْ قلوبُنا».

وقد أَخبر النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**إنَّ لكُلِّ عامِلٍ شِرَّةً، ولكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً**»[1].

فالطالب الجادُّ: لا بد أن تَعرِضَ له فَتْرةٌ، فيَشتاقُ في تلك الفَترةِ إلى حالِه وقتَ الطَّلبِ والاجتِهاد.

فتخلُّلُ الفتَراتِ للسَّالِكينَ: أمْرٌ لازِمٌ لا بدَّ منه، فمَن كانت فَتْرَتُه إلى مُقارَبةٍ وتَسديدٍ، ولمْ تُخرِجْه مِن فرْضٍ، ولم تُدخِلْه في مُحرَّمٍ رُجيَ له أن يَعودَ خيرًا ممَّا كان.

قال عُمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه: «إنَّ لهذه القُلوبِ إقبالًا وإدبارًا؛ فإذا أقبلَتْ فخُذوها بالنَّوافلِ، وإنْ أدبرَتْ فألزِموها الفَرائضَ».

---

(١) أخرجه أحمد (٦٧٦٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٢١٥٢).

وفي هذه الفَتراتِ والغُيومِ والحُجُبِ الَّتي تَعرِضُ للسَّالكينَ مِنَ الحِكَمِ ما لا يَعلَمُ تفصيلَه إلَّا اللهُ، وبها يَتبيَّنُ الصَّادقُ مِنَ الكاذبِ.

فالكاذبُ يَنقلِبُ على عَقِبَيه، ويَعودُ إلى رُسومِ طبيعتِه وهَواه.

والصَّادقُ يَنتظِرُ الفرَجَ، ولا يَيأسُ مِن رَوحِ اللهِ، ويُلْقي نفْسَه بالبابِ طَريحًا ذليلًا مِسكينًا مُستَكينًا، كالإناءِ الفارغِ الَّذي لا شيءَ فيه ألبَتَّةَ، يَنتظِرُ أن يَضعَ فيه مالِكُ الإناءِ وصانِعُه ما يَصلُحُ له، لا بسببٍ مِنَ العبدِ وإنْ كان هذا الافتِقارُ مِن أعظَمِ الأسبابِ لكن ليس هو منك؛ بل هو الَّذي مَنَّ عليك به، وجرَّدَك منك، وأَخْلاك عنك، وهو الَّذي يَحُولُ بيْنَ المرءِ وقلْبِه.

فإذا رأيتَه قد أقامَك في هذا المَقامِ، فاعلَمْ أنَّه يُريدُ أن يَرحَمَك ويَملأَ إناءَك، فإنْ وضعْتَ القلبَ في غيرِ هذا الموضِعِ فاعلَم أنَّه قلبٌ مُضيَّعٌ، فسَلْ ربَّه ومَن هو بيْنَ أصابِعِه، أن يَرُدَّه عليك، ويَجمَعَ شَمْلَك به، ولقد أحسَنَ القائلُ:

إذا ما وَضَعْتَ القَلْبَ في غَيرِ مَوضِعِ
بغَيرِ إناءٍ فهْوَ قَلْبٌ مُضَيَّعُ

منزلة الصفاء

كان الجُنَيدُ رحمه الله يقولُ دائمًا: عِلْمُنا هذا مقيَّدٌ بالكِتابِ والسُّنَّةِ، فمَن لم يَحفَظِ القرآنَ، ولم يَكتُبِ الحديثَ، ولم يَتفقَّهْ فلا يُقْتَدَى به.

فهذا العِلمُ الصافي، المُتلقَّى مِن مِشكاةِ الوَحيِ والنُّبوَّةِ يُهذِّبُ صاحبَه لسلوكِ طريقِ العبوديَّةِ.

وحقيقتُه: التَّأدُّبُ بآداب رسولِ اللهِ ﷺ باطنًا وظاهرًا، وتحكيمُه باطنًا وظاهرًا، والوقوفُ معه حيث وقَفَ بك، والمَسيرُ معه حيث سار بك؛ بحيث تَجعَلُه بمنزلةِ شيخِك الَّذي قد ألْقَيْتَ إليه أمْرَكَ كلَّه، سِرَّه وظاهِرَه، واقتدَيْتَ به في جميعِ أحوالِه، ووقفْتَ مع ما يأمُرُك به، فلا تُخالِفُه البتَّةَ، فتَجعَلُ رسولَ اللهِ ﷺ لك شيخًا، وإمامًا وقُدوةً وحاكمًا، وتُعلِّقُ قلبَك بقلبِه الكريم، ورُوحانيَّتَك برُوحانيَّتِه، فتُجيبُه إذا دعاك، وتَقِفُ إذا استَوْقَفَك، وتَسيرُ إذا سار بك، وتَقِيلُ إذا قال، وتَنزِلُ إذا نزَل، وتَغضَبُ لغضبِه، وتَرضى لِرضاه، وإذا أَخبَرَك عن شيءٍ أنزلْتَه منزلةَ ما تراه بعينك، وإذا أَخبَرَك عنِ اللهِ بخبرٍ أنزلْتَه منزلةَ ما تسمَعُه مِنَ اللهِ بأُذُنِك.

وبالجملة: فتَجعَلُ الرَّسولَ شيخَك وأستاذَك، ومعلِّمَك ومُربِّيك ومؤدِّبَك، وتُسقِطُ الوسائطَ بيْنك وبيْنه إلَّا في التَّبليغ، كما تُسقِطُ الوسائطَ بيْنك وبيْنَ المُرسِلِ في العبوديَّة، ولا تُثبِتُ وساطةً إلَّا في وُصولِ أمْرِه ونَهيِه ورسالتِه إليك.

وهذانِ التَّجريدانِ: هُمَا حقيقةُ شَهادةِ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ الله، فاللهُ وحدَه المعبودُ المألُوه، الَّذي لا يَستحِقُّ العبادةَ سِواه، ورسولُه: المُطاعُ المُتَّبَعُ، المُهتدَى به، الَّذي لا يَستحِقُّ الطَّاعةَ سِواه، ومَن سِواهُ: فإنَّما يُطاعُ إذا أَمَر بطاعته، فيُطاعُ تَبَعًا لا أصلًا.

فالطريقُ مَسدودةٌ إلَّا على مَنِ اقتَفى آثارَ الرَّسولِ ﷺ، واقتَدى به في ظاهِرِه وباطِنِه.

فلا يَتعنَّى السَّالكُ على غيرِ هذا الطَّريقِ؛ فليس حظُّه مِن سُلوكِه إلَّا التَّعبَ، وأعمالُه ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

ولا يتعنَّى السَّالكُ على هذه الطَّريقِ؛ فإنَّه واصِلٌ ولو زحَف زحْفًا، فأتْباعُ الرَّسولِ ﷺ إذا قعدَتْ بهم أعمالُهم، قامَتْ بهم عزائمُهم وهِمَمُهم ومُتابعتُهم لنبيِّهم؛ فهُم كما قيل:

مَـنْ لي بمِثْـلِ سَـيْرِكَ المُدَلَّـــلِ
تَمشِـي رُوَيْـدًا وتَجِي في الأوَّلِ

[و] صفاءُ العِلمِ يَهْدي صاحبَه إلى الغاية المقصودةِ بالاجتِهادِ والتَّشمير؛ فإنَّ كثيرًا مِنَ السَّالِكينَ -بل أكثرَهم- سالِكٌ بجِدِّه واجتِهادِه، غيرُ مُنتبِهٍ إلى المقصود.

وأَضرِبُ لك في هذا مَثَلًا حسَنًا جدًّا، وهو: أنَّ قومًا قَدِموا مِن بلادٍ بعيدةٍ

عليهم أثَرُ النَّعيمِ والبَهجة، والملابس السَّنِيَّة، والهيئة العجيبة، فعَجِبَ النَّاسُ لهم، فسألُوهم عن حالهم؟ فقالوا: بلادُنا مِن أحسَنِ البلاد، وأجمَعِها لسائرِ أنواع النَّعيم، وأرخاها وأكثَرِها مِياهًا، وأصَحِّها هواءً، وأكثَرِها فاكهةً، وأعظَمِها اعتِدالًا، وأهلُها كذلك أحسَنُ النَّاسِ صُوَرًا وأبشارًا، ومع هذا فمَلِكُها لا يَنالُه الوصفُ جمالًا وكمالًا، وإحسانًا وعِلمًا وحِلمًا، وجُودًا ورحمةً للرَّعيَّة، وقُربًا منهم، وله الهَيبةُ والسَّطوةُ على سائرِ مُلوكِ الأطرافِ، فلا يَطمَعُ أحدٌ منهم في مُقاوَمتِه ومحاربتِه، فأهلُ بلدِه في أمانٍ مِن عدوِّهم، لا يَحُلُّ الخَوفُ بساحتِهم، ومع هذا: فله أوقاتٌ يَبرُزُ فيها إلى رَعِيَّتِه، فيُسهِّلُ لهم الدُّخولَ عليه، ويَرفَعُ الحِجابَ بيْنه وبيْنهم، فإذا وقعَتْ أبصارُهم عليه تلاشى عِندَهم كلُّ ما هُم فيه مِنَ النَّعيمِ واضْمَحَلَّ، حتى لا يَلتفِتون إلى شيءٍ منه، فإذا أَقبَلَ على واحدٍ منهم: أَقبَلَ عليه سائرُ أهلِ المملكةِ بالتَّعظيمِ والإجلال، ونحنُ رُسُلُه إلى أهلِ البلادِ، نَدْعوهم إلى حضرتِه، وهذه كُتُبُه إلى النَّاس، ومعنا مِنَ الشُّهودِ ما يُزيلُ سوءَ الظَّنِّ بنا، واتِّهامَنا بالكذبِ عليه.

فلمَّا سمِعَ النَّاسُ ذلك، وشاهَدوا أحوالَ الرُّسُلِ انقسَموا أقسامًا: فطائفةٌ قالت: لا نُفارِقُ أوطانَنا، ولا نَخرُجُ مِن ديارِنا، ولا نَتجشَّمُ مشقَّةَ السَّفرِ البعيدِ، ونَترُكُ ما أَلِفْناه مِن عَيشِنا ومَنازِلِنا، ومُفارقة آبائِنا وأبنائِنا وإخوانِنا لأمْرٍ وُعِدْنا به في غيرِ هذه البلاد، ونحنُ لا نَقدِرُ على تحصيلِ ما نحنُ فيه إلَّا بعدَ الجُهدِ والمَشقَّةِ، فكيف نَنتقِلُ عنه؟

ورأتْ هذه الفِرقةُ مُفارقتَها لأوطانِها وبلادِها: كمُفارقةِ أنفُسِها لأبدانِها؛ فإنَّ

النفْسَ - لشدَّةِ إِلْفِها للبدنِ - أَكرَهُ ما إليها مُفارقتُه، ولو فارقَتْه إلى النَّعيمِ المُقيمِ.

فهذه الطَّائفةُ غلَبَ عليها داعي الحِسِّ والطَّبعِ على داعي العقلِ.

والطَّائفةُ الثانية: لَمَّا رأتْ حالَ الرُّسُلِ، وما هُم فيه مِنَ البهجةِ وحُسنِ الحالِ، وعَلِموا صِدْقَهم تأهَّبُوا للمَسيرِ إلى بلادِ المَلِكِ، فأخذوا في السَّير، فعارَضَهم أهْلُهم وأصحابُهم وعشائِرُهم مِنَ القاعِدينَ، وعارضَتْهم مَساكِنُهم ودُورُهم وبساتينُهم، فجَعَلوا يُقدِّمون رِجْلًا ويؤَخِّرون أخرى، فإذا تذكَّروا طِيبَ بلادِ المَلِكِ وما فيها مِن سَلْوةِ العَيشِ تَقدَّموا نَحوَها، وإذا عارَضَهم ما أَلِفُوه واعتادُوه مِن ظِلالِ بلادِهم وعَيشِها، وصُحبةِ أهْلِهم وأصحابِهم: تأخَّروا عنِ المَسير، والتَفَتوا إليهم، فهُم دائمًا بيْنَ الدَّاعِيينَ والجاذِبِينَ، إلى أن يَغلِبَ أحدُهما ويَقْوى على الآخَر، فيَصيرون إليه.

والطائفةُ الثالثة: رَكِبَتْ ظهورَ عزائمِها، ورأتْ أنَّ بلادَ المَلِكَ أَوْلى بها؛ فوطَّنَتْ أنفُسَها على قصْدِها، ولم يُثْنِها لَومُ اللُّوَّامِ؛ لكن في سَيْرِها بُطْءٌ بحسَبِ ضَعفِ ما كُشِف لها مِن أحوالِ تلك البلادِ وحالِ المَلِكِ.

والطائفةُ الرَّابعة: جدَّتْ في المَسير وواصلَتْه، فسارتْ سَيرًا حثيثًا، فهُم كما قيل:

وركْبٍ سَرَوا واللَّيلُ مُرْخٍ سُدُولَهُ
على كُلِّ مُغْبَرِّ المَطالِعِ قَاتِمِ
حَدَوْا عَزَماتٍ ضاعَتِ الأرضُ بَيْنَها
فَصارَ سُراهُمْ في ظُهُورِ العَزائِمِ

تُرِيهِـمْ نُجُـومُ اللَّيْـلِ ما يَطلُبونَـهُ
على عاتِـقِ الشِّعْرَى وهَـامِ النَّعائِـمِ

فهؤلاء هِمَمُهم مصروفةٌ إلى المَسير، وقُواهُم موقوفةٌ عليه مِن غيرِ تَنبُّهٍ منهم إلى المقصودِ الأَعظَمِ، والغايةِ العُليا.

والطائفةُ الخامسة: أَخذوا في الجِدِّ في المَسير، وهِمَّتُهم مُتعلِّقةٌ بالغاية، فهُم في سَيرِهم ناظِرونَ إلى المقصود بالسَّير، فكأنَّهم يُشاهِدُونه مِن بُعدٍ، وهو يَدْعوهم إلى نفْسِه وإلى بلادِه، فهُم عامِلون على هذا الشَّاهِدِ الذي قام بقلوبِهم.

وعمَلُ كلِّ أحدٍ منهم على قدْرِ شاهِدِه، فمَن شاهَدَ المقصودَ بالعملِ في عِلمِه كان نُصحُه فيه، وإخلاصُه وتحسينُه، وبَذْلُ الجُهدِ فيه أَتَمَّ ممَّن لا يُشاهِدُه ولم يُلاحِظْه، ولم يَجِدْ مِن مَسِّ التَّعبِ والنَّصَبِ ما يَجِدُه الغائبُ، والوجودُ شاهدٌ بذلك، فمَن عمِلَ عمَلًا لَمِلكٍ بحَضرتِه، وهو يُشاهِدُه: ليس حالُه كحالة مَن عمِلَ في غَيبتِه وبُعدِه عنه، وهو غيرُ متيقِّنٍ بوصوله إليه.

ويُصحِّحُ له صفاءُ هذا العِلمِ هِمَّتَه، ومتى صحَّتِ الهِمَّةُ عَلَتْ وارتفعتْ، فإنَّ سُفولَهَا ودناءتَها مِن عِلَّتِها وسَقَمِها، وإلَّا فهي كالنَّارِ تَطلُبُ الصُّعودَ والارتفاعَ ما لم تُمنَعْ.

وأعلى الهِمَمِ: هِمَّةٌ اتَّصلَتْ بالحقِّ طلَبًا وقصْدًا، وأوصلَتِ الخَلْقَ إليه دَعوةً ونُصحًا، وهذه هِمَّةُ الرُّسلِ وأَتباعُهم، وصحَّتُها: بتَجريدِها مِنَ انقسامِ

طلبها، وانقسام مَطلوبِها، وانقسام طريقِها؛ بل توحَّدَ مَطلوبُها بالإخلاص، وطلبُها بالصِّدقِ، وطريقُها بالسُّلوكِ خلفَ الدَّليلِ الَّذي نصَبه اللهُ دليلًا، لا مَن نصَبَه هو دليلًا له.

ولله الهِمَمُ! ما أعجبَ شأنَها، وأشدَّ تفاوُتَها، فهِمَّةٌ متعلِّقةٌ بمَن فوقَ العرشِ، وهِمَّةٌ حائمةٌ حولَ الأنتانِ والحُشِّ، والعامَّةُ تقولُ: قِيمةُ كلِّ امرئٍ ما يُحسِنُه، والخاصَّةُ تقولُ: قيمةُ المرءِ ما يَطلُبُه، وخاصَّةُ الخاصَّةِ تقولُ: قيمتُه هِمَّتُه إلى مَطلوبِه.

وإذا أردْتَ أن تَعرِفَ مراتبَ الهِمَمِ، فانظُرْ إلى هِمَّةِ ربيعةَ بنِ كَعبٍ الأَسْلَميِّ ﵁ وقد قال له رسولُ اللهِ ﷺ: «سَلْني»، فقال: «أسأَلُكَ مُرافَقتَكَ في الجَنَّةِ»[1]. وكان غيرُه يَسألُه ما يَملأُ بطنَه، أو يُواري جِلدَه.

وانظُرْ إلى هِمَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ حين عُرِضَتْ عليه مَفاتيحُ كُنوزِ الأرضِ فأباها، ومعلومٌ أنَّه لو أخَذَها لأنفَقَها في طاعةِ ربِّه، فأبَتْ له تلك الهِمَّةُ العاليةُ: أن يتعلَّقَ منها بشيءٍ ممَّا سِوى اللهِ ومَحابِّه، وعُرِض عليه أن يَتصرَّفَ بالمُلْكِ، فأباه، واختارَ التَّصرُّفَ بالعُبوديَّةِ المَحْضَةِ، فلا إلهَ إلَّا اللهُ خالقُ هذه الهِمَّةِ، وخالقُ نفْسٍ تَحمِلُها، وخالقُ هِمَمٍ لا تَعْدُو هِمَمَ أَخَسِّ الحيواناتِ.

(١) أخرجه مسلم (٤٨٩).

منزلة السرور

قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

فإنَّ الله تعالى أمَرَ عبادَه بالفرَحِ بفضلِه ورحمتِه، وذلك تَبَعٌ للفرَحِ والسُّرورِ بصاحبِ الفضلِ والرَّحمةِ، فإنَّ مَن فَرِحَ بما يَصِلُ إليه مِن جَوادٍ كريمٍ مُحسِنٍ برٍّ كان فرَحُه بمَن أوصَلَ ذلك إليه أَوْلى وأَحْرى.

والفرَحُ لذَّةٌ تَقَعُ في القلبِ بإدراك المحبوبِ ونَيلِ المُشتهَى؛ فيتولَّدُ مِن إدراكِه حالةٌ تُسمَّى الفرحَ والسُّرورَ.

وذكَرَ سبحانه الأمرَ بالفرح بفضلِه وبرحمتِه عَقِيبَ قولِه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، ولا شيءَ أحَقُّ أن يُفرَحَ به مِن فضلٍ ورحمةٍ تتضمَّنُ الموعظةَ وشِفاءَ الصُّدورِ مِن أَدوائِها بالهدى والرَّحمة.

فذلك خيرٌ ممَّا يَجمَعُ النَّاسَ مِن أعراضِ الدُّنيا وزينتِها، أي: هذا هو الَّذي يَنبَغي أن يُفرَحَ به، ومَن فَرِحَ به فقد فرِحَ بأجَلِّ مَفروحٍ به، لا ما يَجمَعُ أهلُ الدُّنيا منها، فإنَّه ليس بمَوضعٍ للفرحِ؛ لأنَّه عُرضةٌ للآفاتِ، ووَشِيكُ الزَّوالِ، ووَخِيمُ العاقبةِ، وهو كطَيْفِ خَيالٍ زارَ الصَّبَّ في المَنامِ، ثم انقضَى المَنامُ، وولَّى الطَّيفُ، وأَعقَبَ مزارَه الهِجرانُ.

فالفرحُ باللهِ، ورسولِه، وبالإيمانِ، والسُّنَّةِ، والعِلمِ، والقُرآنِ: مِن أعلى

مَقاماتِ العارِفينَ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦].

فالفرحُ بالعِلمِ والإيمانِ والسُّنَّةِ دليلٌ على تعظيمِه عِندَ صاحبِه، ومَحبَّتِه له، وإيثارِه له على غيرِه؛ فإنَّ فرَحَ العبدِ بالشَّيءِ عِندَ حُصولِه: على قدْرِ محبَّتِه له، ورغبتِه فيه؛ فمَن ليس له رغبةٌ في الشَّيءِ لا يُفرِحُه حُصولُه له، ولا يَحزُنُه فواتُه؛ فالفرحُ تابعٌ للمحبَّةِ والرَّغبة.

والفرحُ صفةُ كمالٍ؛ ولهذا يوصَفُ الرَّبُّ تعالى بأعلى أنواعِه وأكمَلِها، كفرحِه بتوبةِ التَّائبِ أعظمَ مِن فرحِ الواجِدِ لراحلتِه الَّتي عليها طعامُه وشرابُه في الأرضِ المهلكةِ بعدَ فقْدِه لها، واليأسِ مِن حُصولِها.

والمقصود: أنَّ الفَرحَ أعلى أنواعِ نعيمِ القلبِ، ولذَّتِه وبَهجتِه، والفرحُ والسُّرورُ نعيمُه، والهَمُّ والحزنُ عذابُه، والفرحُ بالشَّيءِ فَوقَ الرِّضا به؛ فإنَّ الرِّضا طُمأنينةٌ وسُكونٌ واستِراحة، والفرحَ لذَّةٌ وبَهجةٌ وسرور.

السرور يخلص السالك من ثلاثة أحزان:

الحزن الأول: حزْنٌ أَوْرَثه خَوفُ انقطـاعٍ، وهذا حُزنُ المُتخلِّفينَ عن ركْبِ الجنَّة، ووفْدِ المحبَّة، فأهلُ الانقطاع هُمُ المُتخلِّفونَ عن صُحبةِ هذا الرَّكبِ، وهذا الوَفدِ.

وهُمُ الَّذين ﴿ كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦]، فثَبَّطَ عزائمَهم وهِمَمَهم أنْ تَسيرَ إليه وإلى جنَّتِه.

الحزن الثاني: هو حزنُ ظُلْمةِ الجهلِ.

والجهل نَوعان: جهلُ عِلمٍ ومعرفةٍ وجهلُ عمَلٍ وغَيٍّ، وكِلاهما له ظُلْمةٌ ووحشةٌ في القلب، فكما أنَّ العِلمَ يوجِبُ نورًا وأُنْسًا، فضِدُّه يوجِبُ ظُلْمةً ويوقِعُ وحْشةً، وقد سمَّى اللهُ تعالى العِلمَ الَّذي بَعَث به رسولَه نورًا وهُدًى وحياة، وضِدَّه: ظُلْمةً ومَوتًا وضلالًا.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ومَثَلُ هذا النُّورَ في قلب المؤْمنِ: ﴿ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [النور: ٣٥].

الحزن الثالث: حُزْنُ بَعثَتْهُ وحْشةُ التَّفرُّقِ، [و] التفرق هو: تفرُّقُ الهمِّ والقلبِ عن الله ﷻ؛ ولهذا التَّفرُّقِ حزنٌ مُمِضٌّ على فَواتِ جمعيَّةِ القلبِ على الله ولذَّتِها ونعيمِها، فلو فُرِضَتْ لذَّاتُ أهلِ الدُّنيا بأجمَعِها حاصِلةً لرَجُلٍ، لم يكنْ لها نِسبةٌ إلى لذَّةِ جمعيَّةِ القلبِ على الله، وفرَحِه به، وأُنْسِه بقُرْبه، وشَوقِه إلى لقائِه، وهذا أمْرٌ لا يُصدِّقُ به إلَّا مَن ذاقه، فإنَّما يُصدِّقُك مَن أَشرَقَ فيه ما

أشرَقَ فيك، ولله دَرُّ القائلِ:

أيا صاحِبِي أَمَا تَرَى نارَهُـمْ
فقــال: تُرِينِــيَ مــا لا أرَى
سَــقاكَ الغَـرامُ ولَمْ يَسْــقِني
فأبصَــرْتَ ما لَمْ أكُنْ مُبصِــرَا

فلو لم يكنْ في التَّفرُّق المَذكورِ إلَّا ألَمُ الوحشة، ونكَدُ التَّشتُّت، وغُبارُ الشَّعَث؛ لكَفَى به عقوبةً، فكيف وأقلُّ عقوبتِه: أن يُبتَلى بصُحبةِ المُنقطعينَ ومُعاشرتِهم وخِدمتِهم؟ فتَصير أوقاتُه الَّتي هي مادَّةُ حياتِه ولا قيمةَ لها، مُستغرقةً في قضاء حوائجِهم، ونَيلِ أغراضِهم، وهذه عقوبةُ قلبٍ ذاقَ حلاوةَ الإقبالِ على الله، والجمعيَّةِ عليه، والأُنسِ به، ثمَّ آثَرَ على ذلك سِواه، ورضِيَ بطريقةِ بَني جِنسِه، وما هُمْ عليه، ومَن له أَدْنى حياةٍ في قلبِه ونورٍ فإنَّه يَستغيثُ قلبُه مِن وحشةِ هذا التَّفرُّق، كما تَستَغيثُ الحاملُ عِندَ ولادتِها.

ففي القلبِ شَعَثٌ لا يَلمُّه إلَّا الإقبالُ على الله.

وفيه وَحشةٌ لا يُزيلُها إلَّا الأُنْسُ به في خَلْوتِه.

وفيه حزنٌ لا يُذهِبُه إلَّا السُّرورُ بمعرفته، وصِدقِ معاملتِه.

وفيه قَلَقٌ لا يُسكنُه إلَّا الاجتماعُ عليه، والفرارُ منه إليه.

وفيه نِيرانُ حسَراتٍ لا يُطفِئُها إلَّا الرِّضا بأمْرِه ونَهيِه وقَضائِه، ومعانقةُ الصبرِ على ذلك إلى وقتِ لقائِه.

وفيه طلَبٌ شديدٌ لا يَقِفُ دُونَ أن يكونَ هو وحدَه مطلوبَه.

وفيه فاقةٌ لا يَسُدُّها إلَّا محبَّتُه، والإنابةُ إليه، ودوامُ ذِكرِه، وصِدقُ الإخلاصِ له، ولو أُعطيَ الدُّنيا وما فيها لم تُسَدَّ تلك الفاقةُ منه أبدًا.

فالتَّفرُّقُ يوقِعُ وَحشةَ الحجاب، وألُمه أشدُّ مِن ألَمِ العذاب، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥-١٦]، فاجتَمَع عليهم عذابُ الحجاب، وعذابُ الجحيم.

منزلـة السـر

[قال الهروي رحمه الله]: (أَصْحابُ السِّرِّ: هُمُ الأَخفِياءُ الَّذينَ وَرَدَ فيهِمُ الخَبَرُ) قد يُريدُ به: حديثَ سعدِ بن أبي وقَّاصٍ، حيثُ قال له ابنُه: أنتَ هاهنا والنَّاسُ يَتنازَعون في الإمارة؟ فقال: إنِّي سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله يُحِبُّ العَبدَ التَّقِيَ الغَنيَّ الخَفِيَّ**»[1].

وقد يُريدُ به: قولَه ﷺ: «**رُبَّ أشْعَثَ أغبَرَ مَدفُوعٍ بالأبوابِ، لا يُؤْبَهُ لهُ، لوْ أقسَمَ على الله لَأَبَرَّهُ**»[2].

[و] ذَكَر [الهروي] لهم ثلاثَ صفاتٍ ثُبوتيَّة، وثلاثًا سلبيَّة:

الأُولى: (عُلُوُّ هِمَمِهِم)؛ وعُلُوُّ الهمَّةِ: أن لا تَقِفَ دونَ الله، ولا تَتعوَّضَ عنه بشيء، ولا ترضى بغَيرِه بدلًا منه، ولا تَبيعَ حظَّها مِنَ الله وقُرْبِه والأُنْسِ به، والفرحِ والسُّرورِ والابتِهاجِ به، بشيءٍ مِنَ الحُظوظِ الخَسيسةِ الفانية، فالهمَّةُ العاليةُ على الهِمَم كالطَّائرِ العالي على الطُّيور؛ لا يرضى بمَساقِطِهم، ولا تَصِلُ إليه الآفاتُ الَّتي تَصِلُ إليهم؛ فإنَّ الهمَّةَ كلَّما عَلَتْ بعُدَتْ عن وُصولِ الآفاتِ إليها، وكلَّما نزلَتْ قصَدَتْها الآفاتُ مِن كلِّ مكان؛ فإنَّ الآفاتِ قواطعُ وجَواذِبُ، وهي لا تَعْلو إلى المكان العالي فتَجتذِبُ منه، وإنَّما تَجتذِبُ مِنَ المكان السافل، فعُلُوُّ همَّةِ المَرءِ عُنوانُ فلاحِه، وسُفُولُ همَّتِه عُنوانُ حِرمانِه.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٢) بنحوه.

العلامة الثانية: (صَفَاءُ القَصدِ) وهو خلاصُه مِنَ الشَّوائبِ الَّتي تَعوقُه عن مقصوده.

وصفاءُ القصدِ يُرادُ به: خُلوصُ القصدِ مِن كلِّ إرادةٍ تُزاحِمُ مُرادَ الرَّبِّ تعالى، بل يَصيرُ القصدُ مجرَّدًا لُمرادِه الدِّينيِّ الأمْريِّ.

العلامة الثالثة: (صِحَّةُ السُّلُوكِ)، وهو سلامتُه مِنَ الآفات والعَوائقِ والقواطع.

والعبارةُ الجامعةُ لها: أن يكونَ واحدًا لواحد، في طريقٍ واحد، فلا يَنقسِمُ طلَبُه ولا مَطلوبُه، ولا يَتلوَّنُ طريقُه.

وأمّا الثَّلاثةُ السَّلْبيَّةُ الَّتي ذكرَها:

فأوَّلُها: (لمْ يُوقَفْ لهُم على رَسْمٍ)، [أي]: أنَّهم لعُلُوِّ هِمَمِهم سبَقوا النَّاسَ في السَّير، فلم يَقِفوا معهم، فهُمُ المُفَرِّدونَ السَّابِقون، فلِسَبْقِهم لم يوقَفْ لهم على أثَرٍ في الطريق، ولم يَعلَمِ المتأخِّرُ عنهم أين سَلَكوا؟ والمُشمِّرُ بَعدَهم: قد يرى آثارَ نيرانِهم على بُعدٍ عظيم، كما يُرى الكوكبُ، ويَستخبِرُ مَن رآهم: أين رآهُم؟ فحالُه كما قيل:

أُسائِلُ عنكُم كُلَّ غادٍ ورائِحٍ
وأُومِي إلى أوْطانِكُمْ وأُسَلِّمُ

العلامة الثانية: (وَلَم يُنسَبُوا إلَى اسْمٍ)، أي: لم يشتهروا باسمٍ يُعرَفون به عند الناسِ من الأسماء التي صارت أعلامًا لأهل الطريق، وأيضًا فإنَّهم لم يَتقيَّدوا

بعملٍ واحد يجري عليهم اسمُه، فيُعرَفون به دُونَ غيرِه مِنَ الأعمال؛ فإنَّ هذا آفةٌ في العُبوديَّة، وهي عُبوديَّةٌ مُقيَّدةٌ، وأمَّا العُبوديَّةُ المُطْلَقة: فلا يُعرَفُ صاحبُها باسم معيَّنٍ مِن معاني أسمائها؛ فإنَّه مُجيبٌ لداعيها على اختلافِ أنواعِها، فله مع كلِّ أهلِ عبوديَّةٍ نصيبٌ يَضرِبُ معهم بسَهم، فلا يَتقيَّدُ برسمٍ ولا إشارة، ولا اسمٍ ولا زِيٍّ، ولا طريقٍ وضْعيٍّ اصْطِلاحيٍّ، بل إنْ سُئِل عن شيخه؟ قال: الرَّسولُ، وعن طريقِه؟ قال: الاتِّباعُ، وعن خِرقتِه؟ قال: لِباسُ التَّقوى، وعن مذهبِه؟ قال: تحكيمُ السُّنَّةِ، وعن مقصودِه ومَطلبِه؟ قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢٥، والكهف: ٨٢]، وعن رِباطِه قال: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧]. وعن نسَبِه؟ قال:

أبي الإسْلامُ لا أبَ لي سِـوَاهُ
إذا افتَخَرُوا بقَيْـسٍ أو تَمِيـمِ

والعلامة الثالثة: (ولمْ يُشَرْ إليهم بالأصابعِ) يُريدُ: أنَّهم لخَفائِهم عنِ النَّاسِ لم يُعرَفوا بينهم، حتى يُشيروا إليهم بالأصابع.

منزلة الغربة

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود: ١١٦].

وهُمُ الذين أشار إليهم النبي ﷺ في قوله: «**بَدَأَ الإسلامُ غريبًا، وسيعُودُ غَريبًا كما بَدَأ، فطُوبَى لِلغُرَباءِ**»، قيل: ومَنِ الغُرَباءُ يا رسولَ الله؟ قال: «**الَّذِينَ يَصلُحُونَ إذا فَسَدَ النَّاسُ**»[(١)].

وفي حديث عبد الله بن عَمرٍو رضي الله عنهما قال: قال النبيُّ ﷺ ذاتَ يوم ونحن عنده: «**طُوبَى لِلغُرَباءِ**»، قيلَ: ومَنِ الغُرَباءُ يا رسولَ الله؟ قال: «**ناسٌ صالِحُونَ قَليلٌ في ناسٍ كَثيرٍ، مَن يَعصِيهِم أكثَرُ مِمَّن يُطِيعُهُم**»[(٢)].

فهؤلاء هُمُ الغرباءُ المَمْدوحونَ المَغبوطون، ولِقِلَّتِهم في النَّاسِ جدًّا؛ سُمُّوا غُرباءَ، فإنَّ أكثَرَ النَّاسِ على غيرِ هذه الصِّفاتِ، فأهلُ الإسلامِ في النَّاسِ غُرباءُ، والمؤْمنونَ في أهلِ الإسلامِ غُرباءُ، وأهلُ العِلمِ في المؤْمنينَ غُرباءُ.

وأهلُ السُّنَّةِ -الَّذين يُميِّزونها مِنَ الأهواء والبِدَعِ- غرباءُ، والدَّاعون إليها الصَّابرونُ على أذى المخالِفينَ لهم أشدُّ هؤلاء غربةً، ولكن هؤلاء هُم أهلُ الله حقًّا، فلا غربةَ عليهم، وإنما غربتُهم بين الأكثرينَ، الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]،

(١) أخرج أصله مسلم (١٤٥).

(٢) أخرجه أحمد (٦٦٥٠)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦١٩).

فأولئك هم الغرباءُ مِن الله ورسوله ودينِه، وغربتُهم هي الغربة الموحِشة، وإن كانوا هم المعروفين المشارَ إليهم، كما قيل:

فليــسَ غَرِيبًا مَن تنــاءَتْ دِيـارُهُ
ولكـــنَّ مَن تَنْأَيْـنَ عنــهُ غَرِيــبُ

ولَمَّا خرَج موسى هاربًا مِن قَومِ فرعونَ انتهى إلى مَدْينَ على الحالِ الَّتي ذكَرَ اللهُ، وهو وحيدٌ غريبٌ خائفٌ جائع، قال: يا ربِّ، وحيدٌ مريضٌ غريب، فقيل له: يا موسى، الوحيد: مَن ليس له مِثْلي أنيس، والمريض: مَن ليس له مِثلي طبيب، والغريب: مَن ليس بيْني وبيْنه معاملةٌ.

فالغربة ثلاثةُ أنواع:

غربة أهلِ الله وأهلِ سُنَّةِ رسوله ﷺ بين هذا الخلْق، وهي الغربة التي مدح رسولُ الله ﷺ أهلَها، وأخبر عن الدِّين الذي جاء به أنَّه بدأ غريبًا وأنه سيعود غريبًا كما بدأ، وأنَّ أهله يصيرون غرباءَ.

وهذه الغُربة قد تكون في مكانٍ دون مكان، ووقتٍ دون وقت، وبين قوم دون قوم غيرِهم، ولكن أهل هذه الغربةِ هم أهلُ الله حقًّا، فإنَّهم لم يَأْووا إلى غيرِ الله تعالى، ولم يَنتسِبوا إلى غير رسولِه ﷺ، ولم يَدْعوا إلى غير ما جاء به، وهُمُ الذين فارَقوا الناسَ أحوجَ ما كانوا إليهم، فإذا انطلق الناسُ يوم القيامة مع آلهتهم بَقوا في مكانهم، فيقال لهم: ألا تَنطلِقون حيث انطلق الناسُ؟ فيقولون: فارَقْنا الناسَ ونحن أحوجُ إليهم منَّا إليهم اليومَ، وإنا ننتظر ربَّنا الذي كنَّا نَعبُده[1].

(١) أخرجه البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣).

فهذه الغربة لا وحشةَ على صاحبها، بل هو آنَسُ ما يكون إذا استوحش الناسُ، وأشدُّ ما يكون وحشةً إذا استأنسوا، فوليُّه اللهُ ورسولُه والذين آمنوا، وإن عاداه أكثرُ الناس وجَفَوه.

ومن هؤلاء الغرباء: مَن ذَكَرهم أنس ﷺ في حديثه عن النبي ﷺ: «**رُبَّ أَشْعَثَ أغبرَ، ذِي طِمْرَينِ، لا يُؤْبَهُ له، لو أقسَمَ على الله لأبَرَّهُ**»[1].

ومن صفات هؤلاء الغرباءِ الذين غبطهم النبيُّ ﷺ: التمسُّك بالسُّنَّة، إذا رغِبَ عنها الناسُ، وتركُ ما أحدثوه؛ وإن كان هو المعروفَ عندهم، وتجريدُ التوحيد؛ وإن أنكر ذلك أكثرُ الناس، وتركُ الانتساب إلى أحدٍ غيرِ الله ورسولِه، لا شيخ، ولا طريقة، ولا مذهب، ولا طائفة، بل هؤلاء الغرباء متسبون إلى الله بالعبودية له وحدَه، وإلى رسوله بالاتِّباع لِما جاء به وحدَه، وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقًّا، وأكثرُ الناس بل كلُّهم لائمٌ لهم.

فلِغُربتِهم بين هذا الخلْق يَعُدُّونهم أهلَ شذوذٍ وبدعة، ومفارقةٍ للسَّواد الأعظَمِ!

وكان المستجيبون لدعوةِ الإسلام نُزَّاعًا من القبائل، بل آحادًا منهم تغرَّبوا عن قبائلهم وعشائرهم، ودخلوا في الإسلام، فكانوا هم الغرباءَ حقًّا، حتى ظهر الإسلامُ وانتشرتْ دعوتُه ودخل الناسُ فيه أفواجًا، فزالت تلك الغربةُ عنهم، ثم أخذ في الاغتراب والتَّرحُّل، حتى عاد غريبًا كما بدأ.

بل الإسلام الحقُّ الذي كان عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابُه هو اليومَ أشدُّ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٢)، وأصله عند البخاري (٢٧٠٣)، ومسلم (١٦٧٥).

غربةً منه في أوَّلِ ظهوره، وإن كانت أعلامُه ورسومُه الظاهرةُ مشهورةً معروفة، فالإسلام الحقيقيُّ غريب جدًّا، وأهلُه غرباءُ بين الناس.

وكيف لا تكون فِرقةٌ واحدةٌ قليلةٌ جدًّا غريبةً بين اثنتين وسبعين فرقةً، ذاتَ أتباع ورئاساتٍ ومناصبَ وولايات، ولا يقوم لها سوقٌ إلا بمخالفة ما جاء به الرسولُ ﷺ؟ فإنَّ نفْسَ ما جاء به يُضادُّ أهواءَهم ولذَّاتِهم، وما هُم عليه من الشُّبهات والبِدَع التي هي منتهى فضيلتهم وعلمِهم، والشهواتِ التي هي غايةُ مقاصِدِهم وإراداتِهم.

فكيف لا يكون المؤمنُ السائرُ إلى الله على طريق المتابعة غريبًا بين هؤلاء الذين قد اتَّبعوا أهواءهم، وأطاعوا شُحَّهم، وأُعجِب كلٌّ منهم برأيه؟

ولهذا جُعِل له في هذا الوقت إذا تمسَّك بدينه أجرُ خمسينَ من الصحابة، وهذا الأجر العظيم إنما هو لغربته بين الناس، والتمسُّكِ بالسُّنَّة بين ظُلُماتِ أهوائهم وآرائهم.

فإذا أراد المؤمنُ الذي قد رزقه الله بصيرةً في دينه، وفِقْهًا في سُنَّةِ رسوله، وفَهمًا في كتابه، وأراه ما الناسُ فيه من الأهواء والبِدَع والضلالات، وتنكُّبهم عن الصراط المستقيم الذي كان عليه رسولُ الله ﷺ وأصحابُه، فإذا أراد أن يَسلُكَ هذا الصراطَ فليوطِّنْ نفْسَه على قدْح الجهَّالِ وأهلِ البِدَع فيه، وطعْنِهم عليه، وإزرائهم به، وتنفيرِ الناس عنه، وتحذيرهم منه، كما كان سلفُهم من الكفار يفعلون مع مَتبوعِه وإمامِه ﷺ، فأمَّا إنْ دعاهم إلى ذلك، وقدَح فيما هُم عليه: فهناك تقوم قيامتُهم، ويَبغون له الغَوائلَ، ويَنصِبون له الحبائلَ، ويَجلِبون عليه بخَيلِ كبيرِهم ورجْلِهِ.

فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريبٌ في تمسُّكِه بالسُّنَّةِ لتمسُّكِهم بالبِدَع، غريبٌ في اعتقاده لفساد عقائدِهم، غريب في صلاته لسُوء صلاتِهم، غريب في طريقه لفساد طُرُقِهم، غريب في نِسبته لمخالفةِ نِسَبِهم، غريبٌ في معاشرته لهم؛ لأنَّه يُعاشِرُهم على ما لا تهوى أنفسُهم.

وبالجملة: فهو غريب في أمور دنياه وآخرته لا يجِد مساعدًا ولا معينًا فهو عالِمٌ بين جهَّال، صاحبُ سُنَّة بين أهل بِدَع، داعٍ إلى الله ورسولِه بين دعاةٍ إلى الأهواء والبدع، آمرٌ بالمعروف ناهٍ عن المنكر بين قومٍ المعروفُ لديهم منكَرٌ والمنكَرُ معروفٌ.

النوع الثاني من الغربة: غربةٌ مذمومة وهي غربة أهلِ الباطل وأهل الفجور بين أهل الحقِّ، فهي غربة بين حزب الله المفلحينَ وإنْ كثُر أهلُها فهم غرباءُ على كثرة أصحابهم وأشياعهم، أهلُ وحشةٍ على كثرة مؤْنِسهم، يُعرَفون في أهل الأرض، ويَخفون على أهل السماء.

النوع الثالث: غربة مشتركة لا تُحمد ولا تُذَم وهي الغربة عن الوطن؛ فإن الناس كلهم في هذه الدار غرباء، فإنها ليست لهم بدار مقام، ولا هي الدار التي خلقوا لها، وقد قال النبي ﷺ لعبد الله بن عُمرَ رضي الله عنهما: «كُنْ في الدُّنيا كأنَّكَ غَريبٌ، أو عابرُ سَبيلٍ»[1]، وهكذا هو نفس الأمر؛ لأنَّه أمر أن يطالع ذلك بقلبه ويعرفه حقَّ المعرفة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

ولي من أبياتٍ في هذا المعنى:

وحَــيَّ على جنَّاتِ عَـدْنٍ فإنَّــها
مَنــازِلُكَ الأُولَى وفيـها المُخَيَّــمُ

ولكِنَّنـا سَـبْيُ العَدُوِّ فهَـلْ تَــرَى
نَعُــودُ إلى أوْطانِنــا ونُسَــلَّمُ

وأيُّ اغــتِرابٍ فَـوقَ غُربَتِنا الَّتــي
لهــا أضْـحَتِ الأعْـداءُ فينا تحَكَّـمُ

وقــدْ زَعَمُوا أنَّ الغَريـبَ إذا نَــأى
وشَــطَّتْ بـه أوْطانُهُ ليـس يَنْعَـمُ

فمِـنْ أجْلِ ذا لا يَنْعَـمُ العَبدُ سـاعةً
مِـنَ العُمْــرِ إلَّا بَعْدَهــا يَتــألَّمُ

وكيف لا يكون العبد في هذه الدارِ غريبًا، وهو على جَناح سفر، لا يحلُّ عن راحلته إلا بين أهل القبور؟ فهو مسافر في صورة قاعد، وقد قيل:

ومــا هـذِهِ الأيَّــامُ إلَّا مَراحِــلٌ
يَحُــثُّ بــها داعٍ إلى المَوْتِ قاصِـدُ

وأعْجَـبُ مِن ذا لـوْ تَأمَّلْـتَ أنَّــها
مَنـازِلُ تُطْـوَى والمُسافِرُ قاعِــدُ

منزلة المعاينة

الرب تبارك وتعالى منزَّهٌ مقدَّسٌ عن اطلاع البشر على ذاته، أو أنوار ذاته، أو صفاته، أو أنوارِ صفاته، وإنما هي الشواهد التي تقوم بقلب العبد، كما يقوم بقلبه شاهدٌ من الآخرة والجنة والنار، وما أعدَّ الله لأهلِهما.

وهذا هو الذي وجده عبد الله بن حرام الأنصاري يوم أُحُدٍ، لَمَّا قال: «واهًا لِرِيحِ الجَنَّةِ! إنِّي أجِدُ والله رِيحَها دُونَ أُحُدٍ»، ومِن هذا قولُه ﷺ: «**إذا مَرَرْتُم بِرِياضِ الجَنَّةِ فَارْتَعُوا**»، قالوا: وما رِياضُ الجَنَّةِ؟ قال: «**حِلَقُ الذِّكْرِ**»[1]، ومنه قولُه: «**ما بَيْنَ بَيْتِي ومِنبَرِي رَوْضَةٌ مِن رِياضِ الجَنَّةِ**»[2]، فهو روضة لأهل العلم والإيمان؛ لِما يقوم بقلوبهم من شواهد الجنة، حتى كأنها لهم رأي عين، وإذا قعد المنافق هناك لم يكن ذلك المكان في حقه روضة من رياض الجنة، فالعمل: إنَّما هو على الشواهد، وعلى حسَب شاهِد العبد يكون عملُه.

ونحن نُشير -بعون الله وتوفيقه- إلى الشواهد، إشارةً يُعلَم بها حقيقةُ الأمر.

شواهد السائر إلى الله:

فأوَّلُ شواهِدِ السائرِ إلى الله والدارِ الآخرة: أن يقومَ به شاهِدٌ من الدنيا وحقارتِها، وقلَّةِ وفائها، وكثرة جفائها، وخِسَّةِ شركائِها، وسرعةِ انقضائها،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥١٠)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٥٦٢)، والصواب أن الصحابي هو أنس بن النضر رضي الله عنه ولعله سبق قلم من المؤلف -رحمه الله-.

(٢) أخرجه البخاري (١٨٨٨)، ومسلم (١٣٩١).

ويرى أهلها وعشَّاقَها صَرْعى حَولَها، قد بدَّعت بهم، وعذبتهم بأنواع العذاب، وأذاقتهم أمرَّ الشراب، أضحكتهم قليلًا، وأبكتهم طويلًا، سقتهم كؤوس سُمِّها، بعد كؤوس خمرها، فسكروا بحبِّها، وماتوا بهجرها.

فإذا قام بالعبد هذا الشاهد منها ترحَّل قلبه عنها، وسافر في طلب الدار الآخرة وحينئذ يقوم بقلبه شاهد من الآخرة ودوامها، وأنها هي الحيوان حقًّا، فأهلها لا يرتحلون منها، ولا يظعنون عنها، بل هي دارُ القرار، ومحطُّ الرحال، ومنتهى السَّير، وأن الدنيا بالنسبة إليها كما قال النبي ﷺ: «**ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا كما يَجعَلُ أحَدُكُم إصبعَه في اليَمِّ، فَلْيَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ؟**»[1].

ثم يقوم بقلبه شاهد من النار، وتوقُّدِها واضطرامها، وبُعْد قعرها، وشدَّة حرِّها، وعظيم عذاب أهلها، فيشاهدهم وقد سيقوا إليها سودَ الوجوه، زُرْقَ العيون، والسلاسل والأغلال في أعناقهم، فلما انتهوا إليها فُتِّحت في وجوههم أبوابُها، فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع، وقد تقطعت قلوبهم حسرة وأسفًا ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

فأراهم شاهد الإيمان، وهُم إليها يدفعون، وأتى النِّداءُ مِن قِبَلِ ربِّ العالَمين أن: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] ثم قيل لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٤ - ١٦]، فأراهم شاهد الإيمان،

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨).

وهم في الحميم على وجوههم يسحبون، وفي النار كالحطب يسجرون ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، فبئس اللّحافُ وبئسَ الفِراشُ، وإنْ يَستغيثوا من شدة العطش ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩] فإذا شرِبوه قَطَّع أمعاءَهم في أجوافهم، وصهَرَ ما في بطونهم، شرابُهُم الحميم، وطعامُهم الزَّقُّومُ، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦ - ٣٧].

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهدُ: انخلع من الذنوب والمعاصي، واتِّباع الهوى، ولبس ثيابَ الخوف والحذر، وأخْصَب قلبَه من مطر أجفانه، وهان عليه كلُّ مصيبة تصيبه في غير دينه وقلبه.

وعلى حسَب قوَّةِ هذا الشاهد يكون بعده من المعاصي والمخالفات، فيُذيب هذا الشاهدُ من قلبه الفضلات، والموادَّ المهلِكةَ، ويُنضجها ثم يُخرِجها، فيجدُ القلبُ لذَّةَ العافية وسرورَها.

فيقوم به بعد ذلك: شاهد من الجنة، وما أعدَّ الله لأهلها فيها، **ممَّا لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلْبِ بَشَرٍ**، فضلًا عمَّا وصفه الله لعباده على لسان رسوله من النعيم المفصَّل، الكفيل بأعلى أنواع اللَّذَّة، من المطاعم والمشارب، والملابس والصور، والبهجة والسرور، فيقوم بقلبه شاهد دار قد جعل الله النعيم المقيم الدائم بحذافيره فيها، تُرْبَتُها المِسْكُ، وحَصْباؤُها الدُّرُّ،

وبِناؤُها لَبِنُ الذَّهبِ والفِضَّةِ، وقصب اللؤلؤ، وشرابها أحلى من العسل، وأطيب رائحة من المسك، وأبرد من الكافور، وألذ من الزنجبيل، ونساؤها لو بَرَزَ وجْهُ إحداهُنَّ في هذه الدنيا لغلَب على ضوء الشمس[1]، ولباسهم الحرير من السُّندس والإستبرق، وخَدَمُهم وِلْدانٌ كاللؤلؤ المنثور، وفاكهتهم دائمة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة، وغذاؤهم لحم طير مما يشتهون، وشرابهم عليه خمرة لا فيها غَوْلٌ ولا هم عنها يُنزَفون، وخضرتهم فاكهة مما يتخيرون، وشاهدهم حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون، فهم على الأرائك متكئون، وفي تلك الرياض يُحبَرون، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

فإذا انضم إلى هذا الشاهد: شاهد يوم المزيد، والنظر إلى وجه الرب ﷻ، وسماع كلامه منه بلا واسطة.

[و] إذا انضمَّ هذا الشاهدُ إلى الشواهد التي قبله فهناك يسير القلب إلى ربه أسرع من سير الرياح في مهابِّها، فلا يلتفت في طريقه يمينًا ولا شمالًا.

هذا، وفوق ذلك شاهِدٌ آخَرُ تَضمحلُّ فيه هذه الشواهد، ويغيب به العبدُ عنها كلها، وهو شاهدُ جلال الربِّ تعالى، وجماله وكماله، وعزِّه وسلطانه، وقيوميِّته وعلوِّه فوق عرشه، وتكلُّمِه بكتبه وكلمات تكوينه، وخطابه لملائكته وأنبيائه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٦).

فإذا شاهد بقلبه قيُّومًا قاهرًا فوق عباده، مستويًا على عرشه، منفردًا بتدبير مملكته، آمرًا ناهيًا، مرسِلًا رسله، ومنزِلًا كتبه، يرضى ويغضب، ويُثيب ويُعاقب، ويعطي ويَمنع، ويعزُّ ويذلُّ، ويحب ويبغض، ويرحم إذا استُرحم، ويَغفِر إذا استُغفر، ويعطي إذا سُئل، ويجيب إذا دُعي، ويقيل إذا استقيل، أكبر مِن كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأعَزُّ من كل شيء، وأقْدَرُ من كل شيء، وأعلم من كل شيء، وأحكَمُ من كل شيء، فلو كانت قوى الخلائق كلِّهم على واحد منهم، ثم كانوا كلُّهم على تلك القوة، ثم نُسِبَتْ تلك القوى إلى قوته تعالى لكانت أقل من قوة البَعوضة بالنسبة إلى قوَّة الأسد، ولو قُدِّر جمالُ الخَلْق كلِّهم على واحد منهم، ثم كانوا كلُّهم بذلك الجمال، ثم نُسِبَ إلى جمال الربِّ تعالى لكان دُون سراج ضعيف بالنسبة إلى عين الشمس، ولو كان عِلمُ الأوَّلينَ والآخِرينَ على رجُلٍ منهم، ثم كان كلُّ الخَلقِ على تلك الصِّفة، ثم نُسِب إلى عِلم الرَّبِّ تعالى؛ لكان ذلك كنقرة عصفور من البحر.

وهكذا سائر صفاته، كسمعه وبصرِه، وسائر نُعوتِ كماله، فإنه يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات، على تفنُّنِ الحاجات، فلا يَشغَلُه سمْعٌ عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرَّم بإلحاح المُلحّينَ، سواءٌ عنده مَن أسَرَّ القولَ ومَن جَهَر به، فالسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة، يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظَّلماء، ويرى نِياطَ عروقها ومجاري القوت في أعضائها، يضع السموات على إصبع من أصابع يده، والأرضَ على إصبع، والجبالَ على إصبع، والشجَر على إصبع، والماءَ على

إصبع، ويقبض سماواته بإحدى يديه، والأرضين باليد الأخرى، فالسموات السبع في كفه كخردلة في كف العبد، ولو أن الخلق كلهم من أولهم إلى آخرهم قاموا صفًّا واحدًا ما أحاطوا بالله ﷻ، لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه.

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد اضمحلَّت فيه الشواهد المتقدمة من غير أن تعدم، بل تصير الغلبة والقهر لهذا الشاهد، وتندرج فيه الشواهدُ كلها، ومَنْ هذا شاهده فله سلوك وسير خاص، ليس لغيره ممن هو عن هذا في غفلة، أو معرفة مجملة.

فصاحب هذا الشاهد سائر إلى الله في يقظته ومنامه، وحركته وسكونه وفطره وصيامه، له شأن وللناس شأن، هو في واد وهم في واد.

خَلِيـــلَيَّ لا والله مــا أنــا مِنكُــما
إذا عَلَـــمٌ مِـــن آلِ لَيـــلَى بَدَا لِيَـــا

والمقصود: أن العِيانَ والكشفَ والمشاهدةَ في هذه الدار إنما تقع على الشواهد والأمثلةِ العِلمية، وهو ما يقوم بقلوب عابديه ومحبِّيه، والمنيبين إليه من هذا الشاهد، وهو الباعث لهم على العبادة والمحبة، والخشيةِ والإنابة، وتفاوُتُهم فيه لا ينحصر طرَفاه، فكلٌّ منهم له مقامٌ معلوم لا يتعدَّاه، وأعظم الناس حظًّا في ذلك معترف بأنه لا يُحصي ثناءً عليه سبحانه، وأنه فوق ما يثني عليه المثنون، وفوق ما يحمده الحامدون.

وطهارة القلب، ونزاهته من الأوصاف المذمومة، والإرادات السفلية، وخلوُّه وتفريغه من التعلق بغير الله سبحانه، هو كرسيُّ هذا الشاهد، الذي يجلس عليه، ومقعده الذي يتمكن فيه، فحرام على قلب متلوثٍ بالخبائث والأخلاق والصفات الذميمة، متعلقٍ بالمرادات السافلة أن يقوم به هذا الشاهد، أو يكونَ من أهله.

[و] إذا طلعت شمس التوحيد، وباشرت حرارتُها الأرواحَ، ونورُها البصائرَ، تجلت بها ظلمات النفس والطَّبْع، وتحركت بها الأرواح في طلب من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فسافر القلب في بيداء الأمر، ونزل منازل العبوديَّة، منزلًا منزلًا، فهو ينتقل من عبادة إلى عبادة، مقيم على معبود واحد، فلا تزال شواهدُ الصفات قائمةً بقلبه، توقظُه إذا رقد، وتذكِّرُه إذا غفَل، وتحدُو به إذا سار، وتقيمُه إذا قعد، إن قام بقلبه شاهدٌ من الربوبية والقيُّوميَّة رأى أن الأمر كلَّه لله، ليس لأحد معه من الأمر شيء ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٢ - ٣]، إن قام بقلبه شاهد من الإلهية؛ رأى في ذلك الشاهد الأمر والنهي، والنُّبوَّات، والكتب والشرائع، والمحبة والرِّضا، والكراهة والبغض، والثواب والعقاب، وشاهد الأمرَ نازلًا ممن هو مستوٍ على عرشه، وأعمالُ العباد صاعدة إليه، ومعروضة عليه، يجزي بالإحسان منها في هذه الدار، وفي العُقْبى نضرة وسرورًا، ويَقدِم إلى ما لم يكن على أمره وشرعه منها فيجعله هباء منثورًا.

وإن قام بقلبه شاهد من الرحمة، رأى الوجودَ كلَّه قائمًا بهذه الصفة قد وسع من هي صفته كلَّ شيء رحمة وعلمًا، وانتهت رحمتُه إلى حيث انتهى علمُه، فاستوى على عرشه برحمته؛ لِتسَعَ كلَّ شيء، كما وسع عرشُه كل شيء.

وإن قام بقلبه شاهدُ العِزَّةِ والكبرياء، والعظمةِ والجبروت: فله شأنٌ آخَرُ.

وهكذا جميع شواهدِ الصفات، وما ذكرْناه أدنى تنبيهٍ عليها، فالكشف والعِيانُ والمشاهدةُ لا تتجاوز الشواهد.

منزلة الحياة

قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

المراد بها: مَن كان ميتَ القلب بعدم رُوح العلم والهدى والإيمان، فأحياه الربُّ تعالى برُوح أخرى غيرِ الرُّوح التي أحيا بها بدنَه، وهي رُوح معرفته وتوحيدِه، ومحبته وعبادته وحدَه لا شريك له.

وسمَّى وحيه رُوحًا؛ لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته؛ فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقد فُسِّرت الحياة الطيبة بالقناعة والرضا، والرزقِ الحسن وغير ذلك، والصواب: أنها حياة القلب ونعيمُه، وبهجته وسرورُه بالإيمان ومعرفة الله، ومحبَّتِه، والإنابة إليه، والتوكُّلِ عليه؛ فإنه لا حياةَ أطيبُ من حياة صاحبها، ولا نعيم فوقَ نعيمِه، إلا نعيمَ الجنة، كما كان بعض العارفين يقول: «إنَّه لتمرُّ بي أوقاتٌ أقول فيها: إن كان أهلُ الجنة في مِثلِ هذا إنهم لفي عَيشٍ طيِّب»، وقال غيرُه: «إنه ليَمُرُّ بالقلب أوقاتٌ يرقص فيها طَربًا».

وإذا كانت حياة القلب حياة طيِّبةً تبعته حياة الجوارح؛ فإنه مَلِكُها، ولهذا

جعل الله المعيشة الضنك لِمَن أعرض عن ذِكْرِه، وهي عكس الحياة الطيبة.

وهذه الحياة الطيِّبة تكون في الدُّور الثلاث؛ أعني: دارَ الدنيا، ودارَ البَرزخ، ودار القرار، والمعيشة الضنك أيضًا تكون في الدُّور الثلاث، فالأبرار في النعيم هاهنا وهناك، والفُجّار في الجحيم هاهنا وهناك، قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ﴾ [النحل: ٣٠]، فذِكْرُ الله، ومحبته وطاعته، والإقبال عليه: ضامنٌ لأطيب الحياة الدنيا، والإعراضُ عنه والغفلةُ، ومعصيته: كفيلٌ بالحياة المنغَّصَة، والمعيشةِ الضنك في الدنيا والآخرة.

للحياة مراتب:

المرتبة الأولى: حياةُ الأرض بالنبات.

المرتبة الثانية: حياة النموِّ والاغتذاء، وهذه الحياة مشتركةٌ بين النبات والحيوانِ الذي يعيش بالغذاء.

المرتبة الثالثة: حياة الحيوان المغتذي بقدْرٍ زائد على نُموه واغتذائه، وهو إحساسه وحركته.

المرتبة الرابعة: حياة الحيوان الذي لا يغتذي بالطعام والشراب، كحياة الملائكة، وحياة الأرواح بعد مُفارقتها الأبدان، فإن حياتها أكملُ من حياة الحيوان المغتذي.

المرتبة الخامسة: حياة العلم من موت الجهل.

المرتبة السادسة: حياة الإرادة والهمة والمحبة؛ فإن الحياة الطيبة إنما تُنال

بالهمة العالية، والمحبة الصادقة، والإرادة الخالصة، فعلى قدْر ذلك تكون الحياة الطيبة، وأخسُّ الناس حياةً أخسهم هِمة، وأضعفهم محبة وطلبًا، وحياةُ البهائم خير من حياته، كما قيل:

نَهارُكَ يا مَغرورُ لهوٌ وغَفلةٌ
وليْلُكَ نَومٌ والرَّدى لكَ لازِمُ

وتَكْدَحُ فيما سوف تَسخَطُ غِبَّه
كذلكَ في الدُّنيا تَعيشُ البَهائِمُ

تُسَرُّ بما يَفنى وتَفرَحُ بالمُنى
كما غُرَّ باللَّذّاتِ في النَّومِ حالِمُ

والمقصود: أن حياة القلب بالعلم والإرادة والهمة، والناسُ إذا شاهدوا ذلك من الرجل، قالوا: هو حيُّ القلب، وحياة القلب بدوام الذكر وتركِ الذنوب، كما قال عبد الله بن المبارك رحمه الله:

رأيتُ الذُّنوبَ تُميتُ القُلوبَ
وقدْ يُورِثُ الذُّلَّ إدمانُها

وتَرْكُ الذُّنوبِ حَياةُ القُلوبِ
وخَيرٌ لنفسِكَ عِصْيانُها

وهلْ أفسَدَ الدِّينَ إلّا المُلوكُ
وأحبارُ سُوءٍ ورُهْبانُها

وبـاعُـوا النُّفـوسَ ولمْ يَرْبَحــوا
ولمْ يَغْـــلُ في البَيــعِ أثـمانُهــا

فقــدْ رَتَــعَ القَــومُ في جِيــفةٍ
يَبِــينُ لــذي اللُّــبِّ خُسْــرانُها

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ يقول: «مَن واظب على (يا حيُّ يا قيومُ، لا إلهَ إلَّا أنت) كلَّ يومٍ، بين سُنة الفجر وصلاة الفجر أربعين مرَّةً: أحيا اللهُ قلبه».

وكما أنَّ الله سبحانه جعَل حياة البدن بالطعام والشراب؛ فحياةُ القلب بدوام الذِّكر، والإنابةِ إلى الله، وتركِ الذنوب.

والغفلةُ الجاثمةُ على القلب، والتعلقُ بالرذائل والشهوات المنقطعة عن قُرب: يُضعِف هذه الحياةَ، ولا يزال الضعفُ يتوالى عليه حتى يموت، وعلامة موته: أنه لا يَعرِف معروفًا، ولا يُنكِر مُنكرًا، كما قال عبد الله بن مسعود ﵁: «أتدرون مَن ميِّت الأحياء؟ الذي قيل فيه:

ليـس مَن مـاتَ فاسـتَراحَ بمَيْـتٍ
إنَّــما المَيْـــتُ مَيِّــتُ الأحيــاءِ

قالوا: ومَن هو؟ قال: الذي لا يعرف معروفًا، ولا يُنكِر مُنكرًا».

والرجل: هو الذي يخاف موتَ قلْبه، لا موت بدنه؛ إذ أكثرُ هذا الخلق يخافون موتَ أبدانهم، ولا يُبالون بموت قلوبهم، ولا يَعرِفون من الحياة إلا الحياة الطبيعية، وذلك من موت القلب والروح، فإن هذه الحياة الطبيعية

شبيهةٌ بالظلِّ الزائل، والنبات السريع الجفاف، والمنام الذي يُخيَّل لرائيه أنه حقيقة، فإذا استيقظ عرف أنه كان خيالًا، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: «لو أنَّ الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها أُوتيها رجل واحد، ثم جاءه الموت: لكان بمنزلة مَن رأى في منامه ما يسُرُّه ثم استيقظ، فإذا ليس في يده شيء».

المرتبة السابعة من مراتب الحياة: حياة الأخلاق، والصفات المحمودة، فحياةُ مَن قد طُبِعَ على الحياء والعِفَّة، والجُود والسخاء، والمروءة والصِّدقِ والوفاء، ونحوها: أتمُّ مِن حياة مَن يَقهر نفْسَه، ويُغالب طبْعَه، حتى يكونَ كذلك، وكلما كانت هذه الأخلاقُ في صاحبها أكمَلَ، كانت حياتُه أقوى وأتمَّ،ولهذا كانت حياةُ الشجاع أكملَ من حياة الجبان، وحياةُ السَّخِيِّ أكملَ من حياة البخيل.

المرتبة الثامنة: حياة الفرح والسرور، وقرة العين بالله.

هذه المرتبة من مراتب الحياة أعلى مراتبها، ولكن كيف يصل إليها مَن عقْلُه مَسبيٌّ في بلاد الشهوات، وأمله موقوف على اجتناء اللذات، وسيرته جارية على أسوأ العادات، ودِينه مستهلك بالمعاصي والمخالفات، وهمَّته واقفة مع السُّفليات، وعقيدته غير مُتلقَّاة من مِشكاة النُّبوات؟!

فهو في الشهوات مُنغمِسٌ، وفي الشُّبهات مُنتكس، وعن الناصح مُعرِض، وعلى المرشد مُعترِض، وعن السُّرى نائمٌ، وقلبه في كل وادٍ هائم؛ فلو أنه تجرَّد من نفْسه، ورغِب عن مُشاركة أبناء جنسه، وخرج مِن ضِيق الجهل إلى فضاء العِلم، ومِن سجن الهوى إلى ساحة الهدى، ومن نجاسة النفس إلى طهارة القدس: لرأى الإلفَ الذي نشأ بنشأته، وزاد بزِيادته، وقَوِيَ بقوته،

وشرُف عند نفْسه وأبناء جنسه بحُصوله، قذًى في عين بصيرته، وشجًا في حلق إيمانه، ومرضًا مُترامياً إلى هلاكه.

فإنْ قُلتَ: قد أشرتَ إلى حياة غيرِ معهودة بين أموات الأحياء؛ فهل يُمكنك وصفُ طريقها؛ لأصلَ إلى شيء من أذواقها، فقد بان لي أنَّ ما نحن فيه من الحياة حياةٌ بهيمية، ربما زادتْ علينا فيه البهائم بخُلوِّها عن المنكرات والمنغِّصاتِ وسلامة العاقبة؟

قلت: لَعَمْرُ الله إنَّ اشتياق القلب إلى هذه الحياة، وطلَبِ عِلمِها ومعرفتها لَدليلٌ على حياته، وأنه ليس من جملة الأموات.

فأوَّلُ طريقِها: أن تعرف اللهَ سبحانه، وتهتديَ إليه طريقًا يوصلك إليه، ويحرِق ظُلُماتِ الطبع بأشعة البصيرة، فيقوم بقلبه شاهدٌ من شواهد الآخرة، فينجذب إليها بكُلِّيَّته، ويزهد في التعلقات الفانية، ويدأب في تصحيح التوبة، والقيام بالمأمورات الظاهرة والباطنة، وترْكِ المنهيات الظاهرة والباطنة، ثم يقوم حارسًا على قلبه، فلا يسامِحُه بخطرة يَكرَهُها الله، ولا بخطرة فضولٌ لا تنفعه، فيصفو بذلك قلبُه عن حديث النفْس ووساوسها، فيُفْدى مِن أسرها، ويصير طليقًا، فحينئذ يخلو قلْبُه بذكر ربه، ومحبته والإنابة إليه، ويخرج من بين بيوت طبعه ونفسه إلى فضاء الخلوة بربه وذكره، كما قيل:

وأخـرج مـن بـين البيـوت لعلنـي
أُحدث عنك النفسَ في السـر خاليًـا

فحينئـذ يجتمـع قلبـه وخواطره وحديث نفسـه عـلى إرادة ربـه، وطلبه والشوق إليه.

فإذا صدق في ذلك: رُزِقَ محبة الرسول ﷺ، واستولت روحانيته على قلبه، فجعله إمامه ومعلمه، وأستاذه وشيخه وقدوته، كما جعله الله نبيه ورسوله وهاديًا إليه، فيطالع سيرته ومبادئ أموره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه، وآدابه في حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه، وعبادته ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه.

فإذا رسخ قلبُه في ذلك: فُتِحَ عليه بفَهم الوحي المنزل عليه من ربه، بحيث إذا قرأ السورة، شاهَدَ قلبُه ما أُنزِلت فيه، وماذا أُريد بها، وحظه المختص به منها؛ من الصفات والأخلاق والأفعال المذمومة، فيجتهد في التخلص منها كما يجتهد في الشفاء من المرض المخوف، ومن الصفات والأفعال الممدوحة، فيجتهد في تكميلها وإتمامها.

فإذا تمكَّن من ذلك: انفتَح في قلبِه عينٌ أخرى، يُشاهِدُ بها صفاتِ الرَّبِّ ﷻ، حتى تصيرَ لقلبه بمنزلة المَرئيِّ لعينه، فيشهد عُلُوَّ الرَّبِّ سبحانه فوقَ خلْقِه، واستواءَه على عرشه، ونزولَ الأمر مِن عندِه بتدبير مملكتِه، وتكلُّمَه بالوحي، وتكليمَه لعبدِه جِبريلَ عليه السلام به، وإرسالَه إلى مَن يَشاءُ بما يَشاءُ، وصُعودَ الأمور إليه، وعَرْضَها عليه.

فيشاهِد قلبُه ربًّا قاهرًا فوقَ عباده، آمِرًا ناهيًا، باعثًا لرُسُله، منزلًا لكُتبه، معبودًا مُطاعًا، لا شريك له، ولا مثيلَ له، ولا عِدْل له، ليس لأحد معه مِنَ الأمر شيءٌ، بل الأمرُ كلُّه له، فيَشهَدُه سُبحانه قائمًا بالمُلكِ والتَّدبير، فلا حركةَ ولا سكون، ولا نفعَ ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا قبْض ولا بسط: إلَّا بقُدرته وتدبيره، فيشهد قيامَ الكونِ كلِّه به، وقيامَه سُبحانه بنفسه،

فهو القائمُ بنفْسه، المقيمُ لكلِّ ما سِواه.

فإذا رَسَخ قلْبُه في ذلك: شهد الصِّفةَ المصحِّحةَ لجميع صفات الكمال، وهي (الحياة) التي كمالُها يَستلزِمُ كمالَ السَّمع والبصر، والقدرةِ والإرادة، والكلام وسائرِ صفات الكمال، وصفةَ القيُّوميَّةِ المصحِّحة لجميع الأفعال، فـ(الحَيُّ القيُّوم): مَن له كلُّ صفةِ كمال، وهو الفعَّالُ لِما يريد.

فإذا رسخ قلبُه في ذلك: فُتح له مشهد القُرب والمَعِيَّة، فيشهَدُه سُبحانه حاضرًا معه، غيرَ غائب عنه، قريبًا غير بعيد، مع كَونِه فوقَ سماواته على عرشه، بائنًا مِن خَلْقه، قائمًا بالصُّنع والتدبير، والخلْقِ والأمر، فيحصُلُ له مع التعظيم والإجلال الأُنسُ بهذه الصِّفة، فيأنس به بعد أن كان مستوحشًا، ويَقْوى بعد أن كان ضعيفًا، ويَفرح بعد أن كان حزينًا، ويجد بعْدَ أن كان فاقدًا، فحينئذ يجد طعم قولَه: «ولا يَزالُ عَبْدي يَتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحبَبْتُه كنتُ سَمْعَه الَّذي يَسمَعُ به، وبَصَرَه الَّذي يُبصرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبطِشُ بها، ورِجْلَه الَّتي يَمْشي بها، ولئِنْ سَألَني لأُعْطِيَنَّه، ولَئِنْ استَعاذَني لأُعيذَنَّه»[1].

فأطيبُ الحياةِ على الإطلاق حياةُ هذا العبد؛ فإنه مُحِبٌّ محبوب، مُتقرِّب إلى ربِّه، وربُّه قريبٌ منه، قد صار له حبيبَه لفرط استيلائِه على قلبه، ولَهجِه بذِكرِه، وعُكوفِ هِمَّته على مَرضاته بمنزلة سمعِه وبصره، ويدِه ورِجلِه، وهذه آلاتُ إدراكِه وعملِه وسَعْيِه، فإنْ سمِع سمِع بحبيبه، وإن أَبصَرَ أبصرَ به، وإنْ بَطَشَ بَطَشَ به، وإنْ مشى مشى به.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

فإنّ السالك إلى ربّه لا تزال همّته عاكفةً على أمْرين: استفراغ القلب في صدْق الحب، وبذْلِ الجهد في امتثال الأمر، فلا يزال كذلك حتى يبدو على سِرّه شواهدُ معرفته، وآثارُ صفاته وأسمائه، ولكن يتوارى عنه ذلك أحيانًا، ويبدو أحيانًا، يبدو مِن عينِ الجُود، ويَتوارى بحكم الفَترة، والفترات أمْرٌ لازمٌ للعبد، فلِكُلّ عامِلٍ شِرَّة، ولكل شِرَّة فترةٌ، فأعلاها فَترة الوحي، وهي للأنبياء، وفترةُ الحال الخَاصّ للعارفين، وفترة الهمَّةِ للمريدين، وفترة العمل للعابدين، وفي هذه الفَترات أنواعٌ من الحكمة والرَّحمة، والتَّعرُّفاتِ الإلهيَّة، وتعريفِ قدْرِ النّعمة، وتجديدِ الشَّوقِ إليها، وعضّ النَّواجِذ عليها، وغير ذلك.

ولا تزال تلك الشواهدُ تتكرَّرُ وتتزايد، حتى تَستقرَّ، ويَنصبغَ بها قلبُه، وتَصيرَ الفَترةُ غيرَ قاطعةٍ له، بل تكونُ نعمةً عليه، وراحةً له، وترويحًا وتنفيسًا عنه.

فهِمّةُ المحبِّ إذا تعلَّقَتْ رُوحه بحبيبه، عاكفًا على مَزيد محبَّتِه، وأسباب قوتها، فهو يعمل على هذا، ثم يترقَّى منه إلى طلب محبَّةِ حبيبِه له، فيعمل على حصول ذلك، ولا يعدم الطلبَ الأول، ولا يفارِقُه ألبتَّةَ، بل يَندرِجُ في هذا الطلبِ الثاني، فتتعلَّقُ هِمَّتُه بالأمْرين جميعًا؛ فإنَّه إنَّما يحصُل له منزلةُ: «كنتُ سَمْعَه الَّذي يَسمَعُ به، وبَصَرَه الَّذي يُبصِرُ به» بهذا الأمرِ الثاني، وهو كَونُه محبوبًا لحبيبه، كما قال في الحديث: «فإذا أحْبَبْتُه كنتُ سَمْعَه وبَصَرَه...» إلخ، فهو يَتقرَّبُ إلى ربِّه؛ حِفظًا لمحبَّتِه له، واستدعاءً لمحبَّةِ ربِّه له.

فحينئذٍ يشُدُّ مِئزرَ الجِدِّ في طلب محبَّةِ حبيبه له بأنواع التقرُّبِ إليه؛ فقلبُه:

للمحبة والإنابة والتوكُّلِ، والخوفِ والرجاء، **ولسانُه**: للذِّكرِ وتلاوةِ كلامِ حبيبه، **وجوارحُه**: للطاعات، فهو لا يَفتُرُ عنِ التَّقرُّبِ مِن حبيبه.

وهذا هو السَّيرُ المُفْضي إلى هذه الغايةِ التي لا تُنال إلَّا به، ولا يُوصَلُ إليها إلَّا مِن هذا البابِ وهذه الطريق، وحينئذ تجتمِعُ له في سَيره جميعُ متفرِّقاتِ السُّلوك: من الحضور، والهَيبةِ، والمراقبة، ونَفيِ الخواطر، وتخلية الباطن.

فإن المحبَّ يَشرَعُ أوَّلًا في التَّقرُّبات بالأعمال الظاهرة، وهي ظاهر التقرُّب، ثم يترقَّى من ذلك إلى حال التقرب، وهو الانجذاب إلى حبيبه بكُلِّيَّته؛ برُوحه وقلبه، وعقلِه وبدنه، ثم يترقَّى من ذلك إلى مقام الإحسان، فيَعبُدُ اللهَ كأنَّه يراه، فيتقرَّبُ إليه حينئذ بأعمال القلوب؛ من المحبة والإنابة، والتعظيم والإجلال والخشية، فينبعث حينئذ من باطنه الجُودُ ببَذْلِ الرُّوح، والجُودُ في محبَّةِ حبيبه بلا تكلُّفٍ، فيَجودُ برُوحِه ونفْسِه، وأنفاسِه وإرادتِه، وأعمالِه لحبيبه حالًا لا تكلُّفًا.

فإذا وجد المحِبُّ ذلك، فقد ظفِرَ بحال التقرُّب وسرِّه وباطنه، وإن لم يَجِدْه فهو يتقرَّب بلسانه وبدنه وظاهرِه فقط، فلْيَدُم على ذلك، وليتكلَّفِ التقرب بالأذكار والأعمال على الدوام؛ فعساه أن يحظى بحال التقرُّب.

ووراء هذا التقرُّبِ الباطن أمرٌ آخَرُ أيضًا، وهو شيء لا يُعبَّر عنه بأحسن من عبارة أقربِ الخلق إلى الله ﷺ عن هذا المعنى؛ حيث يقول حاكيًا عن ربه تبارك وتعالى: **«مَن تقرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تقرَّبْتُ منهُ ذِراعًا، ومَن تقرَّبَ مِنِّي ذِراعًا**

تَقَرَّبْتُ منهُ باعًا، ومَن أتاني يَمْشي أَتَيْتُه هَرْوَلَةً»[1].

فيجد هذا المحب في باطنه ذوق معنى هذا الحديث ذوقًا حقيقيًا.

فذكر من مراتب القرب ثلاثة، ونبَّه بها على ما دونها وما فوقها؛ فذكر تقرب العبد إليه بالشبر، وتقربه سبحانه إلى العبد ذراعًا، فإذا ذاق العبد حقيقة هذا التقرب انتقل منه إلى تقرب الذراع، فيجد ذوق تقرب الرب إليه باعًا.

فإذا ذاق حلاوةَ هذا القُرب الثاني: أسرع المشيَ حينئذ إلى ربه، فيذوق حلاوةَ إتيانه إليه هَرْولةً، وهاهنا منتهى الحديث، منبِّهًا على أنه إذا هَروَلَ عبدُه إليه كان قُربُ حبيبه منه فوق هَرْولةِ العبد إليه؛ فإما أن يكون قد أمسك عن ذلك لعِظَم شأنِ هذا الجزاء، وأنه يدخل في الجزاء الذي لم تسمع به أُذُن، ولم يخطر على قَلب بشر، أو إحالةً له على المراتب المتقدمة، فكأنه قيل: وقِسْ على هذا، فعلى قدْرِ ما تَبذُلُ منك متقرِّبًا إلى ربك، يتقرَّبُ إليك بأكثرَ منه، وعلى هذا فلازِمُ هذا التقرُّب المذكور في مراتبه، أي: مَن تقرَّب إلى حبيبه برُوحه وجميعِ قُواه، وإرادتِه وأقواله وأعماله؛ تقرَّبَ الرَّبُّ منه سبحانه بنفْسِه في مقابلة تقرُّبِ عبْدِه إليه.

وليس القرب في هذه المراتب كلِّها قُرْبَ مسافة حسية ولا مماسة، بل هو قرب حقيقة، والرب تعالى فوق سماواته على عرشه، والعبد في الأرض.

ومِلاكُ هذا الأمرِ هو قصْدُ التقرُّبِ أولًا، ثم التقرُّب ثانيًا، ثم حال التقرب

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

ثالثًا، وهو الانبعاث بالكلية إلى الحبيب.

وحقيقة هذا الانبعاث: أنْ تَفنَى بمُراده عن هواك، وبما يُحِبُّه عن حظِّك، بل يصير ذلك هو مجموع حظك ومرادك.

وقد عرَفتَ أن مَن تقرَّب إلى حبيبه بشيء من الأشياء جُوزِيَ على ذلك بقُرب هو أضعافه، وعرَفت أن أعلى أنواع التقرب تقرب العبد بجملته -بظاهره وباطنه، وبوجوده- إلى حبيبه، فمَن فعل ذلك فقد تقرَّبَ بكُلِّه، ولم تَبقَ منه بقيَّةٌ لغير حبيبه.

وإذا كان المتقرِّب إليه بالأعمال يُعطى أضعاف أضعاف ما تَقرَّب به، فما الظنُّ بمَن تقرَّب إليه بِروحه، وجميع إرادته وهِمَّتِه، وأقواله وأعمالِه؟ وعلى هذا فكما جادَ لحبيبه بنفسه، فإنه أهْلٌ أن يُجادَ عليه، بأن يكون ربُّه سبحانه هو حظَّه ونصيبه، عِوضًا عن كل شيء، جزاءً وِفاقًا؛ فإن الجزاء من جنس العمل، وشواهد هذا كثيرة.

منها: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣]، ففرق بين الجزاءين كما ترى، وجعَل جزاءَ المتوكل عليه كونَه سُبحانه حَسْبَه.

ومنها: قولُه في الحديث القدسي: «مَن ذَكَرَني في نفْسِه ذَكَرْتُه في نفْسي، ومَن ذَكَرَني في مَلأٍ ذَكَرْتُه في مَلأٍ خَيرٍ منهُ»(١).

المرتبة التاسعة: حياة الأرواح بعد مفارقتها لأبدانها، وخلاصُها من هذا

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

السِّجن وضِيقِه، فإن من ورائه فضاءً ورَوحًا وريحانًا وراحة، نسبةُ هذه الدارِ إليه كنسبة بطنِ الأمِّ إلى هذه الدار، أو أدنى من ذلك.

ويكفي في طِيب هذه الحياة: مفارقةُ الرفيقِ المؤذي المنكِّد، الذي تُنغِّصُ رؤيتُه ومشاهدتُه الحياةَ، فضلًا عن مخالطته وعشرته، إلى الرفيق الأعلى الذين أنعم اللهُ عليهم من النبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ، وحَسُنَ أولئك رفيقًا، في جوار الرب الرحمن الرحيم.

ولو لم يكن في الموت من الخير إلا أنه باب الدخول إلى هذه الحياة، وجسر يعبر منه إليها؛ لكفى به تُحفة للمؤمن.

ولعَمْرُ اللهِ، إنَّ مَن سافر إلى بلد العدل والخِصبِ والأمنِ والسرور، صَبَرَ في طريقه على كل مشقة وإعواز وجدب، وفارَقَ المتخلِّفينَ أحوجَ ما كان إليهم، وأجاب المنادي إذْ نادى به: حَيَّ على الفلاح، وبَذَلَ نفْسَه في الوصول بَذْلَ المُحِبِّ بالرضا والسماح، وواصل السَّيْرَ بالغُدُوِّ والرَّواح، فحَمِدَ عند الوصول مَسراه، وإنما يَحمَدُ المسافرُ السُّرى عند الصباح.

عِندَ الصَّباحِ يَحمَدُ القَومُ السُّرى
وفي المَماتِ يَحمَدُ القَومُ التُّقى

وما هذا -واللهِ- بالصعب ولا بالشديد، مع هذا العمر القصير، الذي هو بالنسبة إلى تلك الدار كساعة من نهار ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥].

المرتبة العاشرة: الحياة الدائمةُ الباقية بعد طَيِّ هذا العالَم، وذهابِ الدنيا وأهلِها في دار الحيوان، وهي الحياة التي شمَّر إليها المشمِّرون، وتسابق إليها المتسابقون، وتنافس فيها المتنافسون، وهي التي أجريْنا الكلام إليها، ونادت الكتب السماوية ورسل الله جميعهم عليها، وهي التي يقول من فاته الاستعداد لها: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢١ - ٢٦]، وهي التي قال الله ﷻ فيها: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

والحياة المتقدمة كالنوم بالنِّسبة إليها، وكل ما تقدم - مِن وصْفِ السَّيْرِ ومَنازِله، وأحوال السائرين، وعبوديتِهِمُ الظَّاهرةِ والباطنةِ - فوسيلةٌ إلى هذه الحياة، وإنما الحياة الدنيا بالنسبة إليها كما قال النبي ﷺ: «**ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا كما يُدخِلُ أحدُكُم إصبَعَهُ في اليَمِّ، فلْيَنظُرْ بِمَ ترجِعُ؟**»[1].

وكما قيل: تنفَّستِ الآخرة، فكانت الدنيا نفَسًا من أنفاسها، فأصاب أهل السعادة نفس نعيمها، فهُم على هذا النفس يعملون، وأصاب أهل الشقاوة نفس عذابها، فهُم على ذلك النفس يعملون.

وإذا كانت حياةُ أهل الإيمان والعمل الصالح في هذه الدار حياةً طيِّبةً، فما الظنُّ بحياتهم في البرزخ، وقد تخلَّصوا مِن سجن الدنيا وضِيقِها؟ فما الظَّنُّ

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨).

بحياتهم في دار النعيم المُقيمِ الذي لا يزول، وهُم يَرَوْنَ وجهَ ربِّهم تبارك وتعالى بُكْرةً وعَشِيًّا، ويسمعون خِطابَه؟

فإن قلت: ما سببُ تخلُّفِ النفْسِ عن طلب هذه الحياةِ التي لا خطر لها، وزهدها فيها؟ وما سبب رغبتِها في الحياة الفانية المضمحلة، التي هي كالخيال والمنام؟ أفسادٌ في تصوُّرِها وشعورها؟ أم تكذيبٌ بتلك الحياة؟ أمْ لآفةٍ في العقل، وعمًى هناك؟ أمْ إيثارٌ للحاضر المشهود بالعِيان على الغائب المعلوم بالإيمان؟

قيل: بل ذلك لمجموع أمورٍ مُركَّبةٍ من ذلك كلِّه، وأقوى الأسباب في ذلك: ضعْفُ الإيمان؛ فإن الإيمان هو رُوحُ الأعمال، وهو الباعث عليها، والآمِرُ بأحسَنِها، والناهي عن أقبحها، وعلى قدْرِ قوَّةِ الإيمان يكونُ أمْرُه ونَهيُه لصاحبه، وائتِمارُ صاحبِه وانتهاؤه.

السبب الثاني: جُثوم الغفلة على القلب؛ فإنَّ الغفلة نوم القلب، ولهذا تجد كثيرًا من الأيقاظ في الحِسِّ نِيامًا في الواقع، فتحسبهم أيقاظًا وهم رقود.

والمقصود: أنَّ الغفلةَ هي نومُ القلب عن طلَب هذه الحياة، وهي حِجاب عليه، فإنْ كُشِفَ هذا الحجاب بالذِّكر، وإلا تكاثف حتى يصير حجاب بطالة ولعب، واشتغالٍ بما لا يُفيد، فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى يصير حجاب معاصٍ وذنوبٍ صغار تُبعده عن الله، فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى يصير حجاب كبائرَ تُوجِب مقْت الرب تعالى وغضبه ولعنته، فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع عملية يعذِّب العاملُ

فيها نفسه، ولا تُجْدي عليه شيئًا، فإن بادر إلى كشفه، وإلا تكاثف حتى صار حجاب بدع قولية اعتقادية، تتضمن الكذب على الله ورسوله، والتكذيب بالحق الذي جاء به الرسول.

فإن بادر إلى كشفِه، وإلَّا تكاثف حتى صار حجابَ شكٍّ وتكذيبٍ، يقدحُ في أصول الإيمان الخمسة، وهي: الإيمان بالله، وملائكته، وكُتُبِه، ورُسُلِه، ولقائه، فلِغِلَظ حجابه وكثافته وظلمته وسواده لا يَرى حقائق الإيمان، ويتمكن منه الشيطان يَعِده ويُمنِّيه، والنفس الأمارة بالسوء تَهْوى وتشتهي، وسلطان الطبع قد ظَفِرَ بسلطان الإيمان، فأسَرَه وسجنه إن لم يُهْلِكْه، وتولَّى تدبير المملكة، واستخدم جنود الشهوات، وأقطعها العوائد التي جرى عليها العمل، وأغلق باب اليقظة، وأقام عليه بوَّاب الغفلة، وقال: إياك أن نُؤْتَى من قِبَلِك، واتَّخذ حاجبًا من الهوى، وقال: إياك أن تمكِّن أحدًا يدخل عليَّ إلا معك، فأمْرُ هذه المملكة قد صار إليك، وإلى البوَّاب، فيا بوَّاب الغفلة، ويا حاجب الهوى لِيَلْزم كلٌّ منكما ثغره، فإن أخليتما فسد أمر مملكتنا، وعادت الدولة لغيرنا، وسامنا سلطان الإيمان سوم الخزي والهوان، ولا نفرح بهذه المدينة أبدًا.

فلا إله إلا اللهُ! إذا اجتمعتْ على القلب هذه العساكرُ، مع رِقَّة الإيمان، وقلَّة الأعوان، والإعراض عن ذِكر الرحمن، والانخراطِ في سلك أبناء الزمان، وطولِ الأمل المُفسِدِ للإنسان: آثَرَ العاجلَ الحاضر على الغائب، الموعود به بعد طَيٍّ هذه الأكوان، فالله المستعان، وعليه التُّكلان.

منزلة المعرفة

قال [الهروي] «قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]. المَعرِفةُ: إحاطةٌ بعَينِ الشَّيءِ كما هوَ».

آثار المعرفة وشواهدها:

قال أحمدُ بن عاصم رحمه الله: «من كان بالله أعرفَ كان له أخوف»، ويدلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقولُ النبي ﷺ: «أنا أعرَفُكُم باللهِ، وأشَدُّكُم لهُ خَشْيةً»(١).

ومن علامات العارف: أنه لا يطالِب ولا يخاصم، ولا يعاتِب، ولا يرى له على أحدٍ فضلًا، ولا يرى له على أحد حقًّا.

ومن علاماته: أنه لا يأسَفُ على فائت، ولا يفرَحُ بآتٍ؛ لأنَّه ينظر إلى الأشياءِ بعين الفناء والزوال، وأنها في الحقيقة كالظِّلال والخيال.

وقال يحيى بن مُعاذ رحمه الله: «يَخرُجُ العارفُ من الدنيا ولم يَقضِ وطرَه من شيئين: بكاؤه على نفسه، وثناؤه على ربِّه».

وهذا مِن أحسَنِ الكلام؛ فإنه يدلُّ على معرفته بنفسه وعيوبِه وآفاته، وعلى معرفته بربه وكمالِه وجلاله؛ فهو شديد الإزراء على نفسه، لَهِجٌ بالثناء على ربه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

قال ابنُ عطاء ﵀: «المعرفة على ثلاثة أركان: الهيبة، والحياء، والأُنس».

وقيل: (العارف ابنُ وقتِه)، وهذا من أحسَنِ الكلام وأخصَرِه؛ فهو مشغولٌ بوظيفة وقتِه عمّا مضى وصار في العدم، وعمّا لم يدخل بعدُ في الوجود، فهَمُّه عِمارةُ وقتِه الذي هو مادَّةُ حياته الباقية.

ومن علاماته: أنه مستأنِسٌ بربِّه، مستوحش ممَّن يقطعه عنه، ولهذا قيل: العارف مَن أنِس بالله فأوحشه من الخلْق، وافتقر إلى الله فأغناه عنهم، وذَلَّ لله فأعزَّه فيهم، وتواضَعَ لله فرفعه بينهم، واستغنى بالله فأحوجهم إليه.

وقال بعض السلف: «نوم العارف يقظةٌ، وأنفاسُه تسبيح، ونومُ العارف أفضلُ من صلاة الغافل».

وقيل: مجالسة العارف تدعوك مِن سِتٍّ إلى ستٍّ: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الغفلة إلى الذِّكر، ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، ومن الكِبْرِ إلى التواضع، ومن سوء الطَّوِيَّة إلى النصيحة.

[و] لا يستقِرُّ لعبد قدمٌ في المعرفة -بل ولا في الإيمان- حتى يؤْمِنَ بصفات الربِّ ﷻ، ويعرِفَها معرفةً تُخرِجُه عن حدِّ الجهل بربه؛ فالإيمان بالصفاتِ ومعرفتُها: هو أساس الإسلام، وقاعدةُ الإيمان، وثمرة شجرة الإحسان، فمَن جَحَدَ الصفات: فقد هدم أساس الإسلام والإيمانِ والإحسان، فضلًا عن أن يكون من أهل العرفان.

والرُّسُلُ مِن أوَّلِهم إلى خاتمهم -صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين-

أُرْسِلوا بالدعوة إلى الله، وبيانِ الطريق الموصل إليه، وبيانِ حال المَدْعوِّينَ بعد وصولهم إليه، **فهذه القواعد الثلاثُ ضرورية في كلِّ مِلَّةٍ على لسان كلِّ رسول:**

[القاعدة الأولى]: عرّفوا الرَّبَّ المدعُوَّ إليه بأسمائه وصفاتِه وأفعاله تعريفًا مُفصَّلًا، حتى كأن العباد يشاهدونه سبحانه، وينظرون إليه فوقَ سماواته على عرشه، يكلِّم ملائكته، ويدبِّرُ أمرَ مملكتِه، ويسمع أصواتَ خلْقِه، ويرى أفعالَهم وحركاتِهم، ويشاهد بواطنَهم كما يُشاهد ظواهرَهم، يأمر وينهى، ويرضى ويغضب، ويُحِبُّ ويَسخَطُ، ويضحك مِن قُنوطهم وقُرْب غيرِه، ويجيب دعوةَ مُضطَرِّهم، ويُغيث مَلهوفَهم، ويُعِينُ محتاجهم، ويجبر كسيرهم، ويُغني فقيرهم، ويميت ويُحْيي، ويُعطي ويَمنع، يؤتي المُلك من يشاء، ويَنزِع المُلك ممن يشاء، ويُعِزُّ مَن يشاء، ويُذِلُّ من يشاء، بيده الخيرُ، وهو على كل شيء قدير، كلَّ يومٍ هو في شأن؛ يغفر ذنْبًا، ويُفرِّج كربًا، ويفكُّ عانيًا، وينصر مظلومًا، ويَقصِم ظالمًا، ويرحم مسكينًا، ويُغيث ملهوفًا، ويَسوق الأقدار إلى مواقيتها، ويُجريها على نظامها، ويقدِّم ما يشاء تقديمَه، ويؤخِّر ما يشاء تأخيره؛ فأزِمَّة الأمورِ كلِّها بيديه، ومدار تدبيرِ الممالك كلِّها عليه، وهذا مقصود الدعوة، وزُبدة الرسالة.

القاعدة الثانية: تعريفهم بالطريق الموصل إليه، وهو صراطه المستقيم، الذي نصبه لرُسُلِه وأتباعِهم؛ وهو امتِثال أمْرِه، واجتنابُ نَهْيِه، والإيمان بوعْده ووعيده.

القاعدة الثالثة: تعريف الحالِ بعد الوصول؛ وهو ما تضمَّنه اليومُ الآخِرُ

من الجنة والنار، وما قبل ذلك من الحساب، والحَوضِ، والميزان، والصراط.

فالإيمان بالصفات ومعرفتُها، وإثباتُ حقائقها، وتعلُّقُ القلب بها، وشهودُه لها: هو مبدأ الطريقِ ووسَطُه وغايته، وهو روح السالكين، وحاديهم إلى الوصول، ومحرِّك عزَماتِهم إذا فتَروا، ومُثيرُ هِمَمِهم إذا قصَّروا.

منزلة التوحيد

قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨].

التوحيد أوَّلُ دعوةِ الرُّسل، وأوَّلُ منازلِ الطريق، وأوَّلُ مقام يقوم فيه السالكُ إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فالتوحيد: مِفتاح دعوةِ الرُّسلِ؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ لرسوله معاذِ بن جبلٍ ﷺ وقد بعثَه إلى اليمن: «**إنَّكَ تَأْتي قَومًا أهْلَ كِتابٍ، فلْيَكُنْ أوَّلَ ما تَدْعُوهُم إليه: عِبادةُ اللهِ وحْدَه، فإذا شَهِدوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، فأخبِرْهُم أنَّ اللهَ قد فَرَضَ عليهِم خَمْسَ صَلَواتٍ في اليومِ واللَّيلةِ...**» وذكر الحديثَ(١).

فالتوحيد: أوَّلُ ما يدخلُ به في الإسلام، وآخِرُ ما يخرجُ به من الدنيا، كما قال النبيُّ ﷺ: «**مَن كان آخِرُ كَلامِه: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ دَخَلَ الجَنَّةَ**»(٢)؛ فهو أوَّلُ واجب، وآخِرُ واجب، فالتوحيد أوَّلُ الأمر وآخِرُه.

وأمَّا التوحيد الذي دعتْ إليه رُسُلُ الله، ونزلت به كتُبُه فنَوعانِ: توحيدٌ في المعرفة والإثبات، وتوحيدٌ في المطلب والقصد.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨، ١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٠٣٤، ٢٢١٢٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٤٧٩).

فالأول: هو إثبات حقيقة ذاتِ الربِّ تعالى، وأسمائه، وصفاتِه، وأفعاله، وعلُوِّه فوقَ سماواته على عرشه، وتكلُّمِه بكتبه، وتكليمِه لمَن شاء مِن عباده، وإثباتُ عمومِ قضائه، وقدَرِه، وحكمه، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جدَّ الإفصاح.

النوع الثاني: مِثل ما تضمَّنَتْه سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وغالب سور القرآن، بل كلُّ سورة في القرآن فهي متضمِّنه لنوعَيِ التوحيد.

بل نقول قولًا كُليًا: إنَّ كلَّ آية في القرآن فهي متضمِّنةٌ للتوحيد، شاهدة به، داعيةٌ إليه؛ فإن القرآن: إمَّا خبرٌ عن الله، وأسمائه وصفاتِه وأفعاله، فهو التوحيد العِلميُّ الخبَريُّ، وإمَّا دعوة إلى عبادته وحدَه لا شريك له، وخلْعِ كلِّ ما يُعْبَد مِن دونه، فهو التوحيد الإراديُّ الطلَبيُّ، وإمَّا أمرٌ ونهيٌ، وإلزامٌ بطاعته في نهيه وأمرِه، فهي حقوقُ التوحيد ومكمِّلاتُه، وإمَّا خبرٌ عن إكرامه لأهل توحيدِه وطاعته، وما فعَل بهم في الدنيا، وما يُكرِمُهم به في الآخرة، فهو جزاءُ توحيده، وإمَّا خبرٌ عن أهل الشرك، وما فُعِلَ بهم في الدنيا من النَّكال، وما يحُلُّ بهم في العُقبى من العذاب، فهو جزاءُ مَن خرج عن حُكم التوحيد.

الخاتمة

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

فنختم الكتابَ بهذه الآيةِ حامدينَ لله، مُثْنِينَ عليه بما هو أهْلُه، وبما أثنى به على نفْسه.

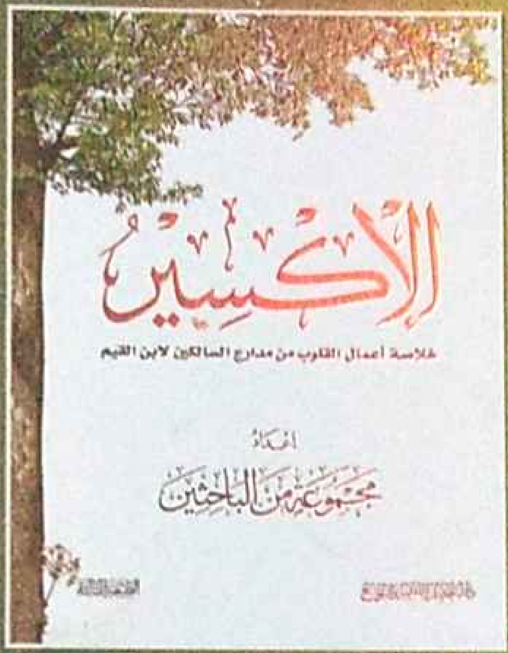
والحمد لله ربِّ العالَمِينَ، حمدًا طيبًا مباركًا فيه، كما يُحِبُّ ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرَمِ وجْهِه وعِزِّ جلاله، غَيرَ مَكْفيٍّ ولا مَكفورٍ، ولا مُوَدَّعٍ، ولا مُستَغنًى عنه ربَّنا.

ونسأله أن يوزِعَنا شُكرَ نعمته، وأن يوفِّقَنا لأداء حقِّه، وأن يُعينَنا على ذِكره وشُكرِه وحُسنِ عبادته، وأن يجعل ما قَصَدْنا له في هذا الكتابِ وفي غيرِه خالصًا لوجهه الكريم، ونصيحةً لعباده.

والحمد لله ربِّ العالَمِينَ، وصلى الله وسلَّمَ وبارَكَ على خاتم المرسَلينَ؛ محمدٍ، وعلى آلِه أجمعينَ.

الإكسير

الفهرس



دار الحضارة

أوقاف الضحيان

Aldohyan Endowments

المملكة العربية السعودية - الرياض
daralhadarah@hotmail.com
الرقم الموحد : 920000908 الفاكس : 2702719 - 011
@daralhadarah 0551523173
زوروا متجر الحضارة : hadarah.store
متجر الحضارة HADARAH • STORE

9786038253595

SR: 15